قصة وتاريخ
الحضارات العربية

أول موسوعة من نوعها حديثة وبالالوان تعالج نشأة البلدان العربية واحداثها حتى ايامنا هذه

٧ ـ ٨

تاريخية ـ جغرافية ـ حضارية وادبية

فلسطين

عاطف عيد

قصة

و

تاريخ

الحضارات العربية

٧ ـ ٨

Edito Creps, INT- 1998 -1999

BEYROUTH ,TEL :01/586207 - 01/586219 - 03/240824 - FAX 009611584391

تمهيد

يكتسب موضوع فلسطين أهميةً بالغةً، لأن معظم القوى الدولية العالمية، لعبت فيه دوراً أو أكثر، ولأن هذه القوى، تحاول اليوم الرجوع مجدداً إلى الطاولة.

لقد كُتب العديد من التحليلات والروايات، ولا نظن أن موضوعاً مماثلاً استحوذ على هذا القدر، أو أنّه جذب الاهتمام، كما هو الحال مع فلسطين وتاريخها. فهنا يبدأ الصراع منذ حطت أقدام العبرانيين في تلك الأرض، بالتزامن مع وصول الوافدين من شعوب البحر.

لكن هذا الصراع، وإن هدأ بعض الأحيان، كان لا يلبث أن يعود ليستعر من جديد. فهو كان قبل نشأة الأمبراطورية الرومانية واستمر بعدها. انتهت روما وأسطورتها الخالدة لكنّه لم ينتهِ البتة ولو أنّه كان يخبو بعض الشيء.

ونكاد نقول أنه صراع كان منذ الأزل، أو على الأقل منذ عرف الإنسان كيفية التدوين، ليحكي ويصف أخبار المعارك والأحقاد التي تفجرت في منخفضات أريحا أو تلال الجليل، في القدس أو الخليل. حتى أوشك الصراع أن يصير ثابتةً لا تتبدل أو تغير من مسارها.

وسنحاول من خلال العودة إلى المراجع، أن نحلل العديد من الوقائع المهمة والأحداث العميقة، إلقاء الضوء على تاريخ فلسطين العام مركزين على النواحي، التي لم تعطَ لغاية الآن الجهد الكافي. ومستندين إلى العديد من المراجع التاريخية والعلمية.

لمحة جغرافية

١ ـ جغرافية فلسطين وموقعها

تشكل فلسطين جزءاً من منطقة الهلال الخصيب، أطلق عليها فيما مضى اسم أرض كنعان نسبة إلى الشعوب الكنعانية التي توطنت فيها.

أما العلماء الجغرافيون فقد دعوها باسم فلسطين، وهي تعني «أرض الفِلسطينيين» المكونة مقفن قطاع صغير ضمن وحدة جغرافية أوسع منه، يقع مركزها في الصحراء السورية وفي شمالي الجزيرة العربية، وهي مناطق كان يصعب عبورها في العصور القديمة.

أما الهلال الخصيب، فهو منطقة ترويها أنهار على جانب كبير من الأهمية منها دجلة والفرات، والعاصي والليطاني والأردن.

وإذا اعتبرنا أن وادي النيل يشكل امتداداً طبيعياً لهذه المنطقة، لأمكننا القول أنّ سوريا وفلسطين تحتلان حيّزاً ضيقاً بين البحر المتوسط والصحراء، يقل عرضه عن مئة كلم.

وقد احتوت مجموعة المناطق هذه، منذ أقدم العصور، عدداً كبيراً من السكان، ونمت فيها مراكز حضارية مهمة، في دلتا النيل، ومجاري دجلة والفرات السفلي. وكانت التنقلات كثيفة بين هذين الطرفين، حيث أنَّ الطريق الأساسي كان يحاذي الفرات، ويخترق سوريا ماراً بدمشق وتدمر، ومن هناك ينحرف غرباً نحو فلسطين عبر مجدو ويافا، حتى مصر.

أما من دمشق، فكان المسافرون يسلكون على طول الصحراء، طريقاً عبر الأردن تؤدي إلى الجزيرة العربية مروراً بإيلات، وإلى مصر مروراً بشبه الجزيرة سيناء.

وكان هناك خط سير تسلكه القوافل، ويصل مباشرة نهر الفرات

بالمرافىء الفينيقية، في صور وصيدون وببيلوس. وعلى تلك الطريق الكبيرة كانت تنقل البضائع والجيوش وتنقل معها الأفكار.

ولم يكن الهلال الخصيب عالماً مغلقاً، فقد كان متصلاً بجزيرة العرب، وبأفريقيا مروراً بمصر وبلاد النوبة، والهند وإيران. ومع الغرب عبر جزيرة قبرص وكريت واليونان وأيونيا، وفي وقت لاحق اليونان القارية وإيطاليا.

إنّ التبادل التجاري بقي ناشطاً بين الهلال الخصيب وحوض البحر المتوسط، مما خلق ترابطاً ثقافياً مع بلاد الرافدين.

مكانة فلسطين

كان لفلسطين في هذه المجموعة مكانة هامشية، مع أنها كانت داخل ممر تكاثفت فيه التنقلات. فإن قلب البلد كان على مقربة من محاور المواصلات الكبيرة، لكن المنطقة كانت مجزأة، حتى أن سكانها كان محكوماً عليهم بأن يعيشوا في شيء من العزلة.

ويمكن لنا أن نلاحظ أربع قطع مستطيلة، منحدرة من الشمال إلى الجنوب:

أ ـ منطقة ساحلية على البحر المتوسط: وهي ضيّقة جداً ولا تصلح كثيراً لإنشاء المرافىء، وتقوم على جوانبها تلال تتخللها سهول صغيرة.

ب ـ سلسلة جبال وسطى على جانب من الارتفاع في اليهودية جنوباً، حيث تصل إلى أكثر من ألف متر. وتنخفض تدريجياً كلما اقتربت من الشمال، لكنّها تعود لترتفع مجدداً في أقصى الشمال، قبل أن تمتد إلى لبنان.

وهناك منخفضات عرضية تُبرز ثلاث مناطق، هي اليهودية، والسامرة والجليل. وأهم هذه المنخفضات سهول يزرعيل التي يحدّها غرباً أنف جبل الكرمل.

ج ـ منخفض كبير يقع فيه وادي الأردن وبحر الأردن والبحر الميت. وهذا المنخفض يتصل طرفه الجنوبي بوادي العربة المؤدي إلى خليج العقبة، وهو

امتداد لتصدّعات البحيرات الأفريقية العظيمة ويعدّ أعمق حفرة قارية على وجه الأرض. إذ يبلغ مستوى انخفاضه ٣٩٠ متراً تحت مستوى سطح البحر.

د ـ هضبة عبر الأردن التي يطل طرفها الغربي على المنخفض الأوسط. أما قسمها الجنوبي الغربي فتمر فيه عدة خوانق لروافد الأردن والبحر الميّت، وهو أقل انحداراً، كونه عبارة عن سلسلة جبال أقلّ ارتفاعاً من السلسلة الوسطى، وتمتد إلى حرمون ولبنان الشرقي.

المناخ

يتميز مناخ فلسطين بشكل عام بفترة جفاف طويلة نسبياً، وإن اختلف باختلاف المناطق: أيام مشمسة جداً وأمطار تتساقط خلال فترة وجيزة من السنة لا تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر.

ونستطيع أن نميّز بين أربع مناطق مناخية، معدل الأمطار فيها ينخفض من الشرق باتجاه الجنوب.

١ ـ من الشاطىء إلى التلال الوسطى: منطقة تُسقى بمعدل متوسط، وتصلح فيها المزروعات الخاصة بالبحر المتوسط، كالقمح والبقول والزيتون والكرمة والفواكه.

٢ ـ المنحدر الشرقي من سلسلة جبال اليهودية وفي النقب.

٣ ـ منطقة شبه صحراوية تصلح لبعض المزروعات الموسمية وتربية الغنم.

٤ ـ بعض الواحات الخصيبة الصغيرة المساحة.

وإن عُدّت المنطقة المروية في بعض الأيام «أرضاً جميلة» تدر لبناً، وحليباً وعسلاً، فإن المعيشة فيها ظلت قليلة الاستقرار ولم يكن في إمكانها أن تغذّي عدداً كبيراً من السكان، لم يتجاوز في حينه المليون نسمة وفق مراجع كتابية. فأورشليم والسامرة اللتان اعتبرتا من أكبر المدن، لم يتجاوز عدد سكانهما الثلاثين ألف نسمةً ولم تكن سائر المدن سوى قرى محصنة. أما باقي السكان فأقاموا في مزارع حول عيون الماء.

الفصل الأول

فلسطين خلال عصور ما قبل التاريخ

مراحل ما قبل الكتابة

إنّ المكتشفات الأثرية أثبتت بما لا يرقى إليه الشك، أن الإنسان القديم عاش في كهوف ومغاور داخل مناطق فلسطين منذ حوالي المئة وخمسين ألفَ سنةٍ كما يقول فيليب حتي. وبذلك يكون إنسان العصور ما قبل التاريخية، اتخذ من هذه البلاد موطناً له. وإذا أردنا فهم بعض أنماط حياته، نستطيع التأكيد على أنه كان صياداً بالفطرة، اعتمد على لحوم الحيوانات البرية والأسماك في قوته اليومي، بالإضافة إلى تناول بعض أنواع الثمار البرية.

أما من حيث تقسيم المراحل الزمنية، فهو مترتب على الوجه التالي:

أ ـ العصور الحجرية القديمة: تستغرق حوالي تسعين ألف سنة تنتهي في حدود السنة ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد وتشمل ثلاث مراحل هي:

١ ـ الباليوليتي الأدنى من ١٠٠,٠٠٠ سنة إلى ٧٠,٠٠٠ سنة ق.م. واستمر بحدود ٣٠,٠٠٠ سنة.

٢ ـ الباليوليتي الأعلى: ينتهي في سنة ١٠,٠٠٠ ق.م. ليبدأ بعده العصر الحجري الوسيط.

ب ـ العصور الحجرية الوسيطة: لا تستغرق أكثر من ٢٥٠٠ سنة وتنتهي في ٧٥٠٠ ق.م.

ج ـ العصور الحجرية الحديثة: من سنة ٧٥٠٠ ق.م. إلى سنة ٤٥٠٠ ق.م. ويشتمل على المراحل التي تعرف فيها على صناعة الفخاريات والخزفيات.

د ـ العصور الحجرية ـ النحاسية: من ٤٥٠٠ ق.م. إلى ٣٠٠٠ ق.م.

العصور الحجرية القديمة

١ ـ الباليوليتي الأدنى:

خضعت خلاله الطبيعة بوجه عام، لتقلبات في الطقس تراوحت بين المناخ الحار والمناخ البارد، في الطور الجيولوجي الأول. فكان لهذه التقلبات تأثيرها في أنواع النباتات والحيوانات، وفي حياة الإنسان وطرق معيشته.

وأول ما ظهر الإنسان، كان المناخ يميل إلى الاعتدال في بقاع انتشرت فيها الأدغال والغابات، فعاش فيها متنقلاً لا يستقر في مكان، ويسعى دائماً وراء طرائدَ يصطادها بأدوات حجرية بدائية.

في فلسطين، ظهرت طلائع هذا النشاط البشري في موقع قريب من بيت لحم، فيه كمية قليلة من شظايا حجرية مشطوبة وعظام لحيوانات المناطق الاستوائية الحارة، لكنها لا تسمح بسبب قلتها باستنتاج الكثير عن حياة الإنسان الذي صنعها.

وتسمح المكتشفات الأثرية التي عُثر عليها قرب بحيرة طبرية، بالقول أنّ أقدم توطن للإنسان في فلسطين حصل في هذه المنطقة.

ومع نهاية فترة المناخ الحار، بدأ الإنسان يسكن في الكهوف والمغاور الطبيعية، فألف الحياة العائلية، وارتدى جلود الحيوانات، وتبدلت صناعته وتطورت. ولا نجد آثار تلك الصناعة، إلا داخل المغاور والكهوف التي ذكرناها، على جانبي مجرى الأردن وبعض المناطق السورية. أما داخل المناطق اللبنانية فهناك مغارة عدلون بين صور وصيدا، ومغارة المسلوخ بين جبيل والبترون.

وسميت هذه الصناعة بالصناعة البيرودية، نسبة إلى بيرود على السفح الشرقي للسلسلة الشرقية، وتعتبر مرحلة انتقالية بين الباليوليتي الأدنى والباليوليتي الأوسط.

٢ ـ الباليوليتي الأوسط:

عرف الإنسان خلال هذا العصر صناعة سميت «لوڤالوزو ـ موستيريه»، لكنها تختلف عن مثيلاتها التي راجت في أوروبا، وتبدو أكثر تطوراً. ويستدل أن الكثافة السكانية ازدادت خلال هذا العصر، وانتشرت هذه الصناعة من وادي النيل حتى سهل أنطاكية. وخلال هذه الحقبة برز جنس بشري جديد راح يدفن موتاه وكان أكثر تطوراً من سلفه.

٣ ـ الباليوليتي الأعلى:

في هذا العصر اختفت الصناعة السابقة، «لوڤالوزو ـ موستيريه»، كما ظهرت في الباليوليتي الأوسط دون سابق إشارة، وذلك من دون أن تشكل حلقة انتقالية بينها وبين صناعة الباليوليتي الأعلى. هذه الحقبة محددة بشيء من الدقة، حيث تمت دراسات تحليلية ومحاولات تأريخ استناداً إلى فحوصات مخبرية لبقايا نباتية.

في هذه الفترة ساد مناخ متوازن، كثرت فيه الغابات والأحراج، وتنوعت حسب ارتفاعها وقربها من البحر. وظهر إنسان جديد هو أقرب إلى ما نعرفه اليوم في خصائص الإنسان. لكن تبدل المناخ ربما، دفع بهذا الإنسان إلى التوجه ناحية القارة الأوروبية، وأحدث تبدلاً في مراكز الثقل الحضاري من آسيا وأفريقيا باتجاه أوروبا ولمصلحتها.

أما أنواع الحيوان التي عرفتها مناطق الشرق الأدنى فتشمل الماعز البري، والأيائل، وما شابهها.

وبالإجمال فإن توطن الإنسان خلال الباليوليتي الأعلى حصل قرب مجاري المياه.

العصور الحجرية الوسيطة

نعرف هذه العصور باسم العصر الأبي باليوتي أو الميزوليتي. لكنّ المعلومات المتوافرة عنها تبقى غامضة، وصناعاتها الحجرية قد تكون بدأت ما بين سبعة عشر ألفَ سنةٍ وخمسة عشر ألفاً قبل الميلاد.

أما نهايتها فقد حددت على شيء من الدقة، حول مطلع الألف التاسع قبل الميلاد، بين تسعة آلافٍ وثمانية آلاف وخمسمئة قبل الميلاد.

فضّل الإنسان، خلال هذه الحقبة استعمال الأدوات الحجرية الصغيرة «ميكروليت» Microlithes، فاختلفت صناعته عن صناعات العصور السابقة، وقد صنفت بادىء الأمر ضمن مجموعة واحدة، ثم قسمت بعد اكتشاف موقعي كبارة الذي أشرنا إليه ومغارة الناطوف إلى عهدين:

١ ـ الكباري، المتميز باستعمال الشفيرات.

٢ ـ الناطوفي، وهو الأكثر تنوعاً، مع صناعة أدوات عظمية جديدة في كامل مناطق الشرق، وفيه أخذت تظهر أولى دلائل استقرار الإنسان.

إلاّ أنّ الحدث الأبرز خلال هذه المرحلة، يبقى دون شك هو وجود دلائل تشير إلى أنّ الإنسان بدأ يتخلى في بعض المواقع عن طريقة السكن المؤقت الخاص بالصياد المتجول، ليستقر في مساكنَ ثابتة لمدة أطول.

على أن الأدوات المستعملة لا تعطي صورة واضحة وتامة عن الجوانب الحضارية الأخرى.

العصور الحجرية الحديثة

أعطى هذا الإثبات الدافع على وجود الإنسان. وكانت نهاية العصر الأپي باليوليتي تميزت بتغييرات أساسية طاولت مختلف الحقول واعتبرت ثورة حقيقية وبداية فترة جديدة وحاسمة في تاريخ الإنسانية، سُميت بالعصر النيوليتي أي «الحجر المصقول».

فالإنسان الذي كان يعيش صياداً متجولاً، كما أوردنا أقام علاقاتٍ جديدة مع محيطه الطبيعي. إستقر وارتاح من حلّه وترحاله، واكتشف إمكانية زراعة الحبوب وتدجين الحيوانات، وبدأ يؤثر في الطبيعة بعدما كان يتحمل قسوتها ويتقبلها على علاتها. كما أنه باشر بإنتاج غذائه بنفسه وذلك لأول مرة.

كلُّ ذلك يعني أن هذا التحضر كان في أساس نهضة شاملة، وخطوة

جبارة تركت أثرها العميق في التاريخ البشري. فعلى مستوى المتطلبات الإنسانية، نرى أنّ هذه قد تضاعفت وازدادت معها إمكاناته، ففجرت تبدلات جذرية على كل المستويات وأثرت في التطور التقني تأثيراً بالغاً. فنتج عن ذلك تبدل مهم في أساليب العيش والسكن، وفي التقاليد الدينية والمدفنية وما إلى ذلك.

وفلسطين، بحكم موقعها الجغرافي على مشارف قارات ثلاث هي أوروبا وآسيا وأفريقيا خضعت لمثل هذه التغييرات التي وفّرت أجواءً أكثر ملائمة لسكن الإنسان واستقراره ولتكاثر المراكز الحضارية والتقنية حيث ظهرت تجمعات ريفية وقروية راحت تساهم في تطور الحضارة الجديدة. بعدما اختفت الصناعة الناطوفية، وحلت محلها أدوات أكبر حجماً مصقولة صقلاً مالساً.

ومن الأحداث المهمة في العصر النيوليتي اكتشاف الخزف أو الفخار المشوي، بعد محاولات صنع الآنية بالكلس ثم بالطين غير المشوي خلال الألف السادس ق.م.

أهم الشواهد على التجمعات النيوليتية نجدها في أريحا. وتبين أن الإنسان في تلك الفترة كان يصنع أصناماً بمظاهر بشرية من الطين غير المشوي وذلك بنحتها من الحجارة الكلسية وقد يكون ذلك بداية نشوء الفكر الديني. إلاّ أنّه يشكل على أية حال بداية ظهور البوادر الفنية.

يمتد العصر النيوليتي من أواخر الألف السادس حتى مطلع الألف الرابع ق.م. وبالتحديد من ٥٢٥٠ ق.م. إلى ٣٩٠٠ أو ٣٨٠٠ ق.م. وهو أحدث عهداً من النيوليتي في جبيل، وأقدم من النيوليتي في بلاد الأناضول وسوريا الشمالية وفينيقيا الشمالية (أوغاريت) وجبال زغاروس.

وبالاستناد إلى الأشكال الهندسية والأشكال الفخارية والأدوات قسم العصر النيوليتي إلى ٣ مراحل تشمل القديم والوسيط والحديث.

١ ـ النيوليتي القديم

تشهد البقايا والمواقع المكثفة في أبوغوَش بالقرب من مدينة القدس

وفي مناطق اليرموك ووادي بيسان، على وجود حياة متقدمة، حيث كان الناس يعيشون في مساكن مؤلفة من غرفة واحدة مستطيلة، أو مربعة، فرشت أرضها بطلاء من الكلس. وبجوار هذه المنازل، توزعت المدافن التي أظهرت بداية استعمال الآنية الفخارية لدفن الأطفال. وتبين أن بعض الناس عملوا في صناعات خشبية أو حجرية لصيد الحيوانات البرّية، وقد باتت أكثر إتقاناً من ذي قبل.

كما أن بروز الأعمال الزراعية حدد بداية مرحلة مهمة في تطور المجتمع الإنساني، ولعلها هي التي دفعت بالإنسان الذي كان يكتفي بصيده وقطافه، لاختيار موقع يستقر فيه ويعيش مع أفراد مجموعته. فكان على هذا الإنسان أن يخضع لقوانين البيئة الجغرافية التي يختارها. وأن يؤمنَ عيشه من الزراعة واستثمار الغابات والصيد البري أو البحري. وأسلوب العيش هذا أدى إلى بروز حرف لم تكن معروفة كحفظ الجلود، وجدل الحبال وغزل الصوف. فتطورت الأدوات القديمة وظهرت معها أدوات أخرى جديدة مصنوعة من العظم (سنانير ومخارز).

وفي خلال هذه الحقبة تم تطور بالغ تشهد عليه التماثيل الصغيرة من الطين التي تمثل أشكالاً أو رؤوساً إنسانية أو حيوانية.

٢ ـ النيوليتي الوسيط

تطورت فيه الأنماط الهندسية بشكل ملحوظ، فأصبحت المساكن متعددة الغرف. وكانت ملامح هذا التجديد قد بدأت منذ أواخر النيوليتي القديم.

من جهةٍ أخرى تنوّعت صناعة الأدوات الحجرية، وتقدمت صناعة الفخار، فيما استمرت العادات المدفنية على حالها السابقة، إنما تزايد استعمال الآنية الفخارية لدفن الأطفال.

ويبقى أن نشير إلى أن مدنية النيوليتي الوسيط تشكل تطوراً حضارياً بارزاً في الحياة البشرية.

٣ ـ النيوليتي الحديث

في هذه الفترة تحقق تقدم مهم في تنظيم المجتمعات حيث تركزت المنازل الواسعة قرب بركة مياه شُيّد على جوانبها مكان للعبادة. وازدهرت الحرف على أطراف التجمع السكني وتطورت التقنيات الخاصة بها، وساد تخزين المواد الغذائية في جرار كبيرة. وهكذا انتظم المجتمع الصناعي الصغير بقدر ما تسمح به البيئة الجغرافية والموارد التي توفرها.

العصور الحجرية ـ النحاسية

تقسم إلى فترتين: الكالكوليتي القديم والآخر الحديث.

١ ـ الكالكوليتي القديم

حدثت فيه تغييرات كبرى، كما برزت مميزات عدة. ففي مجال الهندسة ظهرت الزوايا المستديرة من الخارج في المساكن التي عادت إلى الغرفة الواحدة، والتي لم تعد تلاحق بعضها البعض، كما كانت الحال في العهود السابقة.

إلاّ أنّ الحدث الأهم في هذه الفترة، يبقى بلا شك اكتشاف المعادن الذي فتح الطريق أمام نشاطات جديدة وحرف جديدة، وعلاقات جديدة، مع البلدان التي تملك المعادن. ومن المحتمل أن تكون تلك العلاقات قد تمت عن طريق البر، مع بعض المناطق كمصر.

ويعتبر النحاس من أول المعادن التي استعملها الإنسان، ومن هنا تسمية الحقبة بالعصر الكالكوليتي أو الأنيوليتي أي العصر الحجري ـ النحاسي (خالكوس ـ ليتوس) وهي تسمية يونانية.

ثم راح استعمال هذا المعدن ينتشر مكان الحجر في صناعة الأدوات، إلى أن تخطاها نهائياً مع فجر العصور التاريخية.

٢ ـ الكالكوليتي الحديث

ظهرت خلاله مساكن تتألف من غرفة واحدة مستطيلة ومساكن أخرى لها حنية واحدة أو حنيتان. كما وجدت أبنية صغيرة مستديرة ربما استعملت

إهراءات للحبوب، وبقايا سور يلتف حول البركة أو النبع، ومن الداخل بناء وحيد قد يكون معبداً. ومن مظاهر التقاليد الدينية والمدفنية انتشار طريقة الدفن في الجرار الكبيرة بشكلها البيضوي.

في نهاية العصر الكالكوليتي أي حوالي أواخر الألف الرابع ق.م. اكتشفت الكتابة، وشاعت طريقتان للتدوين، المسمارية في بلاد ما بين النهرين والهيروغليفية في بلاد النيل. وقد اصطلح على اعتبار ظهور الكتابة، التي سجلت بدء مرحلة جديدة في تاريخ الإنسانية هي مرحلة التاريخ المدوّن، حداً فاصلاً بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التي تلتها والتي نسميها العصور التاريخية.

الفصل الثاني

العصور التاريخية

العصر البرونزي القديم

من ٣٢٠٠، ٣١٠٠ إلى ٢٢٠٠، ٢١٠٠ ق.م.:

مع بزوغ فجر التاريخ حدثت في هذه المنطقة وفلسطين من ضمنها تغييرات أساسية، كانت نتيجة قدوم عناصر اثنية جديدة سميت بالسامية، فمن هم الساميون؟

لفظة «الساميون» أو سامية، أطلقها بعض الباحثين أمثال الألماني ڤون شلوس، على سكان الشرق الأوسط في العهود القديمة خاصة. وقد استند في ذلك إلى التوراة، التي تذكر أن أولاد سام وعشيرته سكنوا كنعان والمعروف أن التوراة كتبت أجزاؤها الأولى، في الألف الأول قبل الميلاد، أي بعد ما يزيد على الألفي عام على مجيء تلك العناصر الاثنية إلى هذه البلاد. ولا يجب أن ننسى أن التوراة روت بعض الحوادث التاريخية وعللتها بما يتناسب ومشاعر اليهود، وطموحاتهم. في أية حال انتشرت التسمية مع المشترقين الأوروبيين ولا تزال إلى اليوم تستعمل كاصطلاح.

وقد اختلفت الآراء حول منشأ الساميين هؤلاء، فقالت إحدى النظريات بأنهم أتوا من جبل ارارات في أرمينيا حيث حطت سفينة نوح. ولكن إذا اعتبرنا أن سفينة نوح هي منشأ أبناء سام، فلا بد من أن تكون منشأ ابناء حام، وهو ابن لنوح. فيكون منشأ الساميين هو عينه منشأ الحاميين، وهذا ما لا تعترف به النظرية.

وتقول نظرية أخرى إنَّ الساميين أتوا من بلاد الأموريين، بينما تعيد نظرية ثالثة أصلهم إلى أفريقيا.

أما النظرية الكلاسيكية فتعتبر أنّ الساميين قدموا من شبه جزيرة العرب إلى بلاد الرافدين، إمّا عن طريق الخليج الفارسي وإمّا عن طريق البحر الأحمر. ثم انتشروا في بلاد كنعان. ويعتمد أصحاب هذه النظرية على براهين منها أنّ صفات الساميين كتحمل المشقات والتعصب والعنصرية والإيمان الشديد هي صفات أهل الصحراء، ويعللون قيام الغزوات السامية الأولى بأخرى لاحقة كموجة الانباط في القرن الثاني ق.م. وكخروج الإسلام في القرن السابع الميلادي.

يستنتج مما ورد أنّ النظرية الكلاسيكية ليست ثابتة وتترك باب الجدل مفتوحاً على مصراعيه. لكن من المفيد أن نوضح أنّ هذه العناصر السامية الجديدة لم تأتِ إلى بلاد مهجورة، بل إلى بلاد كانت قد خطت أشواط كبيرة على دروب الحضارة والمدنية وهذه العناصر لم تلبث أن اندمجت مع السكان الأصليين لتؤلف مجتمعات واحدة.

العصر البرونزي الوسيط ٢٢٠٠، ٢١٠٠ إلى ١٧٥٠ق.م.

جرت في أواخر الألف الثالث ٢٢٠٠، ٢١٠٠ق.م. أحداث مهمة خلفت أثراً كبيراً في تطور الحضارة الإنسانية في الشرق كله.

فقد تعرضت مناطقه لعمليات تدمير واسعة، والحفريات الأثرية تؤكد هذه الوقائع، ففي فلسطين دمرت مدينة عاي في أواخر الألف الثالث على يد شعوب مسلحة اجتاحت المدن وأحرقت ودمرت عدداً منها ولم تُسكن إلى ما بعد القرن العاشر ق.م.

ويشوع بن نون يروي لنا أنه احتل مدينة عاي في القرن الثاني أو الثالث عشر لكنّ روايته مغلوطة بحسب بعض المصادر كون عاي دمرت بالنار ولم تقم لها قائمة، إلاّ في الألف الأول ق.م. ومدينة أريحا خضعت في الفترة ذاتها لتغييرات أساسية تسببت بقدوم عناصر غريبة عنها.

كما نشأت في فلسطين مدن عدة جديدة مثل تل الفارغة وتل بيت مريم وتل بيت شمش.

هذه الأحداث التي ذكرت، قابلتها في مصر مرحلة انتقالية ما بين الأسرة الفرعونية السادسة التي اتخذت من مدينة ممفيس مقراً لها، والدولة الوسيطة التي كان مركزها في طيبة.

وهي على وجه الإجمال مرحلة اضطراب وفوضى كانت وراءها ظروف خارجية تشبه إلى حد ما تلك التي حلت بفينيقية وفلسطين، وإن لم تكن هي نفسها. إذ كان أحد الفراعنة الذين حكموا مصر في تلك الفترة يحمل اسم ابشي وينتمي إلى العناصر الغريبة التي اجتاحت البلاد.

وقد برزت التأثيرات الحضارية والهندسية الأمورية بشكل واضح واكتشفت مساكن مبنية بمحاذاة الأسوار تختلف عما عُرف سابقاً، فهي تتألف من غرفتين مربعتين يصل بينهما رواق واسع.

هذا التصميم كان شائعاً منذ الألف الثالث ق.م. في بلاد الأموريين مما يدل على أن العناصر الأمورية استقرت في مناطق الشرق الأدنى.

لكن إذا كان العنصر الأموري هو المسيطر أو الأكثر بروزاً، فذلك لا يعني أن القادمين الجدد هم من الأموريين وحدهم، فالتأثيرات غير الأمورية التي ظهرت في الفن وتصنيع الحلى والمجوهرات كانت كبيرة وغير ناتجة فقط عن اتصال تجاري أو ثقافي فحسب. ويبدو بوضوح التأثر بفن مدينة أور في بلاد ما بين النهرين، كما أن صناعة الخزف عرفت تبدلات جوهرية في أشكال الآونة. ويشار هنا إلى تأثر جزر البحر الإيجي بالانماط التي سادت هنا، فيوضح هذا الأمر الاتصال الأول بين الشرق والغرب.

وبعد غزوات الأموريين ساد الاستقرار المنطقة بمجملها وسرعان ما حاولت شعوبها التأقلم مع المستجدات الإقليمية الحاصلة.

حتى مطلع العصر البرونزي الحديث

الملوك الرعاة أو «الهكوس»

في أواخر العصر البرونزي الوسيط، تعرضت البلاد الشرقية للاضطرابات عندما اجتاحتها شعوب تعتبر مزيجاً من عناصر أسانية وحورية

وحشية بالإضافة إلى عناصر سامية من الحضر والبدو انضمت إلى الغزاة الأقوياء، وقد تابع هؤلاء الغزاة زحفهم إلى بلاد النيل، فاحتلوها واستقروا في مصر السفلى. ولكنّهم نشروا سلطتهم على الأجزاء الأخرى من مصر وأسسوا أسرة فرعونية جديدة عاصرت الأسر الفرعونية، التي كانت لا تزال قائمة ولو شكلياً في مصر الجنوبية. وأطلق المصريون على هؤلاء الغزاة اسم «هكسوس»، أو الأسياد الغرباء، أو حكام البلاد الأجنبية.

وقد فسّره بعض المؤرخين القدامى على أنه يعني الملوك الرعاة، ولا يزال الكثيرون منهم يعتمدون هذه التسمية اصطلاحاً في دراساتهم.

ومما ساعد في نجاح حملة الهكسوس وفي اجتياحهم المنطقة بسهولة نسبية استعمالهم الحصان في جر المركبات الحربية. لأن سكان هذه المناطق كانوا يجهلون حتى تلك الفترة استعمال المركبات الحربية وكذلك استعمال الحصان لأغراض عسكرية، ولعل الهكسوس هم الذين أدخلوا تدجين الحصان إلى هذه البلاد، كما أدخلوا السيوف الحديدية المنحنية.

استمرت سيادة الملوك الرعاة فترة قرن ونصف تقريباً انقطعت خلالها العلاقات بين مصر وما جاورها لأن الهكسوس طبقوا نظاماً عسكرياً اقطاعياً، لكنّ عهدهم ظل مضطرباً لا يعرف الاستقرار والأمن، يشهد على ذلك انتشار دفن الأسلحة بكثرة مع الموتى، فهي طريقة اختفت في العصور اللاحقة نتائج غزوة الهكسوس ونهاية حكمهم.

بدأت دولة الهكسوس بالانهيار حوالي سنة ١٥٧٠ق.م، حين هب المصريون لتحرير بلادهم يقودهم الفرعون أحموس الأول ١٥٧٠ ـ ١٥٤٥ ق.م. وهو أحد أمراء مدينة طيبة ومؤسس الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة. ولم يكتفِ المصريون باستعادة بلادهم بل راحوا يطاردون الهكسوس خارجها، فدخلوا فلسطين، ثم اجتازوها إلى لبنان. وبعد ذلك تعقبهم الفرعون تحوتمس الأول حوالي ١٥٢٠ ق.م. حتى مناطق الفرات العليا وما بين النهرين، ولكن كان لا بدّ من انتظار الفرعون تحوتمس الثالث للقضاء على سيادة الهكسوس قضاءً تاماً.

العصر البرونزي الحديث

مع انهيار دولة الهكسوس، بدأ عهد جديد بالنسبة للمنطقة وعلاقاتها مع مصر فقد اختلفت طبيعة هذه العلاقات عما كانت عليه في الماضي. ذلك أن المصريين حاولوا بسط نفوذهم على البلاد بالقوة، فشنوا عشرات الحملات العسكرية بينها ست عشرة حملةً قام بها تحوتمس الثالث وحده، ذلك يعني أنّ شعوب المنطقة لم تقبل بأمر واقع بل ظلت تنتظر الفرص للتحرر من سيطرة الفراعنة المصريين. غير أن تفوق الدولة المصرية استمر طوال قرن كامل وتجلى هذا التفوق، عندما استطاع تحوتمس الثالث في حملته الأولى حوالي سنة ١٤٦٨ ق.م. أن يهزم ٣٣٠ أميراً شرقياً بينهم عدد من الأمراء الهكسوس كانوا قد أقاموا حلفاً برئاسة أمير قادش لمواجهة جيش مصر في مجدو، وتذكر النصوص المصرية أن تحوتمس تابع سيره باتجاه لبنان الجنوبي حيث احتل بالقوة ثلاث مدن، كما بنى قلعة في بلاد الأمراء اللبنانيين.

انتهت فترة الاضطراب والحروب، التي عمت أواسط القرن الرابع عشر ق.م. بتراجع النفوذ المصري أمام قوة الحثيين الذين بدأوا باجتياح الميتنيين ثم وجهوا هجماتهم نحو فلسطين ومدن الساحل الفينيقي.

المنطقة في أواسط القرن الرابع عشر ق.م.

أدى ضعف الدولة المصرية في أواسط القرن الرابع عشر ق.م. إلى جوٍّ من الفوضى والقلق ساد منطقتنا. فقد بات الملوك والأمراء الشرقيون وهم الذين كانوا يتعاونون مع المصريين تعاوناً وثيقاً، في حيرة تامة من أمرهم إزاء قوة الحثيين وخطرهم من جهة، وانشغال الفرعون المصري اخناتون عنهم بالقضايا الدينية والداخلية من جهة أخرى، فإنّ بعض الأمراء والملوك تحالفوا مع الحثيين ضد مصر بينما بقي بعض الأمراء الآخرين أوفياء للفرعون ولو على حساب سلامة عروشهم أحياناً.

لم تستطع مصر إعادة شيء من التوازن إلاّ بعد وصول الفرعون سيتي الأول ١٣١٧ ـ ١٣٠١ ق.م. إلى السلطة وقد تمكن من شن حملة على آسيا

وبسط نفوده على الساحل الفلسطيني والفينيقي وأمّن بذلك قواعد لاسطوله وطريقاً برياً للاتصال بمصر. وقد قبل الحثيون بالصلح مع الفرعون بعد نجاحه هذا، غير أن الصلح لم يطمئن الملوك والأمراء المحليين الذين باتوا في حيرة وقلق يخشون الانتفاضات الحثية من جهة وردات الفعل المصرية من جهة أخرى، فمدنهم تبقى في هذا الوضع معرضة للخراب والدمار من قبل هذا الجانب أو ذاك.

وأتت الأحداث لتؤكد أنّه كان هناك ما يبرّر قلق الملوك المحليين وخشيتهم، فقد استغل الحثيون الهدنة وأعدوا العدة لحملة تعيد إليهم هيبتهم ونفوذهم، إذ أن ملكهم موتاليش تمكن من جمع جيش قوامه حوالي ٣٠٠٠٠ جنديٍّ. وتنبه المصريون إلى استعدادات الحثيين، فقام الفرعون رعمسيس الثاني وجمع جيشاً وتوجه إلى لبنان وسار بمحاذاة الشاطىء إلى أن تمكن من الاتجاه شرقاً نحو العاصي، وربما سلك طريق البقاع وتلاقى الجيشان على مقربة من قادش (١٢٩٦ق.م.) حيث تذكر النصوص المصرية التي خلفها رعمسيس أنّ الفرعون سحق الحثيين، «ورمى بهم إلى النهر وكأنّهم تماسيح جزعة، فقد وقعوا على وجوههم واحدهم فوق الآخر فقتل منهم ما شاء له أن يقتل».

والواقع أنّ هذا النص فيه الكثير من المبالغة. فصحيح أنّ المصريين انتصروا في قادش لكن نصر الفرعون رعمسيس لم يكن حاسماً، إذ اضطر إلى تكرار حملاته غير مرة. وفي سنة ١٢٧٨ ق.م. توصل إلى عقد معاهدة صلح وصداقة مع الملك الحثي حتوشلش، وقد اكتشفت هذه المعاهدة بنصها الكامل حيث كتبت باللغتين الحثية والخط المسماري والمصرية والكتابة الهيروغلفية.

ومما نصت عليه المعاهدة وهي الأقدم من نوعها:

١ - إحلال السلام والأخوة بين القوتين أي مصر والحثيين إلى الأبد.

٢ - توضيح مناطق النفوذ بحيث يعترف المصريون بأنّ شمال سوريا وبلاد أمورو هي مناطق حثية، بينما يقبل الحثيون بأن تبقى فينيقيا وفلسطين تحت النفوذ المصري.

مع انتهاء عهد رعمسيس الثاني، بدأ النفوذ المصري بالانحسار عن المناطق الشرقية وما لبث أن تلاشى كلياً، ذلك أنّ خلفاء هذا الفرعون وبنوع أخص فراعنة الأسرة العشرين، لم تكن تدفعهم أية رغبة للحفاظ على المكاسب التي حققتها الحملات العسكرية المتكررة ضد الحثيين. وفي النصوص المصرية ما يُشير بوضوح إلى استقلال الملوك الشرقيين بإدارة بعض شؤون مدنهم.

استمر هذا الوضع على حاله حتى أواخر القرن الثالث عشر ق.م. ومطلع القرن الثاني عشر ق.م حين بدأت تظهر في المنطقة شعوب جديدة كالعبرانيين والآراميين والفلسطينيين، فكان من الطبيعي أن تتغير الأوضاع السياسية ليبتدىء عهد جديد بالنسبة إلى الممالك الشرقية في تلك الحقبة.

العصر الحديدي (١٢٠٠ق.م. - ٦٠٠ ق.م.)

في أواخر القرن الثالث عشر، أدت التطورات المهمة التي حدثت في المنطقة إلى تبدل في الخريطة السياسية. وبالتالي إلى بداية مرحلة تاريخية جديدة. فقد ظهرت شعوب كالآراميين والفلسطينيين والعبرانيين.

سيطر الآراميون على سوريا وبلاد ما بين النهرين، وامتزج بهم من بقي في المنطقة من أموريين وحوريين وحثيين. وعلى الرغم من أهمية الدور الذي لعبوه في سوريا وبلاد ما بين النهرين وعلى الرغم من جعلهم دمشق عاصمة لهم، فإنَّ الأراميين لم يتمكنوا من السيطرة على كامل المنطقة التي بدأت تتعرض لغزو قبائل هندو أوروبية، خرجت من آسيا الصغرى ومناطق بحر إيجه وسارت على شواطىء المتوسط الشرقية، فاجتاحت في طريقها عدداً من المدن، ودمرت مدينة أوغاريت تدميراً كاملاً، وتابعت تقدمها باتجاه مصر. وهناك تصدى الفرعون رعمسيس الثالث ١١٩١ ق.م. للغزاة وطردهم من البلاد ومن مصر فتراجعوا ليستقروا على الشاطىء جنوبي فينيقيا، بين يافا وصحراء غزة. واستطاع هؤلاء أن يبقوا أقوياء وأن يحاربوا جيرانهم، نظراً إلى أنهم كانوا يتقنون صناعة الأسلحة بمعدن جديد هو الحديد، إلى أن قضى على سيطرتهم الملك العبري داود في القرن العاشر.

ومع الآراميين والفلسطينيين ظهر العبرانيون شعباً ثالثاً على مسرح الأحداث في الشرق، وهم مزيج من العبرانيين الذين عادوا من مصر والعبرانيين القادمين من أور في بلاد الكلدان. من جهة أخرى ضعفت الدولة المصرية ودخلت هزالاً وانحطاطاً، وتفككت الدولة الحثية، بينما كانت الدولة الآشورية لا تزال فتية غير قادرة على أداء دورها الاستعماري.

الفصل الثالث

الشعوب التي استوطنت فلسطين

العبرانيون

العبرانيون، «قبائل ما وراء النهر» الذين سيخرج منهم في ما بعد بيت إسرائيل، كانوا في السابق يسوقون قطعانهم بقيادة إبراهيم في أقصى شرقي إلى أقصى غربي الهلال الخصيب.

وحوالي السنة ٢٠٠٠ ق.م. قطعت هذه المجموعات السامية الأردن، باتجاه أواسط فلسطين، حيث عملت في الزراعة والرعي.

ولا بد من الإشارة في مطلع كتابتنا عن أصل العبرانيين إلى أن غموضاً كثيفاً لا يزال يكتنف أصول هذا الشعب، ولا يمكن للباحث الركون إلى التوراة وحدها والاستناد عليها في عملية تحديد الأصول هذه، لأن التوراة نظرت إلى الأمور أو على الأقل نقلتها من وجهة النظر اليهودية. وهناك العديد من الأخبار التي أوردتها يكتنفها الإبهام ولا تشير إليها المصادر الأخرى.

فالمؤرخ فيليب حتي يعتبر في كتابه «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» أنّ دخول العبرانيين إلى فلسطين تم على ثلاث دفعات أو هجرات لكنها غير دقيقة التحديد بحيث أتت الموجة الأولى من بلاد الرافدين، وكانت متزامنة مع حركة الملوك الرعاة في القرن الثامن عشر ق.م. وجاءت الهجرة الثانية بعدها بأربعة قرون وكانت متصلة بهجرة الآراميين. أما الهجرة الثالثة فمصدرها مصر وكانت بقيادة موسى ويشوع في أواخر القرن الثالث عشر أي حوالي ١٢٣٠ ـ ١٢٥٠ ق.م. عندما خرجوا متوجهين إلى بلاد كنعان التي كانت تعتبر حينذاك واحة السعادة. لكنهم اصطدموا بمقاومة شرسة من الفلسطينيين.

عمل الأراميون ككل الشعوب القديمة، في زراعة الأرض ورعاية

القطعان، وقاموا كذلك باستيراد البخور والتوابل من العربة وصدروها إلى مصر محققين أرباحاً تجارية كبيرة.

وتجدر الإشارة إلى نص كتب على قبر أرمحب خليفة الفرعون أمنحوتب الرابع يقول: «كان آسيويون تعاني بلادهم من الجوع ويعيشون كالماعز على التلال، وأولادهم يصرخون طلباً للخبز... بعض هؤلاء الآسيويين الذين لم يعرفوا سبيلاً للعيش جاؤوا وطلبوا من الفرعون أن يعطيهم منزلاً. فقد استولى الغرباء على منازلهم ودمروها، وحرقوا لهم مزروعاتهم».

تلك كانت الكتابة ويرجح بعض الباحثين أنها تعني العبرانيين. وإذا ألقينا نظرات سريعة على ما أوردته التوارة من أشياء تتعلق بقدوم العبرانيين، نقع على أخبار كثيرة متأثرة بالآداب البابلية والأكادية وبما ساد بلاد الرافدين من ملاحم وأساطير تمجد الانتصارات العسكرية. فهنا يتدخل الله إلى جانب الشعب اليهودي لمساعدته في الحرب والقتال، ويعطيه أرض الميعاد ميراثاً أبدياً.

يقول النص التوراتي في سفر الخروج... «عاديت أعداءَك وخاصمتُ مخاصميك، لأنَّ ملاكي يسيرُ أمامك ويُدخلك أرضَ الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحوِّريين واليبوسيين». ويضيف في مكانٍ آخر... «واجعل حدودك من بحر القصب إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر».

أما الأخبار التي تتعلق بفتح المدن داخل فلسطين فقد وردت خاصة في سفر يشوع، وسوف نقتطف منها، لتوضيح جوانب الصورة. فيشوع كان مساعداً لموسى وخلفه بعد موته. وقد أُمر بعبور الأردن... «قم الآن واعبر الأردن هذا، أنت وكل هذا الشعب، إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل. كلُّ مكانٍ تطأه أخامص أقدامكم لكم أعطيتُه، كما قلتُ لموسى: من البرّية ولبنانَ هذا إلى النهر الكبير، نهر الفرات، كلُّ أرض الحثيين، وإلى البحر الكبير الذي في جهة مغارب الشمس تكون أراضيكم».

وعن كيفية الدخول إلى أريحا ودائماً بحسب الرواية التوراتية يرد في

الفصل السادس من السفر المشار إليه ما يلي: «انظر إنّي قد أسلمتُ أريحا وملكها إلى يدك، وهم محاربون بواسل. تطوفون حول المدينة، جميع رجال القتال مرة واحدة، هكذا تفصلون ستة أيام... فكان عند سماع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً شديداً، فسقط السور من مكانه. فصعد الشعب إلى المدينة، كلّ واحدٍ على وجهه واستولوا على المدينة. وحرّموا كلّ ما في المدينة من الرجل وحتى المرأة ومن الشابّ وحتى الشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، فقتلوهم بحد السيف». ولا تنتهي سلسلة أخبار الفتح هنا أو تتوقف بل تتابع سياقها على متون الأسفار الباقية.

وقبل ختم موضوع الفتوح الذي أوردته التوراة من المفيد إلقاء نظرة على عملية الدخول إلى العيّ.

... «فقام يشوع وسائر المحاربين ليصعدوا إلى عاي، واختار ثلاثين ألف رجل وأرسلهم ليلاً، وقال لهم: «أنتم تكمنون للمدينة من ورائها. لا تبعدوا عنها كثيراً».

... «فالتفت رجال العيّ ونظروا، فإذا دخان المدينة صاعد إلى السماء. فلم يبقَ سبيل للهرب إلى هنا وهنا».

... «ولما انتهى بنو إسرائيل من قتل جميع سكان العيّ في الحقول وفي البرّية حيث طاردوهم، وسقطوا جميعهم بحدّ السيف عن آخرهم، رجع كلّ إسرائيل إلى العيّ وضربوها بحدّ السيف». إذاً دخول الشعب الإسرائيلي وسكنه أرض كنعان، تم على مدار أجيال عدة.

وكانت المعركة الحاسمة أخيراً في سهل جزرائيل عندما انسحب الكنعانيون بفوضى شديدة أدت إلى خسارتهم.

لكنّ سيطرة العبرانيين لم تكن حاسمة وقد نقصتها الأسس الصلبة: فالفتح لم يتحقق نهائياً إلاّ بعد جيلين أو ثلاثة، وهو وقت طويل كانت في أثنائه جموع من الكنعانيين والأموريين والفلسطينيين الذين بالكاد قهروا وأخضعوا، لا تزال في قلب البلاد مستعدة لرفع رأسها الذي لم تحنه إلاّ قليلاً أمام القبائل الإسرائيلية. وإلى سبب الضعف هذا يضاف سببٌ آخر أكثر

خطورة يتمثل في أنَّ هذه القبائل التي وحّدتها الأصول الواحدة والإيمان بمعتقدٍ واحد، كان لديها ميل للتفرقة والانقسام. وفي كل وقت بسبب عدم وجود سلطة موحدة لكل الشعب. وكانت الفوضى تهدد بوضع هذه الجماعات تحت سيطرة جيرانهم.

ومن أجل إبعاد هذا الخطر المرتسم بوضوح، وبهدف قهر النزعة الفردية لدى القبائل، قام صموئيل آخر القضاة بإحلال الملكية وسيلة وحيدة لوضع حد للتفرقة. واستطاع شاول، الملك الأول إبعاد الفلسطينيين إلى الشاطىء.

. . . «وسمعَ الفلسطينيون أنّ بني إسرائيل قد اجتمعوا في المصفاة فصعد أقطاب الفلسطينيين على إسرائيل. فلما سمعَ بنو إسرائيل، خافوا من الفلسطينيين».

سجل عهدا داود وسليمان، في الوقت نفسه تقريباً، قمة سيادة إسرائيل وانحطاطها على أرض الميعاد. وكما شخصيات الأساطير، كانت المملكة الجديدة والصغيرة تدعي التوصل إلى مرتبة الملكيات القوية المجاورة. ولكنّ ذلك كان أكبر مما في طاقة الشعب تحمله.

فقد سبب الموقف الفظ الذي اتخذه رحبعام ابن سليمان «المحدود التفكير والمدعي»، وهو رفضه التخفيف عن كاهل أتباعه الذين تحملوا الإسراف الملكي، تقسيم القبائل العشر في الشمال. وقامت هذه بثورة مكشوفة ضد بيت داوود وانتخبت بربعام ملكاً. وهكذا انتصرت القوى المبعدة التي كانت تثير قلق صموئيل. والمملكة العبرية، التي امتدت تحت حكم داوود إلى أبعد حدودها، «من دان إلى بئر سبع»، انقسمت إلى بيتين: إسرائيل في الشمال، ويهوذا في الجنوب.

واشتبكت الدولتان في صراع الأخوة، وقادت الواحدة ضد الأخرى التكتلات والتحالفات، وصارت الواحدة تُضعِف الأخرى لدرجة أنهما لم تبديا أية مقاومة تذكر أمام الزحف الأشوري.

وفي ٥٩٧ ق.م. قام نبوخذ نصر، الذي افتتح طريقه إلى ثروات

النيل، بمحاصرة أورشليم التي التزمت بالقضية المصرية. وأخذ الملك يواكيم أسيراً ومعه الأرستقراطية. وكان ذلك تحذيراً ذا معنًى يجدر الأخذ به، ولكن لم يصر إلى ذلك. وها هو النبي أشعيا يحاول تحذير شعبه من العصيان: «. . .قول على بهائم النقب: في أرض الشدّة والضيق التي منها اللبوءة والأسد والأفعى والتنين الطيّار، يحملون أموالهم على ظهور الجحاشِ وكنوزهم على أسنمة الجمال. إلى شعب لا ينفعهم فإن مصر نصرتُها باطلٌ وعبثٌ لذلك دعوتها رَهَبَ الراكدة».

وبالرغم من توبيخات أشعيا تظاهرت مملكة يهوذا، التي مهرت قدرها بتراكم الأخطاء السياسية، بالقيام بتمرد ضد الأشوري القوي. وظهر نبوخذ نصر من جديد أمام أسوار أورشليم، ونهب هذه المرة المدينة والهيكل، ثم سبى الشعب اليهودي. والذين نجوا من هذا المصير «هربوا إلى مصر أو إلى البلدان المجاورة».

كان ذلك ثمن استعماء سياسي استمر طويلاً. وهكذا، وبعدما تحولت إسرائيل مملكة الشمال إلى مستعمرة بابلية، قبل قرن مضى، اختفت يهوذا مملكة الجنوب من الوجود، ووقعت فلسطين التي خلت من اليهود بسبب السبي تحت السيطرة البابلية.

يقول النبي إرميا تحت عنوان «بابل مصيبة من الرب»، (الكلمة التي كانت إلى إرميا على كل شعب يهوذا في السنة الرابعة ليوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا، وهي السنة الأولى لنبوخذ نصَّر ملك بابل):

«من السنة الثالثة عشرة ليوشيا بن آمون ملك يهوذا، إلى هذا اليوم، هذه هي الثالثة والعشرون. . . قلت: ارجعوا كلٌّ واحدٍ عن طريقه الشرير وعن شر أعمالكم، فتسكنون في الأرض التي أعطاها الربُّ لكم ولآبائكم من الأزل وإلى الأبد. . . فهاءنذا أرسلُ وآخذ جميع عشائر الشمال، (يقول الربّ حول نبوخذ نصّر ملك بابل وآتي بها على هذه الأرض وعلى جميع سكانها وعلى هذه الأمم من حولها). . . وتستعبد هذه الأمم لملِك بابل سبعين سنة». . . .

الفلسطينيون

ينتمي الفلسطينيون إلى مجموعات شعوب البحر التي انحدرت من جزر بحر إيجه وخاصة كريت.

لذلك يعتقد الكثير من العلماء، بان أصولهم رغم غموضها أقرب إلى أوروبا منها إلى الأصول الشرقية.

يقترن تاريخ دخولهم إلى منطقتنا بسلسلة واسعة من الهجرات الكبيرة، حصلت خلال النصف الأخير من القرن الثالث عشر (١٣٠٠) ق.م. حيث اتجهت جموعهم نحو الجنوب عن طريق البر والبحر. فسيطروا على سواحل البلاد التي حملت اسمهم بعدما هزمهم الفرعون المصري رعمسيس الثالث في معارك بحرية وبرية حوالي السنة ١١٩١ ق.م.

تزامن قدومهم مع توطن العبرانيين في فلسطين، حيث العنصر الكنعاني كان يطغى على أصول السكان. ومن هنا سوف تبدأ أحداث كبيرة بين القادمين الجدد وأولئك الكنعانيين والمؤابين من جهة، وبين العبرانيين والفلسطينيين من جهة ثانية، وسيقوم العبرانيون للادعاء بأن الله أورثهم حسب شريعتهم أرض فلسطين بكاملها.

بعد استيلاء الفلسطينيين على مدن غزة وعسقلان وعقرون وأشدود ويافا، أبقوا على أسمائها السامية. ويستدل من طرق حياتهم وأماكن سكنهم، ميلهم إلى البقاء قرب سواحل البحر وذلك بهدف إجراء الرقابة على الطرق البحرية والبرية معاً. وقد أجادوا استخدام الحديد وتصنيعه كما مرَّ معنا فانتقلوا بالمنطقة من العصر البرونزي إلى العصر الحديدي. وكان فن استخدام الحديد أحد أبرز العوامل التي ساعدتهم على تصنيع الأسلحة الحربية، والتفوق على جيرانهم في المجال الحربي. وفي هذا الإطار يذكر المؤرخ

فيليب حتي أنّ «ذروة قوة الفلسطينيين بلغت أوجها في النصف الثاني من القرن الحادي عشر. فقد كسروا العبرانيين حوالي ١٠٥٠ ق.م. وأخذوا منهم تابوت العهد وحملوه إلى اشدود».

وتعطي التوراة صورة واضحة لهذا الحدث فتقول في سفر صموئيل الأول الفصل الرابع ما يلي: «وخرج إسرائيل على الفلسطينيين للحرب فعسكروا عند ابان هاعيزر، وعسكر الفلسطينيون في افيق الواقعة شمال فلسطين. واصطف الفلسطينيون بإزاء إسرائيل واتسع القتال، فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين فقتلوا من الصفّ وفي البريّة نحو أربعة آلاف رجل. فرجع الشعب إلى المعسكر. فقالت شيوخ إسرائيل: «لماذا هَزمنا اليوم الربّ أمام الفلسطينيين؟ فلنأخذ لنا من شيلو تابوت عهد الربّ، فيكون في وسطنا ليخلصنا من يد أعدائنا».

ثم يروي النص كيفية استحواذ الفلسطينيين على تابوت العهد على النحو التالي: «وتشددوا يا أهل فلسطين، وكونوا رجالاً كيلا تُستعبدوا للعبرانيين، كما استعبدوا هم لكم، فكونوا رجالاً وقاتلوا. وقاتل الفلسطينيون، فانكسر إسرائيل وهرب كلّ واحد إلى خيمته. وكانت ضربة شديدة جداً، فسقط من إسرائيل ثلاثون ألفاً من الرجّالة. وأخذ تابوت العهد. وقُتِل ابنا عالي، حُفني وفنحاس».

. . . «فأما الفلسطينيون، فأخذوا تابوت الله ومضوا به من أبان هاعيزر إلى اشدود ثم أخذ الفلسطينيون تابوت الله وأدخلوه بيت داجون».

تراجع النفوذ الفلسطيني

يعتبر حتي أن الفلسطينيين هم الذين أعطوا جيرانهم الفينيقيين الميل نحو الأسفار البعيدة داخل البحار، ولكنهم كانوا يعتمدون في بقائهم على تجديد أعدادهم. لكنّ هذه العملية كانت بالغة الصعوبة في تلك الظروف ولذلك راحوا يندمجون شيئاً فشيئاً بالسكان الساميين، مضيفاً بأنهم لم يتركوا إلاّ اليسير لمعرفة نواحي حضارتهم وتراثهم. وفي منتصف القرن الخامس ق.م. لم يذكر نحميا في سفره الفلسطينيين إنما ذكر الأشروديين بقوله:

«ولمّا سمع سنبلّط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون بأن أسوار أورشليم قد تقدم ترميمها وأنْ قد أخذ في سد الثلم غضبوا غضباً شديداً».

يستدل من مراجعة المصادر العلمية وجود تأثيرات متبادلة، بين الشعب الفلسطيني وجيرانه الفينيقيين لناحية طقوس العبادة وإقامة الشعائر الدينية وأنواع الآلهة.

الفصل الرابع

السيطرة الفارسية

ينتمي الفرس إلى العنصر الهندي الأوروبي، سمي في البداية على اسم قبائل Pares في مناطق العلام إلى الشرق. راح يهاجم الدولة الكلدانية إلى أن سقطت سنة ٥٣٨ على يد قورش العظيم، الذي استطاع توحيد الميديين والفرس.

اعترفت المناطق التي كانت تحكمها الدولة البابلية بالحكم الفارسي الجديد ومن ضمنها فلسطين وسوريا ومصر.

وعُرف عن الفرس حسن تنظيمهم لامبراطوريتهم المترامية الأطراف، حيث أقاموا شبكات واسعة من الطرق ربطت المناطق بعضها مع البعض الآخر وذلك ليسهل تنقل القوافل والجيوش. ووحدوا اللغة والعملة بعدما قسموا الأمبراطورية إلى ٢٣ ولاية أو مرزبانة، وعينوا على كل ولاية حاكماً مدنياً يساعده قائد عسكري وأمين سر، وربطوا ذلك بنظام من المركزية. فالمرزبان يتبع مباشرة العاصمة حيث الشاهنشاه أو ملك الملوك الفرس يقيم ويوزع السلطات ويسهر على حسن سير الأمبراطورية، التي بث فيها العيون والآذان لترى وتسمع وتنقل إليه الأخبار المنتظمة عن كافة التفاصيل والشؤون التي تتعلق بالإدارة، والتي أعطت المقاطعات بعض مظاهر الحكم الذاتي الخاضع لمراقبة امبراطورية.

وكانت فلسطين وسوريا، بالإضافة إلى جزيرة قبرص من ضمن الولاية الخامسة، وسميت عبرنهرا نسبة إلى نهر الفرات، وتقوم عملية خضوعها على مبدأين أساسيين هما:

١ ـ الاعتراف بسلطة الحاكم الذي يعينه الأمبراطور الفارسي.

٢ ـ دفع جزية سنوية لخزينة الدولة.

والحدث البارز الذي تميزت فيه سيطرة الأمبراطورية الفارسية على الشرق، هو إصدار الملك قورش قراراً بإعادة اليهود من السبي إلى بلادهم، بعدما كان نبوخذ نصر قام بسبيهم أثناء فترة حكمه. واعتبر اليهود أن قرار قورش أتى بإيحاء من الله، وها هو النبي اشعيا يعتبر في سفره أن قورش هذا أداة في يد الرب حين يقول: «... هكذا قال الرب لقورش الذي أخذت بيمينه لأخضع الأمم بين يديه وأحل احقاء الملوك لأفتح أمامه المصاريع ولا تُغلق الأبواب».

لكن بالرغم من سياسة قورش تجاه اليهود فقد آثر العديد من أغنيائهم ووجهائهم البقاء حيث هم في بابل خاصة الذين استطاعوا تدبير أمور حياتهم. ولا يوجد رقم حقيقي لعدد المنفيين الذين عادوا من السبي بعد قرار قورش ويبدو أن الأرقام الواردة في سفري عزرا ونحميا مبالغٌ فيها. وقد سُمح لليهود بإعادة بناء الهيكل في أورشليم وعلى نفقة الحكومة الفارسية في عهد داريوس العظيم.

وتابع ارتحششتا الثالث عمل أسلافه وانتهج سياسة متفهمة لليهود خاصة أن اثنين من زعمائهم كانا يعملان في بلاطه وهما عزرا ونحميا. وبشكل عام فإن المصادر والمراجع لا تتحدث كثيراً عن فلسطين خلال هذه الفترة وتُظهر أنّ هم الفرس الأساسي كان الحصول على مساعدة المدن الفينيقية في بناء أسطول بحري لمواجهة الأخطار الآتية من جهة اليونان هذه المرة.

الفصل الخامس

السيطرة اليونانية

دب الضعف في جسم الامبراطورية الفارسية، واصبحت ولاياتها كناية عن ممالك صغيرة متحدة في الظاهر مفككة في الواقع، كونها تتألف من عناصر متعددة متمايزة اللغة والعنصر.

ورغم وجود جيش كبير في آسية الصغرى وأرمينية وكليلكية وسوريا ومصر فإن هذا الجيش كان يعوزه التدريب ويشكو من نقص في سلاحه وأعتدته، بالإضافة إلى وجود أسطول كبير نصفه فينيقي والنصف الآخر قبرصي.

احتشد جيش الامبراطور الفارسي داريوس الثالث قرب نهر ايسوس في آسيا الصغرى، وتقدم الإسكندر المقدوني الكبير ابن فيليبس الثاني، بحوالي ثلاثين ألف جنديٍّ وفارس نحو عدوهم وقاموا بحركة مناورة والتفاف على المشاة الفرس فبددوهم. ثم شنّ الإسكندر نفسه هجوماً خاطفاً بخيالة الميمنة على قلب جيش داريوس الذي ولى الإدبار بعربته الملوكية. ولما علم قائده امينثاس بذلك أراد أن يستولي على مصر لكنه قتل فتفرق جيشه.

واستولى الإسكندر على معسكر الفرس وتزوج في ما بعد من إحدى بنات الامبراطور الفارسي.

وبعد ذلك فتحت أمام الإسكندر أبواب المدن الفينيقية على طول الساحل باستثناء صور التي حاصرها وأسقطها. وتوجه قائده برمينيون ناحية دمشق التي دعته إلى تسلم خزائنها وفتحت له الأبواب.

يقول الدكتور اسد رستم في كتابه تاريخ اليونان: «والواقع أنه منذ أن مزق الإسكندر خصومه في ايسوس بدأ يظهر لعينه منظر امبراطورية عظيمة الشأن لم ترها عيون الرجال الذين معه، فأماط بهذا الحكم الفاصل الحجاب

عن شخصية قوية بدأت عصراً جديداً. وكان جواب الإسكندر أنه قام من صور إلى دمشق ومنها إلى السامرة، وأنه أقر حاكم السامرة الفارسي في حكمه وأقام إلى جانبه قائداً عسكرياً. ثم انحدر إلى غزة غير مبال بأورشليم الساقطة بطبيعة الحال. ويرى العلماء الباحثون أن ما جاء في تاريخ يوسيفوس من أن الإسكندر ذهب إلى أورشليم وسجد لجدعيا رئيس كهنة اليهود هو حديث خرافة».

ووصل الإسكندر إلى غزة فامتنع صاحبها باتيس الخصي الأسود عن تقديم الطاعة معتمداً في ذلك على مناعة غزة وعلى رجاله العرب الذين شدوا أزره ودخلوا معه إلى المدينة ليحموا حصونها. فأقام الإسكندر الأبراج العالية، وهجم على الأسوار والأبواب فقابله العرب بهجوم معاكس شديد. فتراجع المقدونيون، وأحرق العرب الأبراج وأصيب الإسكندر بقذيفة في كتفه. وامتنعت غزة شهرين كاملين. ثم دخلها الإسكندر عنوة فأسر من أسر وثقب إبهمي باتيس وربطه في مركبة حربية وأمر بجرّه فمات.

بعد ذلك تابع الإسكندر زحفه نحو مصر فوصل وادي النيل في أواخر سنة ٣٣٢ واكتشف تعاظم التجارة المارة عبر البحر الأحمر بين الشرق والغرب وأهمية المواد الأولية الموجودة في افريقيا ولمس لمس اليد كثرة البضائع في مستودعات غزة فأراد إنشاء مدينة الإسكندرية لتفصيل التمازج الحضاري بين الشرق والغرب خاصة بعد القضاء على المرفأ الفينيقي الأهم في المتوسط أي صور فكانت فكرة بناء الإسكندرية.

ثورة السامرة

قام السامريون بثورة على قائد الإسكندر اندروماخوس سنة ٣٣١. وكان الإسكندر في طريقه نحو الفرات لإبعاد داريوس إلى ما ورائه، فساعده في إخمادها وعزل حاكم دمشق وعين آخراً مكانه.

وكانت ولاية سوريا تمتد في عهد الفرس لتشمل مناطق واسعة من بابل والبحر إلى الجزيرة العربية، فجعلها الإسكندر عند بدء حكمه لا تشمل سوى سوريا الحقيقية وفينيقية وفلسطين وجعل عاصمتها دمشق، ونصب على ولاية

سوريا حاكماً كبيراً يساعده جهاز إداري ومالي وعسكري وأعطى لرئيس الأحبار اليهود بعض السلطة. ثم خاف طموح الحكام على هذه الولاية المترامية فسلخ عنها فينيقية سنة ٣٢٩. وفي سنة ٣٢٣ جعل الجزيرة بين النهرين ولاية خاصة.

بعد موت الإسكندر المفاجىء تقاسم كبار قواده إدارة الولايات، فتسلم شؤون ولاية سوريا ومن ضمنها فلسطين فيلوطاسيوس. أما معظم شؤون آسيا الصغرى فقد آلت إلى انتيغونوس.

ولم تلبث الأمور أن تطورت دون أن يستطيع رجل واحد ضبطها أو السيطرة على كبح جماحها، وبدأت الخلافات الداخلية بين رفاق الأمس وحكام اليوم تذّر قرنها فأوصلت إلى حرب بين بطليموس، حاكم مصر، الذي سيطر على سواحل سوريا وفينيقيا وفلسطين. وانتيغونوس الذي سارع إلى الزحف على مناطق خصمه لمنع اتصال خصومه بعضهم ببعض. واستطاع احتلال معظم سوريا وفينيقيا وفلسطين سنة ٣١٥ ووصل حتى غزة، وسلم مقاليد أمور سوريا إلى ابنه ديمتريوس، فسارع بطليموس بعد ثلاث سنوات إلى عبور صحراء سيناء على رأس جيش قوي، والتقى بخصمه الشاب قرب غزة وانتصر عليه واحتل المدينة وتابع زحفه باتجاه الشاطىء الفينيقي. لكنه فشل في القضاء على خصمه داخل سوريا، وفي هذه الأثناء توجه انتيغونوس لمساعدة ابنه فانسحب بطليموس بعدما خرّب مدناً فلسطينية، منها عكا ويافا وغزة ولم تنجُ السامرة بدورها من الخراب. وبعد وصول قائد انتيغونوس إلى البتراء في عبر الأردن نهب مستودعاتها التي تحوي على البخور والمر وغنم كميات كبيرة من الفضة.

لكن بطليموس استطاع بحدود السنة ٣٠٤ العودة والسيطرة على مناطق سوريا الجنوبية، ومع حلول السنة ٣٠١ ق.م. استولى على جميع الأراضي السورية حتى مداخل دمشق ومصب النهر الكبير شمالاً، وسنة ٢٩٦ ق.م كانت مدينة السامرة قد سقطت بأيدي قواته ولم يبق سوى صور وصيدا اللتين آثرتا الوقوف إلى جانب ديمتريوس.

وحدثت حرب بين بطليموس وديمتريوس وحلفائهما للسيطرة على

سوريا عرفت باسم المسألة السورية، واستمرت ردحاً زمنياً طويلاً.

وسنة ٢١٨ ق.م. أرسل انطيوخوس أسطوله إلى صور وتوجه إلى فلسطين عن طريق صفد فاستولى على فيلوتيرية على ضفاف بحيرة طبرية وبيسان ولم يعمد إلى تخريب أي منهما بل اعتمدها كقواعد لتموين جيشه. واحتل بعد ذلك جبل طابور وعَبَرَ نهر الأردن واستولى على Pella «فجل» وطيبة وعجلون وجرش أمنع المدن التي استسلمت بعد حصار حولها. ودانت فلسطين الجنوبية لانطيوخوس بعد انتصاراته المتتالية.

وفي صيف ٢١٧ ق.م حصلت معركة قرب رفح بين قوات الفريقين انتهت بتوقيع هدنة تخلى فيها أنطيوخوس عن فلسطين لبطليموس الرابع الذي قام مباشرة بعد هذه المعركة بزيارة فلسطين حيث يذكر سفر المكابيين شيئاً عن الزيارة فيقول: «وأراد أن يدخل إلى قدس الأقداس ولكنه عندما قرب منه أخذته الرعدة وسقط مغشياً عليه فحملوه إلى الخارج وهو بين حي وميت».

وتتوالى الأحداث دون أثر يذكر بعد ذلك، حتى السنة ١٧٥ق.م. فيذكر سفر المكابيين الثاني، مسألة قيام أبلونيوس عامل الوالي سلوقس الرابع هركانوس باخباره أن الخزانة التي في أورشليم مشحونة بما لا يستطاع وصفه من الأموال، حتى أن الدخل يكاد لا يحصى لكثرته. وكان ابلونيوس هذا قائداً في بقاع سوريا وفينيقية.

ولما أرسل الملك من يصادر هذه الودائع والأموال حصل اضطراب داخل المدينة انبأ باقتراب نشوب ثورة مما دفع بالوالي إلى التراجع عن قراره.

ثورة المكابيين

استطاع يهوذا المكابي أن يجمع حوالي ستة آلاف محارب كانوا يتسللون إلى القرى ويدعون أبناء جنسهم للثورة. وبعدما جمع العدد الكافي هاجم المدن والقرى، وأحرق البعض منها. فلما رأى ممثل الملك ذلك كتب إليه طالباً النجدة فأرسل نكانور بتركلس وهو من المقربين جداً من الملك للقضاء على ثورة المكابيين، فجمع عشرين ألف محارب وجاء بهم إلى

فلسطين، وحصلت موقعة بين الفريقين تشتت على أثرها جيش الوالي وولي الادبار. فقام ليسياس سنة ١٦٤ق.م. وبلغ بيت صور لكنه آثر أن يسالم اليهود، بسبب استفحال أمر الثورة. وبعث انطونيوس برسالة إلى اليهود يسألهم فيها أن يتوقفوا عن الثورة. وتبياناً للحقيقة العلمية نقتطف من النص الأساسي بضع فقرات: «من انطونيوسٍ الملك القائد إلى الرعايا اليهود الأكارم، السلام والعافية والسعادة في كلِّ شيء... فأناشدكم وأرغب إليكم أن تذكروا ما أوليتكم من النعم العامة والخاصة، وأن يبقى كل منكم على ما كان عليه من الولاء لي ولابني. وإني لواثق بأنه سيواصل سياستي برفق وإنسانية ويكون على اتفاقٍ معكم».

بعد ذلك انتهت الثورة المكابية وعاد الذين قاموا بها نحو أماكن انطلاقهم. وكان الضعف والوهن قد أخذ يضرب في جسم مملكة السلوقيين بسبب كثرة الصراعات التي خاضوا غمارها ومشاكل الخلافة والسلطة وقوي الارتباك بعد دخول القبائل النبطية من الصحراء باتجاه جوانب فينيقية وسوريا وفلسطين حيث قامت بمطاردة القوافل البريّة والتضييق عليها. وأسست هذه القبائل ممالك لها في بعض مدن الساحل الفينيقي والسوري وداخلية فلسطين وذلك بهدف فرض الرقابة على طرق القوافل. ولم يبق للسلوقيين سوى السيطرة الاسمية فقط.

الفصل السادس

فلسطين في العصرين الروماني والبيزنطي

في العصر الروماني

امتدت حدود الامبراطورية الرومانية بعد الفتوحات العظيمة التي قام بها أوغسطس قيصر، إلى نهر الفرات في آسيا والدانوب والرين في أوروبا وأطراف الصحراء في أفريقيا. تبعت ولاية سوريا التي من ضمنها فلسطين للسلطة الرومانية ابتداء من السنة ٦٤ق.م. وكانت قد توسعت على أيدي بومبيوس وضمت الساحل من أنطاكية في الشمال حتى غزة وجبل الكرمل.

وظهرت تجمعات مدنية أو مدن مستقلة وذلك لتسهيل الدفاع عنها؛ مثل العاشر وبيسان ورفح وأم قيس والحصن.

لكن التغيير الأبرز الذي أدخل كان جعل فلسطين دويلة يهودية ثيوقراطية كما أكد الدكتور أسد رستم في كتابه عن عصر أوغسطس قيصر وخلفائه.

وطمع الحثمناويون في السلطة داخل فلسطين وأثاروا المتاعب والشعب مما حدا بالوالي العمل على إخضاعهم وفرض الضرائب الكثيرة التي أرهقت كواهلهم. ولم يلبث أن قضى قضاءً مبرماً على ثورتهم في السنة ٥٣ وقطع عنق زعيمهم. وبعد فترة لا تتجاوز السنوات العشرين وصل هيرودوس إلى الملك في أورشليم سنة ٣٧ق.م. لكنه واجه مشاكل معقدة مع مجمع اليهود واضطر إلى إعدام العديد من أفراده بسبب مواقفهم العدائية. وانصرف بعد ذلك إلى عملية هلينة اليهود التي كان الرومان قد اعتمدوها في سائر مناطق سيطرتهم.

الإحصاء المسكوني

أراد أوغسطس معرفة الشعوب التي تحت سلطته بشكل دقيق، ليصار

إلى اعتماد سياسة ضرائبية واضحة وعادلة على السكان فأمر بإجراء الاكتتاب المسكوني، والمقصود فيه إحصاء الساكنين في الامبراطورية. وجرى ذلك بين السنوات ١٦ ـ ١٤ق.م. للمرة الأولى وتوالت الإحصاءات بعد ذلك مرة كل أربع سنوات.

وقد تحدث القديس لوقا الإنجيلي عن هذا الأمر، فقال في الفصل الثاني: «في تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب جميع المسكونة. وجرى هذا الاكتتاب قبل ولاية كيرينيوس على سوريا، فانطلق الجميع ليكتتبوا كلّ واحد إلى مدينته»...

والبارز في الأحداث خلال هذه الفترة ولادة السيد المسيح ورسالته التي دعت إلى المحبة والتسامح ونبذ التفرقة. وثورة اليهود على الرومان وخراب هيكل أورشليم ولقد حذر يسوع نفسه من ذلك في مناسبات عديدة.

ففي سنة ٧٠م نفذت الجيوش الرومانية المرسلة إلى فلسطين نحو داخل مدينة أورشليم عبر ثغرة في سور المدينة، وأحرقت أبواب الهيكل مهلكةً كلّ من تحصن فيه. وبقيت اليهودية بعد ذلك مستقلة تحت حكم محصل روماني للضرائب وجعلت مدينة قيصرية عاصمة فلسطين واليهودية، وفرضت على اليهود قيوداً كثيرة ومنعت العبادة. في ما بعد أدخلت أراضي اليهود في ملكية الدولة وراحت السلطات تتصرف بها كيفما شاءت.

في العصر البيزنطي

يعتبر عهد السيطرة البيزنطية امتداداً طبيعياً للعهود الرومانية، ففي كثير من النواحي يقال «الحضارة الرومانية ـ البيزنطية» للتعبير عن أشكال الحكم والإدارة والعادات التي سادت الدولة، أو المجتمع أو الجيش.

وبرزت بيزنطية في أيام حكم الملك قسطنطين الذي كان يمسك بالسلطة سنة ٣٠٦م مع حاكم آخر. لكنه في حدود السنة ٣٢٤م أصبح ملكاً منفرداً.

بدأ قسطنطين أعماله الباهرة ببناء مدينة جديدة على مضيق البوسفور حملت اسمه ودشنت بشكل رسمي سنة ٣٣٠ وجعلت عاصمة الامبراطورية ويقال بأنها فاقت بمجدها مدينة روما. ومنذ ذلك الحين راحت الأنظار تتجه ناحية الامبراطورية في جزئها الشرقي.

ووفق المراجع الدينية والعلمية فإن الأمبراطور قسطنطين سمح لرعاياه من المسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية وما لبث أن جعل من المسيحية دين الدولة الرسمي منهياً بذلك عهوداً من القسوة والاضطهاد تعرض لها المسيحيون على أيدي الولاة الرومان.

واستطاعت هذه الأمبراطورية أن تتحول إلى حضارة شرقية بكل ما للكلمة من معنى، فهي إلى جانب الإرث اللاتيني الروماني أدخلت التراث الشرقي البيزنطي إلى نواحي الحياة المدنية والسياسية والعسكرية. يضاف إليها الموقع الجغرافي الحاسم الذي تمتعت به القسطنطينية على مقربة من الشرق والغرب وسيطرتها التجارية والاقتصادية كصلة وصل وطريق للقوافل.

أما التقسيمات الإدارية في هذا العهد، فقد أدت إلى تجزئة فلسطين إلى ثلاثة أقسام هي:

١ ـ فلسطين الأولى، وتشمل قيصرية وأورشليم ونابلس وغزة ويافا وعسقلان.

٢ ـ فلسطين الثانية، وفيها بيسان وطبرية ومدن أخرى أقل أهمية.

٣ ـ فلسطين الثالثة، وضمت مدينة البتراء بالإضافة إلى مناطق الولاية العربية شرق الأردن ومناطق الانباط.

وعرفت ولاية سورية ومن ضمنها فلسطين حركة عمرانية كبيرة نتيجة الرخاء الاقتصادي، تجارةً وصناعةً، حيث كانت الصناعات الحريرية الصينية تمر بطريق البتراء ولا يخفى ما عُرف من رواج صناعة الأرجوان داخل فينيقية وبعض مناطق فلسطين.

وتطورت حركة العلوم بسبب الغنى المادي وبرزت أسماء عديدة عملت على نشر التعاليم الإنجيلية الجديدة وشرحها. واشتهرت مدينة قيصرية بمؤرخها الكبير يوسيبوس الذي يعتبر أول مؤرخ كنسي وقد ولد في فلسطين على ما يؤكد فيليب حتي.

أما مدينة غزة فقد استطاعت المحافظة على دورها الفكري والثقافي بينما كانت أورشليم لا تزال تعاني من الخراب والانحطاط.

وتجدر الإشارة إلى أن روح التفرقة الدينية بدأت تسود خلال هذا العصر بعد الانقسامات اللاهوتية الحادة بين أصحاب الطبيعة الواحدة وأصحاب الطبيعتين على لاهوت وناسوت السيد المسيح بحيث أنها أوجدت أجواء من النقمة والصراع الحاد ألهب الكثير من المناطق والمدن وترك آثاره السيئة على تاريخ المنطقة برمتها.

الفصل السابع

العهود العربية ـ الاسلامية

بعد حروب الردة الاسلامية، وجّه الخليفة الراشدي أبو بكر الصديق جيوشه لقتال البيزنطيين الذين كانوا يحتلون سوريا، وعلى رأسها عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة.

وقع القتال بين جيشي يزيد والأمبراطور البيزنطي، قرب البحر الميت في منطقة وادي العربة وكتب النصر فيه ليزيد. واستطاعت الجيوش العربية ملاحقة فلول الجيوش البيزنطية المتراجعة دون تنظيم إلى ما بعد غزة وأنزلت بها خسائر كبيرة. وفي هذه الأثناء تلقت جيوش خالد بن الوليد المرابطة في العراق الأمر لمساندة الحملة في سوريا وفلسطين، فتقدمت نحو واحة سيوى التي يعتقد بوقوعها على مسافة يسيرة من بئر السبع في جنوب فلسطين. واعتبرت أبواب هذه الأخيرة مشرّعة بعد معركة إجنادين في ٣٠ تموز (يوليو) ٦٣٤ فسقطت المدن الفلسطينية والسورية الواحدة تلو الأخرى ودانت دمشق بعد حصار دام ستة أشهر في أيلول (سبتمبر) ٦٣٥ ونال أهلها كتاب أمان من خالد بن الوليد، على أنفسهم ومالهم وكنائسهم.

بقيت الأوضاع بين العرب والروم على أخذ ورد حتى سنة ٦٣٦. حيث كان الأمبراطور البيزنطي هرقل قد وجه جيشه نحو وادي اليرموك، وهو أحد مجاري نهر الأردن. وقد اضطرت القوات العربية في المدن السورية الشمالية وصولاً حتى دمشق للانسحاب بسبب ضخامة عديد الجيوش البيزنطية.

وفي شهر آب (أغسطس) ٦٣٦ احتدم القتال قرب اليرموك وكان أثره حاسماً لترجيح كفة العرب، ولطيّ صفحة الاحتلال البيزنطي نهائياً عن المنطقة وفتح صفحة جديدة كان لها الأثر البالغ في كافة التحولات التي ستشهدها في ما بعد.

وتتباين الروايات عن المدة التي استغرقها انجاز الفتح داخل فلسطين وتذكر إحداها أن هذا الإنجاز لم يتم إلا في حدود السنة ٦٤٠م.

ومهما يكن من أمر الفتح فإن مرتبة فلسطين ازدادت أهمية لأنها أصبحت مركزاً للديانات السماوية الثلاث اليهودية، والمسيحية والإسلام بعد بناء المسجد الأقصى أيام الخليفة عبد الملك بن مروان. وتتضارب الروايات كذلك حول موضوع بناء المسجد حيث يدعي اليهود الصهاينة بأنه بني على أنقاض الهيكل.

وما يؤيد توجه الصهاينة هذا، قيامهم خلال فترات متعددة خاصة بعد احتلالهم فلسطين بكل الأعمال التي من شأنها إضفاء الطابع اليهودي على كامل القدس وإلغاء المظاهر الأخرى تمهيداً لجعلها عاصمتهم الأبدية.

وبالعودة إلى الفتح العربي فقد نظم مؤتمر الجابية الذي عقد جنوب دمشق سنة ٦٣٨ أمور الفتح والخطط التي على المسلمين تنفيذها لإدارة البلدان المفتوحة. وقد عرف ذلك بيوم الجابية واستمر ثلاثة أسابيع، وأهم ما صدر عنه كيفية التعامل مع أهل الكتاب من نصارى ويهود وتثبيت أبو عبيدة في قيادة الجيوش مكان خالد بن الوليد.

وقسمت سوريا إلى أربعة أجناد هي دمشق وحمص والأردن وفلسطين. وفي عهد زيد بن معاوية أضيف إليها جند قنسرين الذي ضم بلاد ما بين النهرين.

ويذكر الدكتور فيليب حتي في هذا السياق أن جند فلسطين شمل المنطقة الواقعة إلى الجنوب من سهل مرج ابن عام. أما جند الأردن فاشتمل على الجليل وصولاً حتى الصحراء ناحية الشرق.

لمحة تاريخية عن تطور الخلافة

مرت الدولة العربية الناشئة قبيل وصول الخليفة معاوية بن أبي سفيان، بعهود أربعة خلفاء سموا بالراشدين، وهم وفق الترتيب الزمني لتوليهم أمور الخلافة على الوجه التالي:

١ ـ أبو بكر الصديق ٦٣٢م ـ ٦٣٤م

٢ ـ عمر بن الخطاب ٦٣٤م ـ ٦٤٤م

٣ ـ عثمان بن عفان ٦٤٤م ـ ٦٥٦م

٤ ـ علي بن أبي طالب ٦٥٦م ـ ٦٦١م

ولم يوصِ أحد من هؤلاء الخلفاء الأربعة بالخلافة، لابنه من بعده ولم يحاول إنشاء نظام وراثي. وبقي الأمر شورى بين بعض كبار المسؤولين الذين عرفوا بأهل الحل والربط وهم الذين كانوا يختارون الخليفة من بين أسماء مطروحة تتوافر فيها الكفاءات المطلوبة.

وقد مرت عهود الخليفتين الأولين أبو بكر وعمر بسلام لكّن اغتيال الخليفة عثمان بن عفان أدخل الدولة الإسلامية في حمى الصراع على السلطة خاصة بعد قبول الإمام علي بالتحكيم في معركة صفين، حيث استطاع معاوية بعد ذلك أن يجد لنفسه أرضية صالحة للانطلاق في تحقيق مشروع بإقامة حكم وراثي.

ولم تُستهل سنة ٦٦١ حتى كان أحد الخوارج قد طعن علي بخنجر مسموم فمات على الفور.

معاوية يؤسس الخلافة الأموية

كان معاوية والياً على الشام، عندما نودي به خليفة في منطقة القدس وجعل دمشق عاصمة ملكه. وأول ما قام به هو توطيد دعائم حكمه وإزاحة المطالبين أو الطامعين بالسلطة. ثم انصرف إلى تدبير شؤون إدارته وجيشه وأسطوله وتنظيم دواوين الحكم، أما على المستويات الخارجية فإنه تابع تصديه للبيزنطيين وحاربهم في أكثر من موقعة كانت أشهرها معركة بحرية عرفت باسم «ذات الصواري». والعمل الأبرز الذي قام به كان تعيين خليفة له خلال مدة حياته ليضمن استمرارية الحكم ضمن العائلة الأموية، وكان ولي العهد ابنه يزيد وذلك قبل وفاته بحوالي الستة أشهر (٦٨٠م).

لكن عرف عن يزيد ميله إلى اللهو والمرح وانصرافه عن شؤون الحكم

إلى معاقرة الخمرة وقلة التمسك بالأمور الدينية. وخلال فترة حكمه حصلت موقعة كربلاء التي قتل فيها ابنا علي الحسن والحسين في العاشر من محرم سنة ٦١هـ الموافق ١٠ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ٦٨٠م.

وقد اعتبر بعض المؤرخين العرب أن كربلاء كانت في أساس انقسام المسلمين.

يبقى أن نشير إلى أن عهد الازدهار الكبير الذي عرفته الدولة الأموية بعد معاوية، كان في ظل خلافة بن مروان وهو سليل البيت المرواني. وهو اعتبر بحق فترة عمران وازدهار واستكمال بعض الفتوحات. ورغم ذلك فإن المصادر التي تتحدث عن الحياة داخل فلسطين في تلك المرحلة نادرة وقليلة. ولكن الأمويين نزعوا إلى سياسة نقل بعض القبائل العربية وإسكانها في مدن الساحل الفينيقي أو الفلسطيني لرد الغزوات البحرية البيزنطية المتكررة باتجاه المناطق التي يسيطرون عليها. ونعلم بأن المقاتلين أقاموا في مدن فلسطينية عديدة مثل الرملة وبيسان والقدس وقد انتقلت إليهم أملاك النازحين ومساكنهم.

العباسيون

بايع العباسيون أبا العباس، والخليفة الأموي كان لا يزال حياً، ولم يقل كلمته. وعندما استفاق هذا الخليفة من غفوته رأى أنه لا بد من القتال. ويعتبر المؤرخون أن مروان عندما عزم على القتال جمع اثني عشر ألف جندي، وعندما توجه لمواجهة أبي العباس اندحر أمامه.

وأخذت المدن السورية تسقط الواحدة تلو الأخرى، ما عدا دمشق التي حوصرت وسقطت بعد مرور سنة (٧٥١م).

ثم اتجه العباسيون نحو فلسطين فمصر، وكان مروان الثاني هناك فتبعوه وكانت الموقعة الأخيرة في منطقة بوصير حيث ألقوا القبض عليه داخل إحدى الكنائس.

بزوال الخلافة الأموية حصلت الأمور التالية:

١ ـ حقق الفرس المساواة مع العرب.

٢ ـ ثأر الشيعة لعلي.

٣ ـ أصبحت الكوفة عاصمة العباسيين بدل دمشق.

٤ ـ اتسعت مناطق الخلافة لتشمل العراق، بالإضافة إلى سوريا.

الدولة الفاطمية

مع انهيار وتفسخ الدولة العباسية قويت الأطراف الأخرى، وكان في طليعتهم بنو بويه الذين جعلوا الخليفة العباسي ألعوبة في أيديهم، وهم من الشيعة أنكروا على العباسيين حقهم بالخلافة وبالتالي بالحكم لذلك أظهروا لهم عداءً مستميتاً.

لكنّ ظهور الفاطميين ومحاولة سيطرتهم على الخلافة، دفع بني بويه إلى تعديل خطتهم حيث أنهم أعادوا الاعتبار للعباسيين وأقنعوهم بترك الفاطميين وأمر الاتفاق معهم. ومال الخليفة العباسي القادر ٩٩١م إلى التشهير بنسب الفاطميين وبعقيدتهم.

لكنّ سياسة التشهير هذه لم تبلغ الغاية المقصودة من العباسيين، فقد امتد سلطان الفاطميين بصورة خاصة زمن المستنصر ١٢٢٤ ـ ١٢٤٢ على الشام وفلسطين والحجاز حتى شمال أفريقيا وأصبح اسمهم يذاع في كلّ بلدانها وفيما بعد في كل من اليمن والموصل.

السلاجقة

السلاجقة قبيلة تركمانية، تنتسب إلى سلجوق بن تقاق، كان موطنها بلاد ما وراء النهر أي أفغانستان في عهد بني بويه.

نزحوا غرباً حتى وصلوا العراق وحكموا عسكرياً بعض مناطقه خاصة تلك التي افتقرت إلى الوجود العباسي. سنة ١٠٧٠م جهز زعيمهم ملكشاه حملة على بغداد وتوجه منها نحو بلاد الشام وتابع حتى فلسطين وسقطت دمشق بيده بعد حملة ثانية سنة ١٠٧٥م. وبذلك توطد للسلاجقة حكم في قلب الدولة العباسية، وكانت أولى علاقاتهم مع العباسيين متينة ومبنية على

المعاملة الطيبة. وتُظهر المصادر أن السلاجقة والعباسيين تبادلوا الهدايا. وكان عندما يرتقي سدة الخلافة أحد الخلفاء العباسيين يوجه دعوة إلى السلطان السلجوقي حتى يأخذ البيعة منه. وكان سلاطين السلاجقة يعاملون الخليفة العباسي بالاحترام اللائق، ولم تلبث عرى القرابة حتى جمعت بينهم، وذلك عندما زُفت ابنة القائم إلى طغرل بك، وعندما تزوج الخليفة المقتدي من ابنة السلطان ألب ارسلان. يضاف إلى ذلك أن معاملة السلاجقة للعباسيين كانت تكرسها وحدة المذهب، كما كان السلاجقة يحترمون الخليفة لا لشخصه وإنما لأنه يمثل الله.

لكن كل ذلك لم يحل دون حصول النزاع، وجاء في المصادر ان سلطة السلاجقة تعاظمت مع الزمن، وبدأ امراؤهم يشعرون بثقل الوجود العباسي قبل غضب السلطان ملكشاه على المقتدي لأن هذا الأخير تدخل في أموره. فأمره ملكشاه بمغادرة بغداد والإقامة في البصرة، وللوقت اتخذ السلطان السلجوقي لقب ظل الله، وسمى نفسه أمير المؤمنين وبهذه الطريقة قضى نهائياً على وجود الخليفة العباسي.

زالت الخلافة العباسية من بغداد سنة ١٢٥٨م على عهد المستعصم الذي كان ضعيف الرأي، منصرفاً إلى اللهو والعبث، وقد أهمل شؤون الدولة التي تم سقوطها على يد هولاكو المغولي.

الفصل الثامن

بين
الصليبيين والمماليك

إن الأحداث التي توالت على الشرق خلال القرن الحادي عشر الميلادي، ستؤدي إلى تغيير كثير من الأمور وإلى تراجع العلاقات بين الشرق والغرب وتعميق الهوة التي تفصل بينهما. لأنه مهما كانت الأسباب الموجبة للحملات الصليبية المتجهة نحو الشرق وأسسها الواقعية، فإنها أدت إلى إحداث الشرخ الكبير في صرح العلاقات المسيحية ـ الإسلامية، وجعلت سكان هذه المناطق المسيحيين عرضة لردات الفعل التي ستتوج بنهاية الحكم البيزنطي على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وإلى تراجع النفوذ الغربي لمدة قرون عديدة.

وقد وجّه البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥م طلباً إلى ملوك وأمراء أوروبا لنجدة المسيحيين في الشرق وخاصة بعد الانتصارات التي أحرزها الأتراك في آسيا الصغرى وأنطاكية على البيزنطيين، وإلى تخليص بيت المقدس وأماكن الحج في فلسطين من أيدي المسلمين وضمان الطريق من وإلى أوروبا لقوافل الحجاج.

تشكلت الحملة الصليبية الأولى من متطوعين أو ناقمين أو سجناء سابقين، كان همهم الأوحد الحصول على مردود لعملهم لذلك لم تحظ هذه الحملة بكثير من النجاح بسبب الخلافات العديدة التي عصفت بين قادتها على الأهداف التي يجب تحقيقها. وقد عبرت جبال طوروس وأسست إمارة في الرها وبعد ذلك في أنطاكية التي تعتبر المدينة السورية الأولى في طريق الحملة المتجهة على الطريق الساحلي نحو فلسطين.

ومن هناك اتجه قسم من الجيش ناحية الشرق بمحاذاة العاصي والقسم الآخر سلك ناحية الشاطىء وقد عسكر على مقربة من صيدا. ثم استأنف

زحفه نحو عكا فاحتلها في أواخر أيار (مايو). واجتاز قيسارية والرملة دون التعرض للسكان وتقدم نحو القدس.

ويعطي المؤرخ فيليب حتي صورة واضحة لسقوط المدينة فيقول: . . . «بعد حصار على المدينة ألقاه غودفري وريموند وتنكرد، واستمر شهراً من الزمان، أطبقوا عليها وفتكوا بأهلها على اختلاف السن والجنس بلا تمييز ولا مراعاة. وفي أحد المصادر العربية يقول إن عدد الضحايا بلغ نحو ٧٠ ألفاً وقدره مصدر أرمني بـ ٦٥ ألفاً. ويذكر مصدر لاتيني أن النظر كان يقع على الحوام من الرؤوس والأيدي والأقدام في الطرق والساحات العامة. . .».

وتم الانتصار على جيشٍ من المصريين قرب عسقلان، واحتلت مدينة يافا ثم حيفا وبيسان ونابلس وطبرية. ولم تلبث عكا أن سقطت تحت ضربات الأسطول الجنوي. وتوج بلدوين سنة ١١٠٠ ملكاً على المنطقة وهو يعتبر بحق المؤسس الحقيقي للمملكة اللاتينية في الشرق.

لكنّ ذلك لا يعني مطلقاً أن الفاطميين زالوا بشكل تام من فلسطين، وهذا ما دفع الصليبيين إلى إقامة العديد من التحصينات الإضافية لتحقيق رقابة فعّالة على طرق القوافل خاصة تلك المتجهة نحو مصر وبلاد الحجاز. توفي بلدوين في السنة ١١١٨ وبقيت مدينة صور على الساحل الفينيقي، وكذلك عسقلان بيد القوات الإسلامية، وعسقلان لم تسقط إلاّ سنة ١١٥٣.

يذكر أن الإمارات اللاتينية الثلاث في الرها، وأنطاكيا وطرابلس كانت تتبع لمملكة القدس عند وفات بلدوين.

دور زنكي في التصدي للصليبيين

كان طغتكين اتابكاً وصياً على ابن الملك السلجوقي دقاق بن تتش الذي توفي مخلفاً وراءه هذا الولد الصغير، لكنه سرعان ما انقلب على أسياده ونصب شقيق الملك المتوفي وكان هو الآخر حديثاً في السن. وتمكن طغتكين بعد ضعف الموقف السلجوقي من تأسيس الدولة الأتابكية التي عمرت من ١١٠٤ حتى ١١٥٤. واستطاعت دولته أن تحارب الصليبيين لمدة ست سنوات داخل فلسطين في طبريا والسواحل اللبنانية. لكنه لم يستطع

الاستمرار لأكثر من ذلك دون إيجاد حلفاء. وحصلت موقعة أخيرة اشترك فيها زنكي إلى جانب القوات الإسلامية قرب بحيرة طبريا عند الأقحوانة بتاريخ ٢٨ حزيران (يونيو) ١١١٣ وانتصرت فيها الجيوش الإسلامية، لكن تفكك القيادة وخوف القادة أحدهم من الآخر أديا إلى انسحاب المسلمين.

بعد وفاة طغتكين، خلفه ابنه نور الدين محمود الذي واصل سياسة التصدي للمالك الصليبية وأخذ دمشق سنة ١١٥٤ من خلفاء والده وبدأ يوجّه أنظاره ناحية القدس مركز الثقل اللاتيني. وأرسل لهذه الغاية جيشاً من قواته إلى مصر حيث كان السيطرة الفاطمية في أسوأ حال، وذلك بهدف وضع القدس بين المطرقة الدمشقية والسندان المصري.

صلاح الدين الأيوبي

ينتمي صلاح الدين الأيوبي إلى عائلة كردية، أتى مدينة بعلبك وهو بعد صغير بمعية والده الذي كان يخدم زنكي وهو أحد قواده.

وبسرعة غير متوقعة استطاع صلاح الدين أن يرتقي سلم القيادة بعد مشاركته في حملة تولاها عمه في مصر وهناك دخل الوزارة ودعا في خطبة الجمعة للخليفة العباسي غير آبهٍ بالخليفة الفاطمي الذي بانت سلطته اسمية فقط. وأخذ صلاح الدين يعمل جاهداً لتحقيق حلم طرد الصليبيين، فيقضي الأيام والساعات لجمع الجيوش وتحضيرها للمعركة الحاسمة.

معركة حطين

قبل الحديث عن سير القتال، لا بد لنا من إلقاء نظرة على جغرافية المنطقة التي حصلت فيها هذه المعركة الفاصلة في تاريخ الحروب الصليبية، والتي قلبت العديد من الموازين والأوضاع. فحطين مرتفع من الأرض بجانب بحيرة طبريا، عسكر صلاح الدين إلى القرب منها عند قرية تسمى الصنبرة تبعد عن البحيرة حوالي ثلاثة أميالٍ قرب عقبة أفيق، أما قوات الصليبيين فكانت في مرج صفورية قرب مدينة عكا.

في ٤ تموز (يوليو) ١١٨٧ تصادم الجيشان واستطاع صلاح الدين أخذ

طبريا، الأمر الذي أثر في معنويات الإفرنج الذين حاولوا استعادة ما فقدوه من مواقع حول البحيرة، فأبقى فيها حامية للدفاع عنها وتقدم بطلائع الجيش نحو الجهة الغربية للمرتفع وتم التصادم الجديد في قرية «اللوبيا» لكن دون الخروج بنتائج حاسمة.

وفي صبيحة اليوم التالي وقد ازدادت خسائر الصليبيين، فرَّ أمير جيوشهم باتجاه صور فلاحقته مفرزة من قوات صلاح الدين ولم تستطع إدراكه. أما في ساحة المواجهة الرئيسية فقد تحصنت جماعة الإفرنج في تل حطين، فعمد المسلمون إلى إضرام النيران حولهم لمحاصرتهم مما اضطرهم إلى الاستسلام وأما الباقون فإنهم ماتوا بحد السيف وبعد ذلك سارع إلى عكا وقاتلها واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع، وأخذ كذلك نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة.

ثم زحف باتجاه الرملة، وأقام عليها المنجنيق وقاتلها قتالاً شديداً وبقي فيها لحين سقوط غزة وبيت جيرين والنطرون، التي استسلمت دون قتال. ويذكر أن الصليبيين مكثوا في عسقلان حوالي خمس وثلاثين سنة قبل أن يستعيدها السلطان الأيوبي. واقترب من القدس وراح يعمل جاهداً لتحقيق هدفه الأساسي، فدكها بالمنجنيق واستطاع إحداث ثغرة في أسوارها، الأمر الذي دفع من بقي فيها إلى طلب الأمان خوفاً من الانتقام. وتم الاتفاق على أن تدفع جزية مقدارها عشرة دنانير عن كل رجل ونصف هذا المبلغ عن النساء ودينار واحد عن الولد الصغير أما الذين يتخلفون فيؤخذون كأسرى.

يذكر أن صفد وكوكب سقطتا في يدي السلطان وظل من حين إلى آخر يعود باتجاه المناطق اللبنانية الجنوبية لمهاجمة صور وقلعة شقيف أرنون.

بعد صلاح الدين

دبت سموم التفسخ في المناطق التي استطاع صلاح الدين أن يحررها، بسبب الصراع على السلطة بعد وفاته، فبرزت عدة أسر أيوبية توزعت حكم مصر ودمشق وبلاد الرافدين.

وفي هذه الأثناء سقط بعض المدن داخل فلسطين والساحل اللبناني من

جديد بأيدي الصليبيين مثل القدس وطبريا وصفد. وكانت همة المسلمين قد فترت في القتال، فعمد الملك الصالح نجم الدين ابن أخي الكامل إلى استقدام جماعات من خوارزم لشد أزر جيوشه، واسترداد بعض المناطق.

ولم تكن أحوال المعسكر الصليبي بأحسنَ من أعدائه، لأن الصراع على السلطة كان قد فعل فعله هو الآخر يضاف إليه صراع قادة المدن الإيطالية في محاولة للإمساك بزمام الأمور وإدارة الدفة. ولم يكن الحدث البارز خلال هذه المرحلة سوى قدوم الملك لويس التاسع الفرنسي الذي أمضى فترة في هذه البلاد، امتدت من ١٢٥٠ إلى ١٢٥٤ عمل خلالها على تحصين ثغور وحصون صيدا، وعكا وقيسارية ويافا. لكي تستطيع الصمود في وجه هجمات مرتقبة. وعلى الجانب الآخر تولى الظاهر بيبرس المقاومة ضد الصليبيين واستطاع أن يعيد توحيد مصر وهاجم معاقلهم ومواقعهم على السواحل السورية واللبنانية.

وبعده تابع الكفاح ضدهم الملك قلاوون وهاجم عكا وأسقطها فكانت مفتاحاً فتح له أبواب بقية المدن الفلسطينية والساحل اللبناني.

إن الخوف من عودة الصليبيين إلى المناطق التي أخلوها دفع بمن سيطر على هذه المناطق من الإسلاميين إلى تخريب مرافئها وحصونها، لمنع هؤلاء من الاستفادة منها في حال عودتهم.

السيطرة المملوكية

عندما أدخل الخليفة العباسي المعتصم ٨٣٣م - ٨٤٢م جنوداً أتراك في خدمته وابتنى لهم مدينة سامراء، شكل بعمله هذا بداية التغلغل المملوكي في جسم الدولة الإسلامية ذات الخلافة العربية.

ونتيجة الصراع ضد الصليبيين حتمت على السلاطين اللجوء الدائم إلى العناصر التركية لإدخالها في الجيوش لكي تقوم بعبء المواجهة مع الأعداء، وهذا الأمر أعطى لهؤلاء الأقوام أرجحية داخل الحياة العسكرية أولاً، ومن ثم في الحياة السياسية. خاصة عندما استطاعوا رد الغزوة الصليبية عن مصر وكانت قد وصلت إلى مدينة دمياط.

وبعد انتهاء السلالة الأيوبية يموت الصالح نجم الدين أيوب أسسوا لهم دولة في مصر وسوريا. واستطاعت أن تبقى في السلطة حتى انتصار العثمانيين. وذلك بمساعدة من زوجة الصالح أيوب شجرة الدر التي تآمرت مع عز الدين أيبك وتزوجته لكنّه استولى على السلطة فعمدت إلى اغتياله مما أوجد نقمة في صفوف أتباعه دفعهم إلى قتلها.

المغول

في هذه الأثناء، دخل عامل جديد على الوضع تمثل بقدوم هولاكو المغولي نحو بغداد وتدميرها وإحراق المكتبات العامة. ولقد استطاع هؤلاء القادمون الجدد من احتلال كامل المناطق السورية، وراحوا يشقون طريقهم باتجاه مصر. لكن المماليك قاوموا في عين جالوت جيوش المغول بغياب هولاكو نفسه. وكانت المعركة الفاصلة بتاريخ ٣ أيلول (سبتمبر) ١٢٦٠م فانكسرت عساكر المغول أمام المماليك، الذين قادهم قطز، ووقع قائد المغول في الأسر. وأصبحت مصر بعد هذه المعركة تحت حكم بيبرس الذي غتال قطز فور انتهاء المعركة، ودخل القاهرة على رأس الجيوش المملوكية المنتصرة.

وتفرغ المماليك بعد ذلك لترتيب شؤون بلدانهم الداخلية في سوريا وفلسطين ولبنان فأولوا أهمية كبرى لنيابة صفد نظراً لأهمية موقعها وكذلك الأمر بالنسبة إلى غزة التي جعلوها نيابة تضم الرملة، واللد، ودير البلح وأجزاء من صحراء النقب. وأقطع المماليك لقواعد الجيش الأراضي التي سيطروا عليها بهدف تركيز الجنود ودفعهم إلى الحفاظ على ممتلكاتهم والتمسك بها.

الصراع المغولي ـ المملوكي

برز خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر أحد القادة المغول وهو تيمورلنك، الذي قامت حياته على سلسلة متواصلة من الحروب والمعارك فاقت ما قام به سلفه جنكيزخان. فقد استطاع اجتياح وسط آسيا ومناطقها الغربية مخلفاً وراءه الدمار والخراب. واحتل سوريا حوالي السنة

١٤٠٠م وأباح مدينة حلب لقمةً سائغةً لجيوشه تعمل على نهبها وتخريبها ودخل إلى دمشق، وكان يستهدف من كل ذلك الوصول إلى آسيا الصغرى ومحاربة العثمانيين، واشتبك مع الجيش التركي عام ١٤٠٢م وأسر السلطان بايزيد الأول.

لكن تيمورلنك توفي بعد سنتين مما أدى إلى إفشال خططه بسبب الصراع الذي استعر بين أتباعه.

الفصل التاسع

الأتراك العثمانيون

مرج دابق وبداية السيطرة العثمانية

قبل الغزو العثماني كان المماليك هم المسيطرين على مصر وبلاد الشام بما فيها فلسطين، وكانت العلاقة بينهم وبين العثمانيين على أحسن ما يرام، إلى أن وقعت معركة جالديران بين العثمانيين والصفويين، بزعامة الشاه إسماعيل الذي كان قد أنشأ دولة في إيران الحالية هي الدولة الصفوية.

هذه القوة الشيعية الناشئة كان في مواجهتها قوة سنية ناشئة أيضاً هي قوة العثمانيين، إذاً كان لا بد من الصراع بين هاتين الدولتين القويتين الناشئتين على زعامة العالم الإسلامي وعلى ممتلكات المماليك، الذين تزعموا هذا العالم طيلة قرنين ونصف القرن.

إنَّ معركة جالديران وانتصار العثمانيين السنة كانا نذيري شؤم بالنسبة للمماليك بحيث أن السلطان سليم كان قد بدأ يحتك بهم عبر إمارته الصغيرة، ذي القادر. استوضح السلطان الغوري نائب صفد، فاعلمه عن رغبة السلطان سليم في إدارة شؤون الإمارة.

حاول المماليك الاتصال بالإمارة وتشجيعها على الوقوف في وجه العثمانيين، لكن ذلك لم يخفَ على سليم وكان سبباً لبداية النزاع بين الطرفين. وبدأت محاولات من قبل المماليك للانفتاح على الشيعة الصفويين، لكنّ هذه المحاولات باءت بالفشل نتيجة سقوط الصفويين أمام قوة العثمانيين، وأدت إلى القطيعة النهائية بين القوتين السالفتين ونتيجة لذلك بدأت الاستعدادات للحرب.

وفي أيار (مايو) ١٥١٦ توجه السلطان الغوري على رأس جيشه باتجاه البلاد الشامية والحلبية، ويقال بأن عدد الجيش الذي اصطحبه بلغ حوالي ٤٠ ألفاً أو ٦٠ ألفاً، واصطحب معه كبار الدولة من موظفين ورجال دين وقضاة

وحرفيين. وأثناء غيابه عيّن طومان باي نائباً عن السلطان في القاهرة.

ومن مصر توجهت الحملة إلى دمشق، ثم حماه، حيث استقبله جان بردى الغزالي، ثم تابعت القوات زحفها باتجاه حلب، وأثناء ذلك تسلم السلطان رسالتين من شخصيتين لعبتا دوراً كبيراً في خسارته الحرب: الرسالة الأولى من نائبه في الشام سيباي والثانية من خاير بك نائبه في حلب.

الرسالة الأولى تركز على كفاية القوات الموجودة في الشام لرد أي هجوم عثماني، والثانية تركز على أن خاير بك هو رهن إشارة السلطان الغوري بالنسبة لإمارة ذي القادر.

وهاتان الرسالتان توضحان الدور الذي لعبتاه في ثني السلطان عن مجابهة العثمانيين ليتسنى لهم السيطرة على بلاد الشام من دون معركة.

قبل بدء المعركة الفاصلة رأى السلطان سليم أنّ قوته البرّية كافية للقضاء على المماليك، لكن نقطة الضعف لديه كانت في سلاح البحر. ولذلك أمر بإنشاء قوة بحرية عثمانية تساهم بنقل الجيش إلى أماكن المعارك وتقضي من ناحية ثانية على قوة القراصنة المسيحيين في المتوسط، وبلغت العمارة البحرية حوالي خمسمئة سفينة حربية.

قبل أن تبدأ المعركة ثار بعض المناطق على السلطة المملوكية، وكان الدافع إلى ذلك التآمر بين بعض القيادات المملوكية وسليم. كل ذلك لم يمنع قيام المعركة في مرج دابق التي وصلها السلطان الغوري في شهر آب (أغسطس) ١٥١٦م، وانتهت باندحار المماليك وبمقتل الغوري. ويقال بأنه مات نتيجة عارض مفاجىء أوقعه عن حصانه، فكان لموته الأثر الكبير في سقوط القوة المملوكية.

بانتهاء الأعمال العسكرية في مرج دابق بدأت فلول المماليك تنسحب باتجاه بلاد الشام وخاصة حلب القريبة، لكنّ خاير بك وسيباي، وجان بردى الغزالي المتآمرون مع السلطان سليم أقنعوا محمد بن الغوري بعدم التجمع في بلاد الشام، بل التماس مصر مباشرة.

هنا انكشف الطريق أمام سليم الذي احتل حلب بسهولة واستقبل

بحفاوة وخُطب باسمه مقترناً بلقب «خادم الحرمين الشريفين». وبالمقابل أمّن سليم أهالي حلب على أموالهم وعيالهم.

تحت سيطرة الأمير المعني الكبير

المعنيون قبيلة تنتسب إلى معن الأيوبي، حاربت الحملات الصليبية التي حاولت النزول على السواحل اللبنانية. وعند قدوم العثمانيين إلى الشرق وانتصارهم في مرج دابق، ألقى الأمير فخر الدين الأول خطبة في دمشق بين يدي السلطان سليم الذي جعله مقدماً على سائر الأمراء اللبنانيين الإقطاعيين في جبل لبنان وأعطاه لقب سلطان البر.

وبعد ذلك لعبت هذه العائلة دوراً مهماً في حكم إمارة جبل لبنان. لكن ما يهمنا هو أنه في أثناء ولاية الأمير فخر الدين الثاني الكبير توسعت هذه الإمارة لتشمل ناحية صفد وعجلون.

يذكر الخالدي الصفدي مؤرخ فخر الدين الثاني في كتابه «لبنان في عهد الأمير فخر الدين الثاني» ما يلي: «... وفي ذلك الوقت وصل محمود آغا قپوجي وعبد الله بلوكباشي الكاتب وعلى يدهما مكاتيب من مصطفى باشا بطلب عشرة آلاف ذهب من مال مقاطعة بلاد صفد فسلمهم اثني عشر ألف غرش»....

وفي مكان آخر يقول: «ورحل الأمير فخر الدين من مرج عدّوس، ونزل في قرية الكرك ومنها جسر قبر العباس بالبقاع ومنه إلى مرج الشميسة طرف وادي التيم ومنه إلى مرج عيون، فجاء الأمير علي بن شهاب إلى عنده واجتمع به وهناه بالسلامة وقد كان هيأ له هناك من أجله إقامة ومنه إلى بركة الملاحة، من تراب سنجق صفد وأقام بها يوماً، حتى فرّق العسكر العازق لأربعة أيام واختار الأمير فخر الدين جميع الخيالة وجعلهم قسمين، خيالة الكمانية معه وخيالة أولاد العرب مع الأمير أحمد بن الشهاب وابن أخيه الأمير محمد وتوجه بهم على جسر بنات يعقوب»... ويذكر الشيخ الخالدي الصفدي أيضاً مدينة نابلس وبلاد الرملة وجنين وغزة ويقول بأن جنين كانت تابعة لبلاد غزة. يذكر أن هذه الأحداث مؤرخة سنة ١٦٢٣.

محاولات التحرر الفردية

علي بيك الكبير

يكتنف الغموض الفترة الأولى من حياة على بيك الكبير، بعض المؤرخين يذكر أنه ولد في القوقاز عام ١٧٢٨، ثم أسر وجيء به إلى مصر، وفي الإسكندرية بيع كمملوك عام ١٧٤٣. وهنا ستبدأ حياته ككل المماليك حيث درس بعض العلوم اللازمة لمهنته ودرب على وظيفة خاصة. إن هذه التعاليم والتدريبات تنصب كلها حول الفروسية.

بعد نهاية المرحلة الأولى من التدريب والتعليم بدأ علي بيك الكبير، التقدم في سلك المماليك يساعده على ذلك تفوقه العسكري، بالإضافة إلى الأطماع الشخصية وإمكانيات الوصول إلى زعامة المماليك بمجرد أن يتميز المملوك بشيء من الدهاء والذكاء. هذه الأسباب والظروف ستدفعه للوصول إلى مشيخة البلد، وهي أهم وظيفة في مصر يتولاها البكاوات المماليك في العصر العثماني، وهي تأتي اسمياً بعد سلطة الوالي العثماني، ولكن ومع ضعف الدولة العثمانية ستصبح هذه الوظيفة ممثلة للسلطة الفعلية في مصر.

ولما كانت هذه الرتبة من أرفع المناصب المملوكية، كانت موضع تنافس شديد بين المماليك، وكان الشيخ يحل محل الوالي العثماني عند خلعه وتعيين آخر مكانه.

ولما كان الوصول مباشرة إلى هذا المنصب صعباً جداً، لأن منافسي علي بيك الكبير كانوا أكثر عدةً وأكثر أموالاً منه، فضّل التريث وانحاز إلى جانب أقوى المرشحين إلى أن سنحت له الظروف للوصول إلى هذه الرتبة كطرف ثالث بين المتنازعين عليها. وما أن وصل إلى مبتغاه، حتى بدأ

الاستفادة من الظرف بتكوين قوة عسكرية خاضعة له وبتحقيق ثروة مادية، حتى يثبت قدميه في منصبه نتيجة حصوله على العاملين الذين يرفعان المماليك إلى هذه الرتبة.

وما كاد علي بيك الكبير ينتهي من توطيد سلطته في مصر، حتى قامت الحرب الروسية التركية عام ١٧٦٨ ـ ١٧٧٤م، بعد محاولة روسيا التوسع صوب بحر البلطيق غرباً والمتوسط جنوباً.

حاول علي بيك الكبير الاستفادة من هذه الفرصة النادرة، لذلك عمد إلى طرد الوالي العثماني وامتنع عن تأدية الجزية، وصك عملة جديدة وطمح في نشر سلطانه على البلاد العربية، خاصة شبه الجزيرة وذلك من أجل تحويل تجارة الهند نحو البحر الأحمر، ومن البحر الأحمر إلى شواطىء مصر، كما كانت في عهد أسلافه المماليك قبل تحويل البرتغاليين لطرق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح.

وبعد سيطرته على الحجاز، تشجع علي بيك الكبير وبدأ الاستعداد للسيطرة على بلاد الشام، واتكل في ذلك على صديقه ظاهر العمر الذي كان قد بسط سلطانه على كل من صيدا ويافا وحيفا والرملة ونابلس وصفد وعكا، واتخذ من مدينة عكا مركزاً له.

وكانت الدولة العثمانية قد اضطرت للاعتراف بظاهر العمر على أنه المسيطر على هذا الإقليم، ومنحته نتيجة حربها مع روسيا عام ١٧٦٨م لقب شيخ عكا، وأمير الأمراء حاكم الناصرة وطبريا وصفد وشيخ إقليم الخليل.

كان علي بيك عاقداً الآمال على إمكانية استغلال خصومة الروس للأكراد، وعلى التعامل معهم لتحقيق مشاريعه، فكان لا بد له من حجة مباشرة لغزو سوريا، فاستغل تذمر أهل الشام من الوالي العثماني، عثمان بيك العظم وترحيب هذا الأخير بخصوم علي بيك الهاربين من مصر كذريعة للقيام بالغزو.

بعد اتخاذه الاستعدادات اللازمة، سيّر قائده محمد أبو الذهب فتمكن وبمساعدة ظاهر العمر من السيطرة على مدن فلسطين وصيدا وعلى دمشق عام ١٧٧١م.

وفي أثناء الحملة سعى علي بيك الكبير إلى عقد محالفة مع كل من روسيا والبندقية، هذا السعي أخفق مع البندقية، أما بالنسبة لروسيا فقد لقي تأييد من قائد الأسطول الروسي ألكسي أرلوف الذي هنأه على حركته ووعده بتحقيق مطالبه ورفعها إلى القيصرة كاترين الثانية.

وكانت مطالبه تشتمل على التزود بالمدفعية للحصار وعلى مهندسين على أن يقوم بتموين الأسطول الروسي. إلاّ أنّ خيانة محمد أبو الذهب ستقضي على كل آمال علي بيك الكبير.

فقد استطاع العثمانيون شراء محمد أبو الذهب الذي انقلب على سيده، واتهمه بالكفر والإلحاد والعمل على إخضاع مصر والبلاد الإسلامية للقضاء على دين الرسول وإرغام الأهالي في تلك المناطق على اعتناق الدين المسيحي.

وخلال معركة الصالحية جرح علي بيك ومات عام ١٧٧٣م. وبموته استأثر أبو الذهب بالسلطة وقد تمكن من الانتصار على ظاهر العمر والسيطرة على عكا لكنه توفي عام ١٧٧٥م.

ظاهر العمر

إن ظاهر العمر شكّل «ظاهرة» لافتة في تاريخ فلسطين خلال القرن الثامن عشر، فإنه كما فعل صديقه وحليفه علي بيك الكبير في مصر، استقل هو بحكم مناطق واسعة من فلسطين. لكن الظروف التي ساعدت على صعود نجمه وبروزه، لن تستمر طويلاً وسيعود نجمه ليأفل بعد حوالي الخمسين من السنوات، لأن الدولة العثمانية لم تكن على استعداد للتضحية بحكم المركزية الشديدة التي كانت تنتهجها

تولى ظاهر العمر أقطاع منطقة الجليل الغربية، واستطاع أن يمد هذا الإقطاع ليشمل منطقة اللجون الواقعة على مقربة من صفد. وتروي التواريخ المختلفة المصادر قصة تحالفه مع شيعة جبل عامل في لبنان ضد الحكام الشهابيين آنذاك حيث استطاع أن يناصرهم في دحر جيش الأمير يوسف الشهابي ويقول الشيخ طنوس الشدياق في كتابه أخبار الأعيان في جبل لبنان

الجزء الثاني ما يليّ «وتأكدوا عدم إجابته للصلح، فعزموا على القتال. فتجمعوا نحو أربعة آلاف وانضم إليهم الشيخ ظاهر حنقاً على الأمير يوسف لعدم ارتضائه بالصلح عن يده، ولما التقى الجيشان وتصادمت الفرسان. . . فهجمت عليهم المتاولة والزيادنة فانكسروا. . .»

. . . «ثم إن السفن المسكوبية توجهت بإشارة من ظاهر العمر لحصار بيروت ولما أقبلت عليها صباحاً فر الأمراء الشهابيون منها».

لكنّ الباب العالي وبعد توقيع معاهدة كاتشوك كينرجي مع روسيا، استطاع التفرغ للشؤون الداخلية بعد استفحال أمرها. فما كان منه إلا أن أرسل أسطوله البحري الذي ضرب مدينة عكا وقضى على ظاهر العمر. منهياً بذلك عهده سنة ١٧٧٥م.

أحمد باشا الجزار

كان ملكاً لأحد زعماء المماليك وهو بوسني الأصل من منطقة البلقان والبعض يقول بأنه الباني، هرب من مصر أثناء فترة حكم علي بيك الكبير والتجأ إلى إمارة جبل لبنان أيام حكم الأمير يوسف حوالي ١٧٧٠. وقع اختيار الأمير عليه لتسلم بيروت من قبله وأبقى معه طائفة المغاربة ويقال بأن مدير الأمير يوسف حذره من عواقب تعيين الجزار. وبالفعل لم تطل المدة حتى خرج الجزار على إرادته رافضاً إعادة بيروت إلى خراجه.

وسارع إلى تسوية وترميم الأسوار الموجودة حول مدينة بيروت، وراح يستعد للمواجهة ويجهز آلات الحرب والحصار، ومنع الناس من الدخول إليها.

وهنا طلب الأمير تدخل عمه الأمير منصور الذي ذهب إلى عكا وقابل ظاهر العمر، وطلب إليه المساعدة في إقناع قائد الأسطول الروسي المرابط في جزيرة قبرص على اخراج الجزار من بيروت لقاء مبلغ من المال قدره ٣٠٠٠٠٠ قرش. وبالفعل أتت السفن الروسية وحاصرت بيروت ودكتها بالمدفعية على مدى أربعة أشهر. وفي النهاية رضخ الجزار للأمر وطلب أن يخرج من بيروت مع جماعة المغاربة بوساطة ظاهر العمر فتم له ما أراد وذهب ناحية عكا.

وبعد إزالة ظاهر العمر وإدخال ترتيبات جديدة، عين الجزار والياً على صيدا سنة ١٧٧٦م مكان محمد باشا، وبالرغم من إظهار حسن النية والبشاشة للأمير الشهابي عدو الأمس فإنه عاد ونقض عهد الصداقة الجديد وتوجه بعسكره ناحية بيروت واستولى عليها محاولاً التعويض عن هزيمته الماضية فيها. ولم يترك الجزار مكاناً آمناً، بل إنه اعتدى على جيرانه كلهم الواحد منهم تلو الآخر حتى استطاع أن يحكم غالبية سواحل سوريا ولبنان وفلسطين وكان مركزه في مدينة عكا، وتسلم ولاية الشام لمدة أربع سنوات وكان يجبي الخراج والميرة من هذه المناطق ويسلمها للدولة العثمانية بعد أن يحصل نصيبه منها.

وفي سنة ١٧٨٥ حصل قتال بين الجزار وجيش الأمير يوسف قرب صيدا واستطاع جيش الأمير دحر المرتزقة الذين كانوا بمعية الجزار، لكن المعركة لم تصل إلى نهايتها الحاسمة لأن عدداً من المناصب تآمروا مع الجزار ضد الأمير يوسف.

ولكن الجزار وبعدما سنحت له الفرصة وضع الأمير يوسف في السجن فتوفي سنة ١٧٩١م. وحصل صراع بين الأمراء الشهابيين على حكم الإمارة شكل أحد أطرافه الأمير بشير الثاني الكبير. واستغل الجزار مناسبة الصراع ليزيد من تدخله في شؤون الإمارة اللبنانية.

وفي عام ١٧٩٥ فصلت ولاية دمشق عن الجزار، وعين الوالي عبدالله باشا العظم بدلاً منه لكنه كان ضعيف الشخصية. وقد توفي الجزار سنة ١٨٠٤ فعُين إبراهيم باشا والياً على صيدا ودمشق.

الحملة الفرنسية على الشرق

ترتبط هذه الحملة إلى حد كبير بطبيعة الصراع على المستعمرات بين الإنكليز والفرنسيين الذي بدأ خلال القرن الثامن عشر، وقد تهيأت له مناخات وظروف عملت على تقوية حدثه. فحصول الثورة الفرنسية من جهة وبقاء ممالك تقليدية في أوروبا بزعامة إنكلترا والنمسا من جهة أخرى أبقى الفتيل مشتعلاً والنار تحت الرماد بين نظام ثوري ناشىء وأخرى قديمة ترفض أي تطوير.

رغبت فرنسا بالتعويض عن خسارتها لمستعمراتها، سواء في العالم القديم أو الجديد، بعد معاهدة أوتراخت عام ١٧١٣ وباريس ١٧٦٣. وكان من نتائج ذلك أن انقسم الرأي العام الفرنسي إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يرى ضرورة محافظة فرنسا على ما تبقى لها من مستعمرات في جزر الباهاما، والغوادلوب، والمارتنيك وسان دومنغو وجزر الموريس. والاهتمام بهذه الجزر وزيادة إنتاجها.

أما القسم الثاني والمتمثل بفلاسفة الثورة الفرنسية فكان ينتقد بشدة النظام الاستعماري القائم على أساس من احتكار تعامل المستعمرات مع فرنسا فقط وأيضاً أسواق الرق أو ما عرف بالتجارة المثلثة التي تستثمر السود أيضاً كسلع للبيع.

والفئة الثالثة من الرأي العام الفرنسي، كانت تنحو إلى رأي وسط يقول بضرورة إيجاد مستعمرات جديدة غير قائمة على أساس من الرق وكان يمثل هذا الاتجاه المفكر مونتسكيو. ونتيجة لذلك اتجه أنصار الاستعمار إلى إيجاد ميادين جديدة، وخصوصاً في الشرق،على أساس حرية العمل والشعور الإنساني خاصة وأن استعمال هذه المنطقة يساعد على الاقتصاص من انكلترا المنافس القديم لفرنسا.

إنّ ذلك نبّه المسؤولين الفرنسيين إلى ضرورة المحافظة على الجزر الفرنسية في المحيط الهندي ترقباً لحرب محتملة مع الإنكليز، بغية إخراجهم من الهند. واتخذ التطلع إلى الشرق من مصر مركزاً مرموقاً وعملية استعمار جديدة قائمة على العمل الحر وعدم استخدام الرقيق.

الدافع إلى ذلك في الدرجة الأولى، الظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية الوشيكة الانهيار. بالإضافة إلى موقع مصر المميز على الطريق التجاري التقليدي بين الشرق والغرب. وإمكانيات الأراضي المصرية الإنتاجية من المحاصيل كالشعير والقطن والقنّب وقصب السكر وغيرها. كما أن الحصول على موطىء قدم داخل مصر، يسهل على الفرنسيين إمكانية الحصول على السلع الإفريقية مثل العاج والذهب والرقيق.

سير الحملة

قررت الحكومة الفرنسية في الخامس من آذار (مارس) عام ١٧٩٨ إرسال حملة إلى الشرق وتحديداً نحو مصر، وفي الثاني عشر من نيسان (أبريل) من العام نفسه تقرر وضع جيوش الشرق تحت قيادة بونابرت وتوجيهها إلى مصر لتحقيق ما يلي:

١ - طرد المسلمين من الشرق خاصة والقضاء على مراكزهم التجارية في البحر الأحمر.

٢ - شق قناة في برزخ السويس.

٣ - تحسين أحوال المصريين والاحتفاظ بعلاقة وديّة قدر الإمكان مع الباب العالي.

بدأت الحملة بتجميع الجيش في الشواطىء الجنوبية على المتوسط تضليلاً للعدو، وبسرية تامة وكان الجنود يجهلون وجهة سير الحملة.

ولما كان نابليون متأثراً بالإسكندر المقدوني، فقد فعل على غراره واصطحب معه في الحملة العسكرية بعثةً علمية ضمت بعض المستشرقين والعلماء والجغرافيين والفنانين، كما حمل معه مطبعة عربية وأجبر بعض

تلامذة مدرسة روما المارونية على المشاركة في الحملة للاستفادة من اضطلاعهم على اللغات الشرقية والغربية. وفي ١٩ أيار (مايو) ١٧٩٨ خرجت الحملة من ميناء طولون، وفي ٩ حزيران (يونيو) وصلت إلى جزيرة مالطا، فاستولى الفرنسيون عليها ثم تابعوا سيرهم متحاشين الاحتكاك بالأسطول الإنكليزي باعتمادهم طريقاً غير مباشر. لهذا سارت الحملة إلى جزيرة كريت ومنها إلى الإسكندرية التي وصلوها في ٢٧ حزيران (يونيو)، وكان من حسن حظهم أنهم لم يلتقوا بنلسون قائد الأسطول الإنكليزي الذي وصل بعد ثلاثة أيام للبحث عنهم.

وفي ٢ تموز (يوليو)، احتلوا الاسكندرية بعد مقاومة بسيطة ومنها تابعت الحملة سيرها إلى القاهرة حيث انهزم المماليك في موقعة الأهرام في ٢١ تموز (يوليو). في الوقت الذي كان فيه نابليون منشغلاً بمطاردة فلول الجيش المملوكي في الصعيد، كان قائده البحري قد أبحر من ميناء الاسكندرية إلى أبي قير مخالفاً أوامر بونابرت استبقاء الأسطول في شواطىء الاسكندرية وفاجأه الأميرال الإنكليزي نلسون، الذي ظل يبحث عنه في المتوسط وأنزل به هزيمة ساحقة في أول آب (أغسطس) ١٧٩٨ في موقعة أبي قير.

لذلك، سارع بونابرت إلى اتخاذ قرار بالزحف على بلاد الشام استباقاً لمواقف أعدائه.

بدأت الحملة في شباط (فبراير) ١٧٩٩ واستولى الفرنسيون على منطقة العريش ثم على غزة والرملة فاللد فيافا.

وفي شباط (فبراير) نفسه، بدأ الطاعون يفتك بجنوده ثم سقطت حيفا، وأخيراً توقف أمام عكا حيث جابهته مقاومة عنيفة من قلعتها ومن الأسطول البريطاني المرابط في المتوسط والقوات العثمانية الآتية من جهة الشمال. وبالرغم من انتصاره على القوات العثمانية في جبل طابور فإنه فضّل العودة إلى مصر دون أن يحقق ما طمح إليه.

وترك نابليون القاهرة في ١٨ آب (أغسطس) ١٧٩٩ ووصل باريس في

تشرين الأول (اكتوبر). بعد ذلك حاول كلبير، نائبه في مصر، فتح مفاوضات مع السلطة العثمانية لكن الصدر الأعظم رفض إجراء أي تفاوض قبل انسحاب الفرنسيين دون قيد أو شرط، وسيروا حملة عسكرية وصلت إلى العريش في كانون الأول (ديستمبر) ١٧٩٩، حيث عقدت مفاوضات جديدة بين الفرنسيين والعثمانيين باشتراك الإنكليز وانتهت باتفاقية العريش التي نصت على جلاء الفرنسيين.

محمد علي

أدى استلام محمد علي للحكم في مصر سنة ١٨٠٥ إلى قلق الإنكليز الذين كانوا يخشون من تقاربه مع الفرنسيين.

وحاول الباب العالي إزاحته عبر عملية عسكرية، لكن محمد علي رفض الانصياع، لا بل سعى إلى استمالة قائد الأسطول العثماني إلى جانبه معتمداً على قوته الداخلية. فأذعن الباب العالي إلى إعادة تثبيت محمد علي في حكم مصر.

وفي سنة ١٨٣٠ عينت الدولة العثمانية عبدالله باشا والي صيدا في ولاية القدس التي تتبعها الخليل ونابلس على أن يورد الخراج للسلطنة بحسب المعتاد خاصة من مداخيل الحج. وأرسل الباشا الجديد تعليماته إلى رعايا هذه المناطق الداخلة في إقطاعه لدفع المتوجبات المالية، وأتى من يسلب متسلم عبدالله باشا المال الذي كان بحوزته في قرة جانين. فأمر الباشا بتوجيه العسكر نحو نابلس، وأثناء مروره في قرية عرابة أباحها للنهب وحاصر قلعة عكا.

وراسل الأمير بشير الذي كان يتولى إمارة جبل لبنان، أن يرسل إليه معونة عسكرية، فجاءت وهو على رأسها، وكانت تضم ألفي جندي. وهاجم الجمع قلعة نابلس.

وكان عبدالله باشا عمد في مرحلة سابقة إلى قطع الطرق أمام المرتزقة التابعين لمحمد علي باشا الذي غضب كما يظهر من تصرفاته. وقرر خلال هذه المرحلة الانتقام منه، ولما بلغ عبد الله هذا الأمر أخذ يقوم بالاستعدادات داخل عكا وأرسل موفداً إلى الآستانة لاطلاع الباب العالي على تحركات الجيش المصري. ولكن عندما عاد الرسول وقد استغرقت رحلته

أكثر من سبعين يوماً كان المصريون قد استولوا على المدينة، فلم يستطع بلوغها.

ولم تمضِ سنة ١٨٣٠ حتى راحت الأخبار تتوالي من مصر عن التحضيرات الجارية لإرسال حملة عسكرية كبيرة هدفها احتلال سوريا وفلسطين ولبنان وانتزاع بلاد الشام من الدولة العلية. فتقدم ابراهيم باشا، ابن محمد علي، بعسكره نحو منطقة العريش، ثم إلى يافا حيث غنم بعض الأسلحة من قوات عبد الله باشا التي كان في جملتها عناصر من الأرناؤوط.

وما لبث إبراهيم باشا أن نزل مع قوة كبيرة في حيفا عن طريق البحر، والتقى هناك مع قواته البرية، وبدأ بحصار عكا براً وبحراً. وأرسل يطلب حضور الأمير بشير لمساعدته في أعمال الحصار، وأبلغ مدن الساحل اللبناني وجوب إطاعة الأوامر والالتزام بدفع مال الخراج له بدل الدفع لوالي عكا السابق أو للولاة الآخرين في دمشق أو طرابلس.

يقول الأمير حيدر أحمد الشهابي في كتابه «الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان»، وهو كان مؤرخ الأمير بشير الثاني الكبير ومرافقاً له في بعض مراحل حياته عن حصار عكا ما يلي: «وكان في ذلك الوقت الكون واقع على عكا من البحر، فهدوا برج الذوبان الداخل في البحر من نحو المينا.

«وكان في وصول الأمير إبراهيم باشا كان دايراً نحو العساكر لأجل الترتيب. وعندما رجع عند الغروب استدعا بالأمير والتقاه بأحسن ملتقا واجلسه على كرسي بجانبه وترحب به وأكرمه وسلمه تدبير البلاد، حيث كان الوزير مشغلته تدبير العسكر. وكانوا في ذلك الوقت يحفرون الخنادق نحو المدينة، واحتفروا خندق لقرب الصور (السور) وضعوا صوراً من التراب الذي يطلع من تلك الخنادق وترتبت العساكر حول عكا من كل جانب في البر».

وسقطت عكا بعد حصار استمر حتى شهر أيار (مايو) ١٨٣٢، واستطاع بعد ذلك إخضاع الولايات داخل المناطق السورية كدمشق وحلب ودخل إلى مدينة انطاكية ومن هناك دخل نحو آسيا الصغرى وقونيا حيث أسر الصدر الأعظم.

وتعود قدرة إبراهيم باشا إلى أن جيشه كان مدرباً ومجهزاً. بخلاف جيوش ولاة الدولة العثمانية في تلك الأيام.

لكن الأمر لن يطول، إذ أن إبراهيم باشا سيفرض ضرائب جديدة على البلاد الأمر الذي سيقوي الرفض داخل أوساط الناس للحكم المصري.

وقد ألزم الرجال بالتجنيد الإجباري داخل صفوف جيشه وفرض ما عرف بالسخرة. واندلعت الثورات في أكثر من مكان ضد عزيز مصر، ففي فلسطين حاصر الناس الحاميات المصرية داخل القدس، ثم في مناطق الخليل ونابلس وصفد وحصلت ثورات أخرى في مناطق حوران وجبل الدروز وجبال العلويين ثم في جبال لبنان حيث ثار الدروز أول الأمر عليه وعلى حليفه الأمير بشير ثم في مرحلة لاحقة تبعهم الموازنة.

وعقد مؤتمر لندن في أواسط تموز (يوليو) ١٨٤٠، بهدف إخراج محمد علي من سوريا. وتراجعت فرنسا عن تقديم الدعم اللازم، ولم تلبث الأساطيل الإنكليزية والنمسوية ان هاجمت السواحل في سوريا ولبنان وفلسطين وأنزلت فيها قوات احتلتها.

فانهزم الحيش المصري وترك هذه المدن ومنها مدينة عكا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٠. وعاد الجيش العثماني نحو مناطق الجليل وطبرية والناصرة وصفد ثم دخل إلى القدس وانتهى بذلك الوجود المصري. لتعود الدولة العثمانية إلى فرض هيبتها من جديد.

إن الحملة المصرية كشفت الكثير من الثغرات داخل تركيبة الولايات الشامية ونوعية الحكام وأسلوبهم المعتمد ولذلك ستأخذ السلطنة هذا الأمر في الاعتبار لتلافي حصول خرق في المستقبل. ولكن تدخل الدول الأوروبية التي ساهمت في إنهاء الاحتلال المصري سيزداد وسينشأ ما عرف بالامتيازات الأجنبية أو امتيازات القناصل.

الفصل العاشر

اليقظة القومية العربية

البعثات التبشيرية

من أهم النتائج التي أفرزتها سياسة التسامح الديني التي اتبعها محمد علي وابنه في سوريا هو إفساح المجال للبعثات التبشيرية الأجنبية. وحتى بعد خروج المصريين من هذه المناطق وفلسطين كثر عدد البعثات التي كان هدفها مدينة القدس. أما القائمون بها فهم من الطوائف الكاثوليكية والبروتستانية والأرثوذوكسية.

وخلال القرن التاسع عشر وبعد بروز الروح القومية في بلدان أوروبا وتنامي الشعور الوطني القومي أخذ ذلك ينتقل مع حركة التفاعل العلمي والأدبي التي حمل لواءها المبشرون الأوائل أو أصحاب الجمعيات العلمية أو المؤسسات التي هدفت إلى نقل الأفكار التربوية والعلمية الأوروبية أو الأميركية إلى الشرق.

ويقول المؤرخ جورج انطونيوس أن المدارس كان لها الأثر الأبرز في يقظة الروح القومية، فالحركة الثقافية التي جرت انطلاقاً من سنة ١٨٣٤ في بلاد الشام أدت إلى نهضة حقيقية على صعيد العلم واللغة فبعدما وصلت اللغة العربية إلى أدنى درجات الانحطاط، عادت هذه المدارس التي افتتحت لترفعها من الوهدة.

إن النظام المصري الذي ربط الواقع التعليمي بالسياسة العسكرية حيث أنشأ الكليات الحربية في دمشق وحلب، قد ترك أثراً واحداً ثابتاً. فقد أثار تجنيد إبراهيم باشا للأبناء في هذه البلاد حنق آبائهم ودفعهم ذلك إلى أن ينشئوا المدارس فأتاحوا لهم فرصة النجاة من الجندية وأصبحوا منذ تلك الآونة يعنون بالتعليم المدني.

ويعطي الدكتور انطونيوس للمبشرين الأميركيين أهمية أولى وأساسية في

بعث النهضة العربية لأنهم كما يقول أدركوا ما احتاجت إليه البلاد قبل كل شيء وهو إيجاد نظام تعليمي يلائم تراثها، وأول ما قاموا به سبك الحروف المطبعية العربية التي سبكت وفق نمط جديد.

والعمل الذي يعتبر تتويجاً لأعمالهم التربوية والتعليمية هو إنشاء الكلية البروتستانتية السورية في بيروت سنة ١٨٦٦ برئاسة القس دانيال بليس والذي بقي رئيساً لها حتى سنة ١٩٠٢ حيث تقاعد وخلفه ابنه هوارد بليس. وهكذا ظهر إلى الوجود معهد قدر له أن يشارك بنصيب كبير في توجيه مستقبل البلاد.

ويورد انطونيوس فقرتين عن «رجلين عظيمين كان بأيديهما زمان الحياة الفكرية في ذلك العصر» ناصيف اليازجي وبطرس البستاني.

اليازجي الذي تلقى تعليماً جافاً، ولكنه عمل على إحياء التراث العربي وشغل منصباً في ديوان الأمير بشير وعمل على تنشئة أولاده على حب التراث وتبذ التفرقة الدينية حتى أن أحد أبنائه أصبح فيما بعد أول من نادى بالتحرر القومي للعرب.

أما البستاني فهو كان «تلقى أحسن ضروب التعليم الموجود آنذاك»، فتعلم في عين ورقة السريانية واللاتينية وأزمع الرهبان إرساله إلى المدرسة المارونية في روما إلا أن أمه توسلت إليه ألا يذهب، فبقي واحترف التدريس. وقدر له أن يتعرف إلى بابلي سميث وأميركي آخر هو الدكتور كورنيليوس فان دايك. فتعلم الإنكليزية واعتنق البروتستناتية واشتغل مع سميث في ترجمة التوراة. ولعل أهم أعماله هو «محيط المحيط» وهو معجم للغة و«دائرة المعارف».

الجمعيات القومية العربية

من المؤرخين من يذهب إلى تحديد الفترة الممتدة من سنة ١٨٤٧ إلى ١٨٦٨ بأنها كانت بداية اليقظة العربية حيث تأسست الجمعيات الأدبية والعلمية. وقد اقتصرت أول الأمر على النصارى ولم تضم إلى صفوفها أشخاصاً مسلمين. لذلك وبحسب رأي النقاد بقي أثرها ضعيفاً. ولم تمثل أكثرية الشعب التي لم تفرق يوماً بين العروبة والإسلام.

مهما يكن من أمر، فقد كان للجمعيات الأدبية والعلمية الفضل في غرس بذور القومية والوطنية. وسنة ١٨٥٧ اشترك بعض المسلمين والمسيحيين والدروز في تأسيس جمعية علمية سميت «الجمعية العلمية السورية» ومن أعضائها الأمير محمد أرسلان، وحسين بيهم. وقد اشترط أعضاء هذه الجمعية عدم إدخال المبشرين أو بعثاتهم في أعمالها. لكن أحداث جبل لبنان ودمشق الطائفية أثرت بشكل سلبي على عمل المسيحيين في هذه الجمعيات، وأدت إلى انكماش وعزلة. لكن خلال سنة ١٨٦٨ نشأت جمعية في القاهرة ضمت أشخاصاً بارزين. وقد استطاعت المثل العليا المشتركة أن تجمع العقائد المتناحرة في رابطة أخذت تعمل لتحقيق أهداف مشتركة واعتبر ذلك أول مظهر للوعي الوطني الجماعي، ومهد لحركة سياسية جديدة.

يذكر أن صدور الخط الهمايوني سنة ١٨٥٦ تضمن مساواةً بين كل الأديان.

الإرهاب الحميدي والجمعيات السرية

تميز العهد الحميدي بالجاسوسية والإرهاب والرقابة، وكانت هذه

السياسة نتيجة الأوضاع الدولية ونهضة القوميات في بلدان البلقان والعداء الأوروبي للسلطنة، عدا عن الأسباب النفسية الكامنة في شخصية عبد الحميد، ومزاجه. وقد اتبع سياسة إسلامية هدفت إلى ضرب الفكر القومي الناشيء حديثاً.

أما العامل الثاني فهو صلات عبد الحميد مع قيصر ألمانيا.

لكن أول جهد منظم ظهر في حركة العرب القومية هو في تأليف خمسة شبان كانوا قد درسوا في الكلية البروتستناتية السورية «الجامعة الأميركية» جمعية سرية سنة ١٨٧٥ أي قبيل ارتقاء عبد الحميد العرش بسنتين وكانوا من النصارى. وقد أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم واستطاعوا أن يضموا إلى صفوفها ٢٢ عضواً من مختلف الأديان. وأبرز ما قامت به هو لصق المنشورات في الشوارع، وسرت إشاعات عن علاقة مدحت باشا بها للاستقلال ببلاد الشام.

وكانت المنشورات تحمل التنديد بالنظام التركي ومساوئه وتحث العرب على الثورة للإطاحة به، وأحدثت منشوراتها اضطراباً واسعاً وبلغ الاستبداد حداً دفع ببعض أعضائها إلى الهرب سراً نحو القاهرة ومنهم فارس نمر «صاحب المقتطف» و«المقطم».

إذاً، المنشورات شكلت الرابط الوحيد بين أعضاء الجمعيات والعامة من الناس، وراحت تظهر في بعض مدن بلاد الشام وتضمنت برامج سياسية وانتقادات للسياسات التركية إضافة إلى التذكير بأمجاد العرب القديمة وتصوير الأتراك بأنهم مغتصبون للخلافة. وبلغت المناشير الذروة عندما طالب أحدها بمنح سوريا الاستقلال متحدةً مع جبل لبنان، وبجعل اللغة العربية لغةً رسمية بالإضافة إلى المطالبة بحريات التعبير، والتعليم، ورفع القيود واستخدام القوات العسكرية المجندة من أهل البلاد في مهمات داخلية. وكانت هذه النداءات التي أطلقتها الجمعيات أول صرخة للحركة العربية الوليدة.

هذا في الداخل أما خارج الوطن العربي فقد استطاع نجيب عازوري تأسيس «جامعة الوطن العربي» سنة ١٩٠٤ وهدفها المعلن هو تحرير بلاد

الشام والعراق من سيطرة الترك، وقد أصدرت نداءات عدة عنيفة تدعو إلى الثورة ونشر عازوري كتاباً بالفرنسية عنوانه «يقظة الأمة العربية» ومجلة شهرية تدعى «الاستقلال العربي» وذلك للمساعدة في أوساط المحافل الدولية.

بعدما تسلم محمد الخامس السلطة استطاعت جمعية الاتحاد والترقي من النفوذ داخل هذه الجمعية وحلت كل الجمعيات غير التركية، واستبدت أكثر من استبداد عبد الحميد.

بعد تفاقم الأمور، اضطر العرب من جديد لاتباع أسلوب العمل السري فنشأت جمعيات لم يعرف الأتراك بها ونشرت أفكارها بواسطة النوادي والجمعيات المرخصة من الدولة، أو عن طريق الخفاء وذلك حتى العام ١٩١٤ مطلع الحرب الأولى.

وكان المنتدى الأدبي هو الأقدم تأسيساً وقد أنشأته مجموعة موظفين ونواب وأدباء وطلاب في مدينة القسطنطينية صيف ١٩٠٩ ليكون مقراً للقاء المواطنين العرب هناك، وقد زوّد بمكتبة وسمح به الاتحاديون ووضعوه زمناً تحت رعايتهم لأن أهدافه لم تكن سياسية علنياً. وأصبحت لجنته الإدارية هي الوسيط المعترف به رسمياً في المفاوضات التي أجريت بين العرب والاتحاديين لتسوية الخلافات. واقتصر عمله على توضيح الأفكار والآراء وتمثلت حركته بتقوية الدعوة إلى الوعي وتزويد الحركة العربية بعوامل جديدة.

حزب اللامركزية الإدارية العثماني «عدم مركزيت» وقد نادى باللامركزية في بلاد تضم قوميات مختلفة وأعراقاً بشرية كثيرة. وتلخصت سياسته في مبادئه الستة والثلاثين وكانت تدعو في بعض جوانبها إلى أن يكون لكل ولاية لغتان وضرورة تعليم أبناء الولاية حسب لغة أهلهم. وقد كفلت مواد النظام الأساسي لهذه الجمعية قيام جهاز حزبي محكم ووكل أمر الإشراف عليها إلى عشرين عضواً ولها فروع في مدن بلاد الشام.

أما الجمعية القحطانية فقد برزت في مجال العمل السري وتأسست سنة ١٩٠٩. وتمثل هدفها بتحويل الدولة العثمانية إلى مملكة ذات تاجين

ورأسين، عربي وعثماني، وذلك كردة فعل على سياسة الاتحاديين المركزية، إمبراطورية تركية ـ عربية على غرار النمسا ـ المجر. وتتمثل قيمتها التاريخية بأنها كانت محاولة أولى جادة لضم الضباط العرب ضمن بوتقة واحدة. أما الجمعية السرية الثانية فهي العربية الفتاة وقد تأسست في باريس سنة ١٩١١ على يد سبعة من الشبان العرب وكلهم من المسلمين الذين كانوا يتابعون دراساتهم العالية في العاصمة الفرنسية. وقد أضفوا على الجمعية روح التماسك وسعت إلى الاستقلال بالبلاد العربية وتحريرها من السيطرة التركية واعتبر هذا تقدماً ملحوظاً بالنسبة للبرامج السابقة التي رمت إلى الحكم الذاتي ضمن نطاق الدولة العثمانية، وقد تمت هذه الحركة بتدرج وحذر وأصبحت أكثر الجمعيات العربية أثراً.

نقلت أول الأمر إلى بيروت في ١٩١٣ ثم إلى دمشق بعد سنة واحدة. وتجاوز عدد أعضائها المئتي شخص معظمهم من المسلمين. وظل سر قيامها مكتوماً حتى النهاية، ولم يذع إلا بعدما نالت البلاد العربية استقلالها.

الفصل الحادي عشر

الصهاينة

مشاريع العودة والاستيطان

بينما كانت الدولة العثمانية تعاني من تدهور أوضاعها الداخلية شهدت الأوساط البروتستانتية في ألمانيا وإنكلترا وسويسرا نهضة دينية ركزت اهتمامها على الأراضي المقدسة. ولم تلبث العاطفة الدينية أن تحولت إلى «عطف إنساني» على اليهود في أوروبا.

ففي سنة ١٨٠٠ أصدر جيمس بيشانو كتاباً يدعو فيه إلى عودة اليهود إلى فلسطين واعتقد أن مثل هذه العودة تحقق النبوءات التوراتية، وتنقذ الدول الأوروبية والدولة العثمانية من أزماتها الخانقة. وقد وضع بيشانو آماله بفرنسا أول الأمر، لكنه عاد فجعل ذلك من اهتمامات الدول البروتستانتية. وأثار الكتاب جدلاً في الأوساط البريطانية. لأن الفكرة وجدت ضالتها في مخططات اللورد اشيلي الذي دأب منذ ١٨٣٨ يطلق فكرة إنشاء أبرشية بروتستانتية في القدس تنسق جهود المرسلين في حوض البحر المتوسط الشرقي. لكن اهتمامه الأولي تركز على عودة اليهود إلى فلسطين وذلك لأهداف دينية واقتصادية.

فمن الناحية الدينية أصر اللورد على أن تحتل البروتستانتية الإنكليزية مركزها بين الكنائس المسيحية في فلسطين، لأن الكنيسة البروتستانتية تزداد أهمية إذا ما احتضنت اليهود وذلك عن طريق تأسيس كنيسة يهودية ـ مسيحية في القدس أو جبل صهيون، تنشر تعاليم الإنجيل باللغة العبرية وتساعد على نهضة اليهود اجتماعياً ودينياً. واستمرار هذه الكنيسة في فلسطين يتطلب حماية دبلوماسية تأخذ على عاتقها حماية اليهود في الدولة العثمانية.

أما من الناحية الاقتصادية فإن تجمع اليهود في الجليل يجعل من فلسطين مركز توسع للصناعة البريطانية في رقعة جغرافية تمتد من المتوسط حتى الفرات.

وعند حل المشكلة المصرية ـ السورية التي كان يمثلها وجود محمد علي باشا رفع اللورد اشيلي مذكرة إلى الدول الكبرى يومذاك، ذكر فيها أن هذه الرقعة الجغرافية الفنية تؤمن اليد العاملة، إذا ما تأمنت هذه العودة عن طريق استعمار فلسطين وبدون أي كلفة. على أن الشرط الأساسي لنجاح هذه الخطة يظل عامل الحماية والاستقرار في المنطقة التي ستستفيد من إدخال عوامل الحضارة الأوروبية إليها عن طريق اليهود. أما استعمار فلسطين فقد وجد خطته في مشروع السير مونتفيوري الذي قام بعدة رحلات إلى الشرق ما بين الأعوام ١٨٢٧ و ١٨٧٤. وفي ١٨٣٩ استقبل بحفاوة من قبل الجاليات اليهودية، البرتغالية والألمانية في منطقة صفد، ولاحظ غنى الأرض والفوائد التي يمكن أن يجنيها السكان من إدخال زراعة الأشجار المثمرة والحبوب، وصمم على استئجار منطقة تضم بين مئة ومئتي قرية من محمد علي باشا، ولمدة خمسين سنة يدفع عنها ضريبة سنوية. وفي حال عقد الصفقة فإنه سيؤسس، في إنكلترا، جمعية تهتم باستعمار هذه المنطقة وبتشجيع عودة اليهود إليها. وكانت قناعة مونتفيوري كافية لحمله على السفر إلى مصر وعرض مشروعه على محمد علي باشا، بالإضافة إلى اقتراح تأسيس مصرف للتسليف الزراعي من أجل تنمية المنطقة. لكن العزيز، بالرغم من تأييده الظاهر للمشروع، لم يعط جواباً حاسماً نظراً للظروف الدولية التي كانت تحيط بالمسألة السورية ـ المصرية.

موقف بريطانيا

بالرغم من الوجهة العملية في مشروع مونتفيوري، فإن خطة اللورد طرحت المسألة بعنصريها البشري والاقتصادي كما أدخلتها في نطاق المنافسة الدولية في الشرق: ففي السنة ١٨٣٠ اقترحت «شركة الشرق» اختصار طريق الهند عبر سوريا والبحر الأحمر. وفي أيار (مايو) من السنة نفسها أرسلت الحكومة البريطانية بعثة لدراسة الاقتراح على الطبيعة وإمكانية تحقيقه. وبنجاح الرحلة الأولى اقترح تشني رئيس البعثة، اعتماد طريقين: الأولى عبر الفرات من حزيران (يونيو) إلى أيلول (سبتمبر) والثانية عبر الأحمر من تشرين الثاني (نوفمبر) وحتى كانون الثاني (يناير).

وللإسراع في تأمين الطريق، أنزلت شركة الشرق فرقة عسكرية في مرفأ عدن الذي اشترته بقيمة ألف وخمس مئة جنيه استرليني من أحد الأمراء المحليين. وأبلغت الحكومة البريطانية محمد علي باشا أن كل اعتداء على هذا المرفأ يعتبر بمثابة إعلان الحرب.

وفي الوقت نفسه، كانت شركة الهند تفاوض محمد علي للحصول على امتياز سياحي في مصر يقضي ببناء سلسلة من الفنادق بين السويس والقاهرة، وقصير وطيبة لاستقبال السياح الإنكليز، ظاهرياً. أما في الواقع، فكانت الشركة تسعى لتأمين الخط البري بين المتوسط والبحر الأحمر كمقدمة لفتح قناة السويس.

وبقي على الحكومة البريطانية أن تؤمن ربط المتوسط بالفرات عبر سوريا، وأن تضمن سلامة العمليات التجارية فيها. وبالفعل، وفي السنة ١٨٣٥ حصل السفير البريطاني في الآستانة، اللورد بونسونبي، على فرمان يمنح بريطانيا الحرية الكاملة في تجارة الحرير في سوريا. وعام ١٨٣٨ وقعت معاهدة تجارية مع الباب العالي ضمنت بموجبها، مبدئياً، حرية التجارة عبر سوريا والأراضي العثمانية. وبقي عليها أن تؤمن سلوك الطريق الخاصة بعد معارضة محمد علي باشا. وللوصول إلى هذه الغاية نرى بريطانيا تسعى باتجاهين: الأول تفكيك أمبراطورية محمد علي في الشرق وإجباره على التراجع إلى مصر، والثاني إقامة قواعد ثابتة لأسطولها في المتوسط الشرقي كمدخل إلى الطريق البرية نحو الفرات والخليج العربي.

تركز الاتجاه الأول على الإمارة الشهابية حيث كانت تتفاعل عوامل التمرد والثورة على محمد علي باشا. أما الاتجاه الثاني فتركز على قبرص وفلسطين. ويروي الرحالة بوجولا، مستنداً إلى مصادر ثقة، أن بريطانيا طلبت من السلطان السيطرة على قبرص كتعويض لها عن تضحياتها في حربها ضد محمد علي باشا في سوريا... فقبرص توافق بريطانيا التي هي بحاجة إلى محطة لمراكبها التجارية العاملة في المتوسط الشرقي على طريق الهند عبر الفرات. فالجزيرة معزولة، يسهل الدفاع عنها، وفيها مرفأ، وقريبة من الإسكندرونة وحلب. وهي بالتالي ستكون قلعة إنكليزية ومستودعاً للفحم

الحجري... وفي الوقت نفسه، كان يدور حديث حول مشروع الإنكليز لإقامة مملكة إسرائيل في سوريا.

وبالفعل فمنذ السنة ١٨٣٩ كان نائب القنصل في القدس، يونغ، ينفذ تعليمات مديرية الشؤون القنصلية في وزارة الخارجية البريطانية وبإيعاز من بالمرستون، بشأن حماية اليهود في فلسطين، ويجتهد في تذليل العقبات القانونية أمام بناء كنيسة البروتستانت في القدس. في حين كان بالمرستون، وزير الخارجية يسعى لدى الباب العالي لمنح اليهود حق التملك في فلسطين والاعتراف بهم كملة في الإمبراطورية العثمانية. في هذه الأثناء، تناقل قناصل فرنسا في الإسكندرية وبيروت أخبار إقامة «مملكة إسرائيل» في فلسطين.

بدأت المساعي البريطانية بصدد إقامة مملكة إسرائيل في السنة ١٨٣٨ وتوقفت في حوالي السنة ١٨٤٢. وتميزت السياسة البريطانية خلال هذه المرحلة بفشل القنصل في بيروت بجعل الموارنة يفكون ارتباطهم بفرنسا لكنه استمال الدروز. وانتهى التدخل البريطاني إلى جانب السلطان بتفويض القنصل ووعد بإعادة تنظيم سوريا بشكل يضمن استقرارها وازدهارها تحت سيادة السلطان وخدمة المصالح البريطانية.

موقف فرنسا

أما الموقف الفرنسي فقد اختلف عن مثيله البريطاني لأسباب عديدة: ففرنسا مرتبطة تاريخياً بسوريا المقدسة. لأنه بعد الثورة الفرنسية وسيطرة العقلانية وتنافس المصالح الدولية في أوروبا والعالم، بدأت فرنسا تستبدل ارتباطها التاريخي بمصالح تجارية ضمن رؤية سياسية لمستقبل الدولة العثمانية. ولم يكن تدفق المساعدات الفرنسية على مصر، إلاّ لأنها وجدت في محمد علي باشا داعية ثورة اجتماعية واقتصادية وسياسية تضع مصر في مصاف الدول المتقدمة، وتجعل منها قاعدة قوية لمخططات فرنسا التوسعية في الشرق الأدنى. وبناءً على هذه النظرة دعمت فرنسا مطامح محمد علي لإقامة امبراطورية شرقية، وأيدته ضد السلطان وإجماع الدول الأوروبية.

أصول الحركة الصهيونية

تقترن الصهيونية بلفظة «صهيون»، ومعناها في العربية الصهوة، وهو جبل مرتفع يقع شرق القدس كان الملك داود قد بنى عليه قلعة لحماية أورشليم. وأصبح مدلول اللفظة يشمل في ما بعد المدينة بكاملها ومن ثم فلسطين كلها.

فعندما فقد اليهود هويتهم السياسية سنة ٧٠م وتفرقوا في الدنيا استطاعوا المحافظة على عقيدتهم الدينية وطقوسهم ورفضوا الانصهار في حضارات الشعوب الأخرى إلا في حالات نادرة. فكثيراً ما كانت لهم حيثما حلوا شوارعهم وأماكن سكنهم ولغتهم الخاصة ومدارسهم ومعابدهم.

والعودة إلى صهيون من جوهر الطقوس الدينية اليهودية: إعادة بناء هيكل أورشليم تذكر في الصلوات ثلاث مرات يومياً، وكلمة التمني في الأعياد الكبيرة اليهودية هي «السنة القادمة في أورشليم».

ولغاية القرن التاسع عشر بقيت الصهيونية إلى حد بعيد حركة دينية فكرية تجمع روحياً يهود العالم.

ومنذ الثورة الفرنسية تأمنت الحرية لليهود في فرنسا واقترعت الجمعية الوطنية على مساواتهم ببقية المواطنين في ١٧٩١/٩/٢٧. وأصبحت هذه المساواة سلعة سياسية تصدرها جيوش الثورة في حروبها الأوروبية على أمل أن ينصهر بنو موسى في الدول التي يعيشون فيها.

لكن، سرعان ما خابت آمال اليهود من مقررات الثورة الفرنسية التحررية، ففي فرنسا بالذات ولغاية حدوث مسألة درايفوس ١٨٩٥ استمرت اللاسامية، محصورة في نطاق بعض المفكرين المتعصبين أمثال ادوارد ردمون الذي كتب مجلدين بعنوان، «فرنسا اليهودية»، ونشر شعاره «اليهودي، هوذا

العدو». وفي ألمانيا حيث كان عددهم يربو على ٦٠٠ ألف من أصل ٥٦ مليون ألماني سنة ١٨٧٠ بقي اليهود خاضعين للتفرقة رغم قرار مساواتهم ببقية المواطنين.

أما في أوروبا الشرقية فتحرير اليهود اكتمل سنة ١٨٧٠ في كل من النمسا والمجر، ولكن مقاطعة غاليسيا شرقي الامبراطورية النمساوية بقي نصف مليون يهودي فيها يعانون أوضاعاً صعبة، مثل قانون تحديد الزواج.

وفي روسيا، جمع اليهود في مناطق سكن خاصة بهم في بولندا وعلى طول الحدود الغربية من البلطيق إلى البحر الأسود وحظرت المناطق الأخرى عليهم. وتصاعدت حملات ضدهم بعد اتهامهم باغتيال القيصر نقولا الاول سنة ١٨٨١ وحصلت الهجرة الكبيرة الأولى التي حملت مئات منهم إلى بريطانيا وأميركا، وبضعة آلاف نحو فلسطين، حيث أنشأوا مستعمرات زراعية موّلها يهود أوروبيون أمثال موسى مونتفيوري (١٧٨٤ ـ ١٨٨٥) والبارون الفرنسي اليهودي الأصل إدمون روتشيلد (١٨٤٥ ـ ١٩٣٤).

في ١٨٦٢، نشر اليهودي الألماني موسى هس كتاباً عنوانه «روما وأورشليم». وكان تأثر كثيراً بانتصارات غاريبالدي فجاء فيه: «مع تحرير مدينة روما الخالدة على ضفاف نهر التيبر يبدأ تحرير مدينة أورشليم الخالدة على جبل موريا. ومع النهضة الإيطالية تبدأ قيامة اليهودية، وفي اعداد الشعوب التي اعتبرت ميتة... الشعب اليهودي الذي كان وما زال يوجه أنظاره إلى أورشليم».

وفي سنة ١٨٨٢، نشر الطبديب الألماني ليوبينكر كتاباً عنوانه «التحرر الذاتي»، دعا فيه يهود العالم إلى السعي لتحرير أنفسهم من عبودية الآخرين وإيجاد وطن خاص بهم. أما بعث اللغة العبرية وتحويلها من لغة أدبية كتابية إلى لغة محكية فالفضل فيه يعود إلى اليهودي الروسي الأصل أليعازار بن يهودا الذي درس في باريس ومنها انتقل إلى فلسطين حيث نشر العبرية بين القادمين الجدد بكل الوسائل.

وقبل الحديث عن تيودور هرتزل ودوره في عمليات الاستعمار في

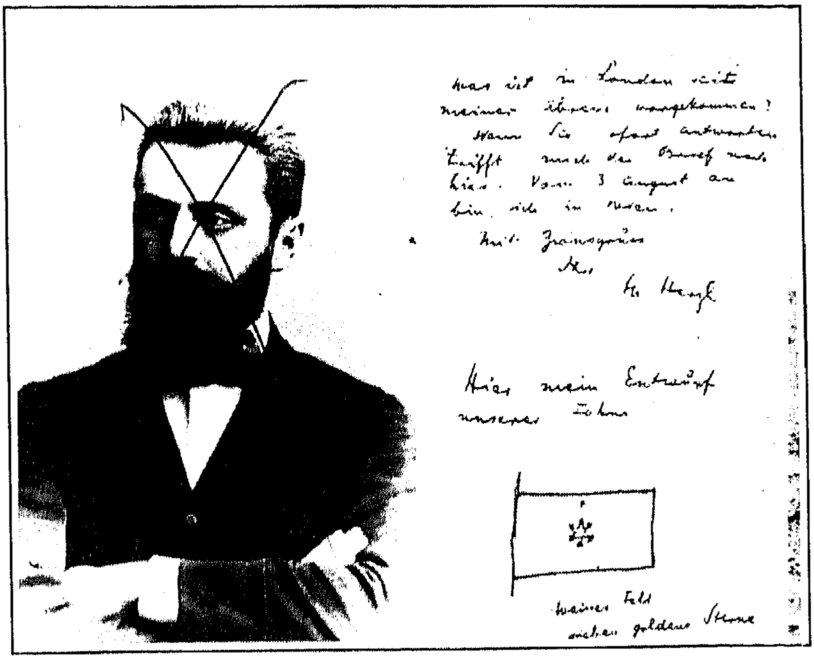
فلسطين لا بد من إلقاء نظرة ولو عاجلة على النشاط الذي قامت به جماعات صهيونية تحدوها فكرة استعمار فلسطين والتوطن فيها، ففي سنة ١٨٧٠ أنشأت جمعية يهودية فرنسية مدرسة «مكفا إسرائيل» وهي مدرسة زراعية خصصت لتدريب العمال على الزراعة. وفي السنة نفسها، تأسست جمعية «محبي صهيون» وصار لها فروع في مختلف المدن الأوروبية بحيث أنها راحت تعمل على تمويل الهجرات ناحية فلسطين، لكن أعمالها الفصلية والرسمية لم تبدأ إلا بعد سنة ١٨٩٠.

هرتزل والدولة اليهودية

حياته: ولد تيودور هرتزل في بودابست بتاريخ ٢ أيار (مايو) ١٨٦٠ وتوفي في ٣ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٤.

حصل على شهادة الحقوق من جامعة ڤيينا عام ١٨٧٨، ودكتوراه في القانون عام ١٨٨٤، وعين عضواً في الجمعية اللغوية الألمانية، وزاول مهنة المحاماة ثم عمل في ميدان الصحافة.

في أقل من عشر سنوات من عمره القصير كرسها هرتزل لتحقيق أسس الاستيطان الأولى، وأصبح أبا الصهيونية.



تيودور هرتزل وإلى جانبه مشروع العلم الإسرائيلي

عمل في باريس مراسلاً لصحيفة نمساوية، وكتب في صيف ١٨٩٥ كتاباً صغيراً عنوانه «الدولة اليهودية»، ضمّنه دستور الدولة العتيدة، ويقال بأنه لما عرضه على أحد أصدقائه نصحه هذا الأخير بضرورة زيارة طبيب نفساني.

ورأى هرتزل أنه يجب طرح مسألة اليهود على الدول الكبرى والطلب إليها المساعدة في إنشاء دولة تضم اليهود. وذهب إلى وجوب أن يضطلع بالعمل التنفيذي جهازان يتمثل الأول في جمعية اليهود، والثاني في تكوين شركة يهودية، رأى أن يكون مركزها لندن وتقوم بعمليات شراء الأراضي ونقل اليهود إليها.

أما رأس المال المقدر لهذا العمل فبلغت قيمته خمسين مليون جنيه استرليني ورأى أن يستوطن اليهود فلسطين أو الأرجنتين، فهذه الأخيرة تمتاز بمساحة واسعة وأرض خصبة ومناخ معتدل وكثافة سكانية قليلة. أما فلسطين فقال عنها في كتابه: «وطننا التاريخي الذي لا ينسى والذي يجذب سحر اسمه اليهود». لكنه لم يعلن في الكتاب عن اختياره النهائي لمكان الدولة المقترحة، بينما قدر عدد الذين يجب أن يهاجروا من أوروبا بثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود في مدة لا تتجاوز بضعة أعوام بمعدل ربع مليون مهاجر سنوياً.

عقد أول مؤتمر صهيوني في مدينة بال (سويسرا) في ٢٩ و ٣٠ و ٣١ آب (أغسطس) ١٨٩٧، وحضره مئتان وأربعة مندوبين يمثلون يهود العالم. واستمع الحاضرون إلى كلمة هرتزل بصفته رئيساً للمؤتمر، وبعدها قدم ماكس نوردو رئيس الهيئة التنفيذية تقريراً تضمن ضرورة إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي وجاء فيه: «إن المؤتمرين وافقوا على أن هدف الصهيونية هو تأسيس موطن للشعب اليهودي في فلسطين يحقق عن طريق القانون العام، وينظر في الوسائل الآتية سبيلاً إلى بلوغ الأهداف:

١ ـ ترقية عملية استعمال فلسطين عن طريق العمال الزراعيين والصناعيين اليهود بالطرق المناسبة.

٢ ـ الربط بين اليهود وتنظيمهم من خلال مؤسسات تثقف مع القوانين الدولية والمحلية لكل بلد.

٣ ـ تنمية وتقوية الشعور القومي عند اليهود.

٤ ـ إتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة دول أوروبية لتحقيق غرض الصهيونية.

وجاء في البند الثاني بخصوص مساحة الدولة اليهودية المنشودة: «أن تكون مساحة البلاد كافية لحاجات خمسة عشر مليوناً من اليهود».

بعد هذا المؤتمر، بدأ هرتزل نشاطه على المستوى الدولي لتأمين التغطية السياسية لمشروعه الضخم فاتصل أولاً بالباب العالي، كون فلسطين من ممتلكات السلطان وزار اسطنبول عدة مرات، وقام بزيارات لفلسطين.

يقول الدكتور حسن حلاق رداً على مقال نشرته صحيفة النهار اللبنانية بتاريخ ١٦/ ٤/٩٧، تحت عنوان «كيف حاول هرتزل إغراء السلطان عبد الحميد» ما يلي: «منذ أن تولى السلطان عبد الحميد الثاني السلطنة (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) تنبّه إلى خطورة إشغال الأراضي الفلسطينية لا سيما اليهود، لهذا أصدر فرمانات سلطانية عدة تمنع إقامة اليهود الدائمة في فلسطين.

وعام ١٨٨٢، صدرت قرارات جديدة بهذا المعنى رداً على محاولات جمعية «أحباء صهيون» الحصول على إذن رسمي بالهجرة. وقد حاول في الفترة نفسها المدعو لورانس أوليفانت أن يوسط السفير الأميركي في الآستانة للسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين غير أن مساعيه فشلت لدى السلطان والأوساط العثمانية، وكان جواب السلطان عبد الحميد أنّ اليهود يستطيعون العيش في أي مكان من السلطنة باستثناء فلسطين. وأن بلاده ترحب بالمضطهدين ولكنها لا ترحب بإقامة مملكة لليهود في فلسطين يكون أساسها الدين. وعلى المهاجرين اليهود إلى الأراضي العثمانية أن يصبحوا عثمانيين وأن يقبلوا تطبيق القوانين المعمول بها في الامبراطورية.

ولهذا حرص السلطان عبد الحميد الثاني على تعيين متصرفين في فلسطين ممن يستطيعون منع الهجرة اليهودية إلى مدنها منهم متصرف القدس

رؤوف باشا، وعندما تيقنت السلطنة العثمانية أن بعض الدول الأجنبية تساعد على تسريب اليهود إلى فلسطين أصدر الباب العالي قراراً في ١٨٩٢/٦/٢٩ تضمن ضرورة منع اليهود الذين يحملون جنسيات أجنبية من الدخول إلى فلسطين. وتكرّرت هذه القرارات وأبلغت إلى القنصليات الأجنبية مع استياء الدولة العثمانية من ممارساتها في دعمها الهجرة اليهودية.

وأشارت الخارجية البريطانية إلى موقف الدولة العثمانية الصارم ضد الهجرة اليهودية في تقارير ديكسون، القنصل البريطاني في القدس حينما أشار في تقرير بتاريخ ١٤ شباط (فبراير) ١٨٩٢ إلى أن التعليمات الصادرة من الباب العالي تفيد بأن الهجرة اليهودية بقصد الاستقرار في فلسطين غير مسموح بها. أما الذين يرغبون في زيارة البلاد كحجاج يسمح لهم في الإقامة لمدة تتراوح بين شهر أو شهرين وينبغي عليهم مغادرة البلاد بعدها.

لقد حاول الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل أن يحقق الحصول على الإذن، ووسّط لهذه الغاية البابوية وإنكلترا والنمسا وألمانيا والقوى الأميركية، وبعض الأوساط التركية. ولما تأكد له فشل مساعيه رأى ضرورة القضاء على الدولة العثمانية أو تقسيمها، ومما قاله: «إن القضاء على الدولة العثمانية أو تقسيمها هو الحل الوحيد لقيام الدولة اليهودية. إنه إذا تم تقسيم تركيا في المستقبل القريب فسوف تقف الدولة الصهيونية التي تقام في فلسطين حاجزاً، أما إذا قبل السلطان بالمطالب والعروض اليهودية فهذا ما يبدل سياسة الصهيونية نحوه، فنحن نستطيع أن نسند السلطان سنداً قوياً بالمال إذا هو تخلى لنا عن قطعة أرض لا قيمة كبيرة لها عنده».

وأهم تعبير عن موقف السلطان عبد الحميد الثاني من المطالب الصهيونية ما دوّنه هرتزل في يومياته ومذكراته بعدما صُدم من الموقف العثماني. لقد دوّن موقف السلطان حينما رد على الوسطاء بما يلي: «لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي. لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية بإراقة الدم، وقد غذوها في ما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا... لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها. ليحتفظ اليهود بملياراتهم، فإذا قسمت

الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين، من دون مقابل». . .

لقد استمر هرتزل حتى وفاته عام ١٩٠٤ يحاول الحصول على إذن رسمي بالهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد فشل في مساعيه جميعها، مما دعاه للتفكير قبل وفاته بضرورة إزاحة السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش حتى يتحقق الحلم الصهيوني. وبالفعل فإن قادة الحركة الصهيونية رأوا ضرورة الارتباط مع القوى الدولية الهادفة إلى السيطرة على الدولة العثمانية وتقسيمها، ومن ثم التعاون مع القوى التركية المعارضة للسلطان الممثلة بجماعة «تركيا الفتاة» وجناحها «الاتحاد والترقي»، وهي الجمعية الطورانية المتعصبة ضد العرب والعاملة ضد كل ما هو عربي.

لهذا كله تجمعت القوى الصهيونية والماسونية وبدأت اجتماعاتها المكثفة في سالونيك للتخطيط لخلع السلطان عن العرش بعدما تعذّر تحقيق الحلم الصهيوني وهو لا يزال على العرش.

لقد أشارت الوثائق البريطانية والتركية الحقيقة الظاهرة في تكوين جمعية «الاتحاد والترقي» أنها غير تركية وغير إسلامية. فمنذ إنشائها لم يظهر بين قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركي خالص: فأنور باشا هو بولندي، وكان جاويد من يهود الدنمة، وقارصوه من يهود إسبانيا، وطلعت باشا بلغارياً من أصل غجري اعتنق الإسلام ظاهراً، أما أحمد رضا فقد كان نصفه تركياً والنصف الآخر مجرياً، كما أن نسيم روسو ونسيم مازلياج كانا من اليهود ومن العناصر الفاعلة في حركة «تركيا الفتاة» التي أعدت الثورة ضد السلطان عبد الحميد الثاني. ولقد نجحت هذه القوى مجتمعة في ثورة عام ١٩٠٨ في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش، ودفع ثمناً غالياً نتيجة مواقفه من فلسطين ومن العرب.

وعقد المؤتمر الصهيوني الثاني في مدينة بال السويسرية عام ١٨٩٨ لكنّه ركز على مسائل مالية وأنشأ صندوق الاستيطان اليهودي. وأثناء الإعداد للمؤتمر الصهيوني الثالث حاول أحد الزعماء اليهود الصهاينة ويدعى تريتش، الترويج لفكرة إقامة مستعمرات في منطقة مجاورة لفلسطين بعد المصاعب التي واجهت هذه الأخيرة. واقترح قبرص أو منطقة العريش. وناقش الفكرة

مع هرتزل وبعض الزعماء الآخرين ولقي منهم روحاً مشجعةً لكنه لم يمنح الفرصة لعرض آرائه على المؤتمر الثالث. وأسفرت الجهود عن تشكيل لجنة من يهود ألمان بينهم «واربرتج» الذي زار قبرص عام ١٨٩٩. وطرح هرتزل في المؤتمر الصهيوني الرابع الذي عقد في لندن مسألة استعمال جزيرة قبرس، وكان نصحه بذلك عزت باشا أثناء زيارته للقسطنطينية عام ١٨٩٧، وفي الوقت نفسه، توجهت أنظار بعض الصهاينة إلى إقامة مستعمرات في العالم الجديد: كندا، والأرجنتين وأستراليا.

وسنة ١٩٠٢ اعترض النواب العرب داخل البرلمان العثماني على طلب اليهود امتلاك مساحات من الأراضي في حرج ابن عامر.

وعاد هرتزل وباحث وزير المستعمرات البريطاني، في أمر إقامة مستوطنات صهيونية في قبرص والعريش وسيناء، لكن الوزير أشار إلى معارضة القبارصة لهكذا مشروع.

وفي ١٩٠٢، قابل هرتزل المستشار القانوني للحكومة المصرية بهدف الإعداد للتعاقد على استعمار سيناء والعريش لمدة ٩٩ سنة. لكن المشروع لم يبصر النور لأسباب فنية. ولم تنهر آمال هرتزل، بعد فشل مشروع العريش ولاح أمامه أفق حل جديد حين عرض عليه مستر تشبرلن بعد زيارته لبعض المستعمرات البريطانية في شرقي افريقيا أن يمنحه أرضاً في مستعمرة أوغندا، مبيناً له صلاحيتها للزراعة، ومبدياً استعداده للمساعدة في تكوين ولاية يهودية مستقلة هناك يحكمها حاكم صهيوني.

وفي هذه الأجواء، عقد المؤتمر السادس الصهيوني سنة ١٩٠٣ في بال، وكان ذا أهمية كبرى وركّز فيه كلّ من هرتزل ونوردو، على العرض البريطاني القاضي بإعطاء أوغندا كوطن قومي، وطرح الموضوع على التصويت فنال ٢٩٥ صوتاً مقابل معارضة ١٧٥ وامتناع ١٠٠ مندوب عن التصويب. وكان يهود روسيا أكثر المعارضين وعلى رأسهم حاييم وايزمن الذي أصبح في ما بعد أول رئيس للدولة. وصرف النظر عن الموضوع نهائياً بعد وفاة هرتزل.

عام ١٩٠٥، ركزت الأنظار مجدداً على فلسطين دون سواها، ولكنّ تم تأجيل أي عمل هناك حتى الحصول على ضمانات سياسية وقانونية، وظهر في أوساط الحركة الصهيونية محور يدعو إلى النشاط العملي إلى جانب النشاط الدبلوماسي، لتحقيق الاستيطان. وطالب رئيس المنظمة الجديد حاييم وايزمن بدمج الصهيونية السياسية والعمل الاستيطاني والقيام بالعمل الدبلوماسي والسياسي في الوقت ذاته، من أجل الحصول على شرعية داخل فلسطين، لأن البراءة الدولية في حال أمكن الحصول عليها، لن تعدو أن تكون دون قيمة، إذا لم يكن الصهانية قد نجحوا مسبقاً في تحقيق انجازات عملية تثبت وجودهم في أرض فلسطين. وقال وايزمن سنة ١٩٠٧ في هولندا: «لو أننا نجحنا في الحصول على ميثاق كذلك الذي سعى هرتزل من أجله، فإنّه سيظل عديم القيمة ما لم يرتكز على تراب فلسطين ويستند إلى يهود استوطنوها».

وانطلاقاً من ذلك، شكلت إدارة خاصة ضمن الهيئة التنفيذية للمنظمة، وخصص لها مبلغ ٢٥ بالمئة من الإيرادات المالية، وبادرت إلى إنشاء فرع لها في ميناء حيفا برئاسة آرثر روبين الذي كان متخصصاً في الشؤون الاقتصادية. وبوشر سنة ١٩٠٩ بتأسيس تل أبيب، وأقيمت أول مستعمرة زراعية في دغانية. لكن الحكومة العثمانية كانت لا تزال تعرقل أعمال الصهاينة، ولم تفد في شيء مسألة وصول الاتحاديين إلى السلطة لأن رجال الاتحاد والترقي ساروا على خطى عبد الحميد واعتبر الصدر الأعظم حقي باشا أن رغبة اليهود بالعودة إلى فلسطين لاستعمارها لا تعدو أن تكون مجرد وهم.

خلال سنة ١٩١٣، عقد المؤتمر الصهيوني الحادي عشر في ڤيينا، وعُرض فيه تقرير رئيس مكتب فلسطين عن النشاطات الاستيطانية. وسجل هجرة حوالي ٤٠٠٠٠ يهودي روسي بين ١٩٠٣ و١٩١٤ رغم التدابير التركية بمنع دخولهم وإقامتهم. وقبيل الحرب الأولى بلغ عدد اليهود في فلسطين ٨٥ ألفاً من أصل مجموع السكان البالغ ٦٥٠ ألف نسمة.

وخلال الحرب العالمية الأولى ظهر اتجاه صهيوني مثّله صهاينة ألمانيا، للعمل مع الدول الوسطى كون فلسطين تابعة للسلطنة العثمانية وآخر بقي يدعو إلى الالتزام بسياسية الدول الحليفة. أما الاتجاه الثالث فآثر أصحابه العمل بعيداً عن المحورين. هنا ستندلع الحرب العالمية الأولى والتي ستخرج موازين واتفاقيات سرية ستظهر إلى العلن كلما انقشعت غبار الحرب وخمدت نارها. لكن تلك الاتفاقيات والمراسلات والوعود لم تأخذ ميزان الحق ولا أصحاب الحق بالاعتبار.

الفصل الثاني عشر

فلسطين خلال الحرب العالمية الاولى

في ٢/٨/١٩١٤ وقعت تركيا سراً معاهدة تحالف مع ألمانيا، لكنها لم تعلن الحرب إلا بعد ثلاثة أشهر في ٣١/١٠/١٩١٤.

في المقابل، كانت بريطانيا تبذل جهوداً سياسية كبيرة لإبقاء الدولة العثمانية بعيدة عن الحرب وعلى الحياد خشية أمرين:

الأول: فتح جبهة تركية ـ ألمانية تستهدف قناة السويس، وتهدد الطريق الرئيسي بين بريطانيا ومستعمراتها في أفريقيا الشرقية وآسيا وأوستراليا.

الثاني: إعلان السلطان الجهاد المقدس بصفته خليفة المسلمين مما سيكون له الأثر السيىء على الجيوش ذات العناصر الإسلامية التابعة لبريطانيا.

ولتلافي الخطر الأول خططت بريطانيا وفتحت جبهة عسكرية في فلسطين عام ١٩١٧. أما لدرء الخطر الثاني فقد ولدت لدى خبرائها السياسيين فكرة دفع الشريف حسين بن علي حاكم الحجاز إلى الواجهة وقطع الوعود له بتوحيد العرب، وتتويجه خليفة عليهم كونه حامي مقدساتهم.

وقبل دخول تركيا الحرب كانت فكرة سلخ الشريف عنها قد أثيرت من قبل رونالد ستورز مساعد المندوب السامي البريطاني في القاهرة، في كتاب شخصي إلى وزير الحربية آنذاك، لورد كيتشنر، وجّه على أثره هذا الأخير أكثر من كتاب وأكثر من رسول إلى الشريف عبدالله بن الحسين لدفع العائلة الهاشمية إلى التمرد على اسطنبول.

وفي اليوم ذاته الذي أعلنت فيه تركيا الحرب أبرق لورد كيتشنر إلى الشريف عبدالله بن الحسين قائلاً: «إذا ساعدت الأمة العربية انكلترا في هذه

الحرب، فسوف تقف هذه الأخيرة إلى جانب العرب لتصد أي عدوان يتعرضون له».

والجدير بالملاحظة أن بريطانيا أخذت تتبع سياسية مثلثة الأطراف متعارضة الجوانب والأهداف. ففي الوقت الذي كانت تفاوض شريف مكة لاستمالته إليها، وتعده بمملكة مترامية الأطراف، كانت أيضاً تفاوض فرنسا لاقتسام سوريا الطبيعية ذاتها (معاهدة سايكس ـ بيكو)، وتفاوض الصهاينة لإعطائهم وطناً قومياً في فلسطين، ومن هذه السياسة الخبيثة كانت تبغي الوصول إلى هدفين:

١ ـ الانتصار في الحرب بكسب حلفاء لها، (الشريف حسين، ويهود العالم).

٢ ـ تأمين مصالح مستعمراتها والطرق المؤيدة إليها وضم مستعمرات جديدة (فلسطين والعراق).

هل كانت بريطانيا تهيىء لإقامة وطن لليهود؟ حقيقة الأمر أنّ سياسيي بريطانيا اختاروا التعابير المبهمة وتعمدوا عدم الدخول في التفاصيل كما تعمدوا إهمال ذكر مناطق معينة كولاية لبنان، وسنجق القدس، كي تبقى لهم في المستقبل حرية التصرف حيال حلفائهم الفرنسيين من جهة والصهاينة من الجهة الأخرى.

وفي مذكراته يقول الصهيوني هربرت صموئيل الذي لعب دوراً مهماً في إعداد وعد بلفور ومن ثم أصبح أول مفوض سام في فلسطين: «إهمال فلسطين من بين الأقطار التي وعدت بريطانيا بها حسين يعني أنها أي فلسطين لم تدخل في عداد هذه الأقطار».

وفي رسالة إلى صحيفة «تايمس» اللندنية بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٣٧ ورداً على الاستفسارات التي طلبت منه حول هذا الموضوع الشائك كتب ماكماهون بنفسه التوضيح التالي:

«أرى من واجبي أن أعلن بدقة وأشدد على كلامي بأنه لم يكن في نيّتي أن أضم فلسطين إلى الأقطار التي وعد بها الملك حسين بن علي، وأنا

على ثقة بأن الملك حسين كان مقتنعاً في حينه بأن فلسطين لم تدخل في الاتفاق بيني وبينه».

في السياق نفسه يقول الكولونيل لورانس الشهير في تقرير له بتاريخ ٤/١١/١٩١٨ : «بدأت المفاوضات بين الشريف حسين والسير هنري ماكماهون، الذي فوضته حكومته لعقد اتفاقية تدخل الشريف في القضية. لسوء الحظ لم يكن السير هنري على علم باتفاقية سايكس ـ بيكو التي كانت آنذاك قيد الطبع، ولم يخطر في بال الشريف أننا لم نكن بحاجة إليه إلا للعب دور مسرحي».

وكأن لورانس فوّض ليميط اللثام عن الأشياء التي لم يعترف بها مكماهون فقال الكلام المباح في محاولة لرفع المسؤولية عن السير هنري ووضعها على فاعل مجهول بصيغة (النحن) فهل «نحن» هنا عائدة إلى دائرة الاستخبارات البريطانية التي كان لورانس أحد أعضائها؟؟؟

المهم أن الشريف حسين أطلق رصاصته الأولى كإعلان للثورة العربية الكبرى على الدولة العثمانية في ١٩١٦/٦/١٠ وذلك قبل بضعة أيام من توقيع اتفاقية سايكس ـ بيكو التي كان يجهلها والتي كانت تتناقض مع الوعود التي قطعتها بريطانيا له بواسطة السير هنري مكماهون.

الفصل الثالث عشر

الاتفاقيات السرية والوعود

معاهدة سايكس ـ بيكو

في ٢١/١٠/١٩١٥ بدأت المفاوضات السرية بين بريطانيا وفرنسا، حول مستقبل المشرق العربي. تولى المفاوضات عن الجانب الفرنسي قنصل فرنسا العام في بيروت جورج بيكو، بينما تولاها عن بريطانيا السيد ارثير نيكلسون في البداية ثم مارك سايكس. وكان كل من بيكو وسايكس خبيراً بشؤون المنطقة.

استمرت الاجتماعات حتى أيار (مايو) ١٩١٦ حيث تم الاتفاق على الصيغة النهائية للمعاهدة وكُلف الرجلان بالحصول على موافقة الحكومة الروسية فارسلا لهذه الغاية مذكرة إلى وزير الخارجية الروسي زازانوف الذي بعث بدوره للسفير الفرنسي في روسيا قائمة بالمطالب الروسية للموافقة على اتفاقية سايكس ـ بيكو. وأبلغ زازانوف بموافقة الحكومتين البريطانية والفرنسية على المطالب الروسية. وبالمقابل أعطت روسيا موافقتها.

أما أبرز ما تضمنته اتفاقية سايكس بيكو فهو التالي:

١ ـ تعترف كل من فرنسا وبريطانيا بإقامة دولة عربية مستقلة أو اتحاد دول عربية في المناطق «أ» و «ب» المحددة على خريطة مرفقة تحت سيادة حاكم عربي.

وتعطى فرنسا داخل المنطقة «أ» حقوق الأولوية بالنسبة للأعمال والمصالح الداخلية أما بريطانيا فتحصل على نفس الحقوق داخل المنطقة «ب». وتتولى الدولتان تزويد الدولة العربية الناشئة أو اتحاد الدول العربية بالمستشارين والخبراء عند الطلب.

٢ ـ على فرنسا وبريطانيا إقامة إدارة لهذه المناطق فرنسا داخل المنطقة

الحمراء وبريطانيا في المنطقة الزرقاء. ويمكن لهذه الإدارة أن تكون مباشرة أو غير مباشرة على أن يكون لهما رقابة على ذلك.

٣ ـ في المنطقة البنية اللون على الخارطة أي فلسطين سوف تنشأ إدارة دولية بعد التحادث مع روسيا والحلفاء الآخرين. ويستثنى من هذا التدبير مرفأ عكا وحيفا اللذان سيخضعان للنفوذ البريطاني.

حددت منطقة النفوذ الفرنسية من لواء الاسكندرون شمالاً وحتى عكا جنوباً في فلسطين، بالإضافة إلى جبل لبنان وجبال العلويين.

٢ ـ منطقة النفوذ البريطانية تشمل بلاد ما بين النهرين، باستثناء الموصل. ومقابل ذلك أعطيت وعود لروسيا للاعتراف بمصالحها في الامبراطورية العثمانية بحيث أنهما يعترفان بضمها أرض روم ومناطق فان وبيتليس وشواطىء البحر الأسود وبعض الكردستان الواقع جنوبي فان وجزيرة بن عمر.

على أثر الثورة البولشفية في روسيا في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ قام هؤلاء بنشر بعض الاتفاقيات السرية التي كانت روسيا القيصرية طرفاً فيها. ومنها اتفاقية سايكس ـ بيكو، بحيث تولى تروتسكي المفوض السوڤياتي للشؤون الخارجية نشر بنود المعاهد. واستطاعت الصحف البريطانية الحصول على نسخة من المعاهدة فنشرتها «الغارديان» بتاريخ ١٢/١٢/١٩١٧.

أدى ذلك إلى أزمة في العلاقات بين الحلفاء والعرب وخاصة بين الشريف حسين وبريطانيا. وأرسل جمال باشا حاكم سوريا وفلسطين مبعوثاً خاصاً إلى الشريف فيصل بن الحسين مع نسخة من المعاهدة طالباً إليه الاتفاق معه وإعلان الثورة على الحلفاء الذين خدعوه وباعوا قضية العرب. لكن تدخل لورانس وحنكته السياسية وحداقته مع فيصل جعلا هذا الأخير غير متحمس للعرض العثماني. وبالإضافة إلى كونها جاءت متناقضة مع الوعود المقطوعة للعرب جاءت المعاهدة أيضاً متناقضة مع الوعد الذي قطعه بلفور باسم حكومته لليهود. ففلسطين تحت إشراف دولي، كما ورد في

معاهدة سايكس ـ بيكو، لا تتطابق مع الوعد بأن تكون وطناً قوميّاً للصهاينة.

وعد بلفور

قد يكون الحدث الأسوأ الذي حصل خلال الحرب العالمية الأولى وترتبت عليه نتائج سياسية وعسكرية بالغة الخطورة هو وعد اللورد بلفور الذي قضى بإعطاء الصهاينة وطناً قومياً في فلسطين. لأنه لا باسم المواثيق الدولية، ولا الأعراف السائدة، يمكن لأية جهة دولية ومهما تسترت خلف الغلالات الرقية أن تشرّد شعباً من أرضه لتعيد إليها شعباً آخر.

إن السياسة التي اتبعت في حسم هذه المسألة بالذات لا يمكن لها أن تأتي إلا بشرور متلاحقة، لا يستطيع الزمن أن يلغيها أو يخفف منها، ولا تستطيع السياسات المفروضة بالأمر الواقع، أن تغير الوقائع التاريخية والطبيعية والإنسانية.

في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ أرسل اللورد بلفور وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية رسالة إلى البارون ليونيل روتشيلد الصهيوني. وعرفت الرسالة باسم «وعد بلفور». وقرأت سطورها في الثاني من كانون الأول (ديسمبر) من السنة نفسها في دار أوبرا لندن. وتشكل هذه الرسالة الوثيقة الرسمية الأولى، التي تعترف فيها بريطانيا بالحرص على إقامة وطن قومي لليهود خلال مؤتمر السلام.

وفي أول شباط (فبراير) ١٩١٨ جاء سوكولوف وهو أحد البارزين في الحركة الصهيونية إلى باريس، بهدف الحصول من الحكومة الفرنسية على وعدٍ مماثل لذلك الذي أعطته حكومة بريطانيا على لسان بلفور. لكن الحكم الفرنسي أبدى تحفظات على هذا الموضوع، لأن الأغلبية اليهودية داخل فرنسا لم تكن متحمسة له وأبدت معارضتها عليه.

لكن فرنسا، وخوفاً من أن تحصل بريطانيا على موقع أفضل داخل فلسطين بسبب تشجيعها لليهود أعطت على لسان وزير خارجيتها أسطفان بيستون نوعاً من الرد الدبلوماسي الواعد بدرس الموضوع مع الحلفاء الإنكليز.

ومنذ وفاة هرتزل سنة ١٩٠٤ وحتى بداية الحرب الكبرى الأولى، بقيت الحركة الصهيونية تراوح مكانها بسبب عدم حدوث أي تغيير سياسي في فلسطين. وتعاقب على رأس المنظمة الصهيونية بعد هرتزل كل من دافيد وولفسون والبروفسور أوتو واربورغ الأستاذ في جامعة برلين. وانتقل مركز المنظمة من ڤيينا إلى كولونيا، ثم إلى برلين.

ومع بداية الحرب الأولى انتقل النشاط من القارة الأوروبية إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وجديرٌ بالذكر أن هرتزل ومعاونيه الأول علقوا أهمية بالغة على الموقف البريطاني، وعقدوا لأجل هذه الغاية مؤتمرهم الرابع في العاصمة لندن وذلك بهدف كسب عطف الرأي العام الإنكليزي على مشروع البحث عن وطن.

وتكونت في مدينة مانشستر مجموعة صهيونية لدعم بني قومها، روّج لها سكوت وهو رئيس تحرير صحيفة «المانشستر غارديان».

وسنة ١٩٠٥ التحق بالمجموعة أحد اليهود الروس المتحمسين للصهيونية هو البروفسور حاييم وايزمن الذي أخذ منذ ١٨٩٧ يشترك مع والده في مؤتمرات الحركة كمندوبين عن اليهود الروس. لم يشاطر وايزمن كما ذكرنا هرتزل آراءه بالنسبة لموضوع أوغندا ولم تربطه بالدكتور نورد أية مودة.

إلتقى وايزمن بلفور لأول مرة سنة ١٩٠٦ واستطاع إقناعه بعدم صوابية الفكرة القائلة بوضع اليهود داخل أوغندا. وكان بلفور في حينه رئيساً للوزراء بين ١٩٠٢ و ١٩٠٦ عند تقديم وزير المستعمرات اقتراحه بهذا المعنى.

وأتت الحرب التي حققت أمنية وايزمن ودفعته إلى الواجهة، ففي سنة ١٩١٥ وبواسطة الصحافي سكوت حصل لقاء بين وايزمن ولويد جورج وزير المالية البريطاني آنذاك ورئيس لجنة الذخيرة الحربية. وكانت المصانع البريطانية تجد صعوبة في تحضير مادة الاستون المهمة لتصنيع الذخائر. وتصادف ذلك مع اكتشاف وايزمن وسيلة جديدة لإنتاج المادة المذكورة وحظي بشكر الحكومة البريطانية وصداقة لويد جورج الذي أصبح رئيساً للوزراء قبل نهاية الحرب. وكانت لوايزمن صداقات أخرى مع الشخصيات

البريطانية، أمثال هربرت صموئيل (يهودي الأصل) ولورد ارثور وجيمس بلفور ومارك سايكس ولورد ميلز وغيرهم. فاستخدم هذه الروابط لخدمة مشروعه من وراء وعد بلفور.

لا يمكن بأي حال من الأحوال، حصر المسألة باللورد أرثور بلفور الذي حمل الوعد اسمه. لأن العديد من رجال السياسة البريطانيين عملوا لسنوات طويلة في السر أو العلن لإيصال القضية إلى النتائج المتوخاة.

أول هؤلاء كان السير هربرت صموئيل (١٨٧٠ ـ ١٩٦٣) وزير الداخلية في حكومة أشكويت وأول يهودي غير متنصر يصل إلى مركز وزاري في انكلترا.

يقول هربرت صموئيل في مذكراته: «لغاية ١٩١٤ لم أكن مهتماً بالحركة الصهيونية لكن دخول تركيا في الحرب ضد الحلفاء غيّر المفاهيم السياسية، فمستقبل فلسطين كان له أهمية خاصة بالنسبة لبريطانيا ولمصالحها الاستراتيجية في الشرق الأوسط. وطرح السؤال، من سيخلف الاتراك في المناطق المحاذية لقناة السويس؟

«أهمية الجواب على هذا السؤال تضاعفت بالنسبة لي كوزير بريطاني أولاً وكأول يهودي يتسلم مثل هذه الوظيفة ثانياً.

«في ١٩١٤/١١/٩ طرح لأول مرة موضوع مستقبل فلسطين، على وزير الخارجية لورد ادوارد غراي وقلت له أنه لربما كانت المناسبة سانحة لتحقيق أماني الشعب اليهودي بإعادة إنشاء دولة لهم.

«أجابني غراي أن الفكرة كانت دائماً تستحوذ على قسط كبير من شعوره وهو يميل شخصياً للموافقة فيما لو بحث الأمر جدياً.

«وفي اليوم ذاته وفي جلسة مجلس الوزراء طرحت الموضوع نفسه على لويد جورج وزير المالية آنذاك فتكلم عن مستقبل فلسطين، وتمنى أن تنشأ دولة يهودية هناك».

وهكذا كانت القضية مطروحة على أعلى المستويات السياسية، منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤. وفي كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ تقدم هربرت

صموئيل بمذكرة خطية تحت عنوان «مستقبل فلسطين» إلى رئيس الوزراء سكوت تحدث فيها عن مخططات الصهاينة بالنسبة لفلسطين. لم يذكر في الوثيقة اسم «دولة يهودية» بل جاء الكلام عن «مركز ثقافي يهودي»، يوضع تحت الحماية البريطانية.

لكن سكوت لم يبدِ أية حماسة للفكرة، فيما استمر الوزير في حديثه عن الموضوع مع زميليه وزيري الخارجية والمالية.

بتاريخ ١٠/١٢/١٩١٤ تم اللقاء الأول بين صموئيل ووايزمن وكان وسيط اللقاء سكوت نفسه، وكتب صموئيل مذكرته الثانية وقد طرحها للنقاش في مجلس الوزراء مضمناً إياها النقاط التالية:

في حال انهيار الأمبراطورية العثمانية ما عساه يكون مستقبل فلسطين؟

١ ـ حماية فرنسا لفلسطين هي من الحلول المطروحة في أكثر المناسبات، لكن هذا ينطوي على خطر بالنسبة لطرق المستعمرات البريطانية في حال تدهور العلاقات بين باريس ولندن.

٢ ـ الاحتمال الثاني هو إبقاء البلاد تحت السيطرة التركية، ولكن لماذا يتم تحرير بقية الأقطار وتبقى فلسطين خاضعة لنير الاستعباد العثماني؟

٣ ـ التدويل؟ عملياً الأمر غير ممكن لأن في مثل هذه الحال ستعمل كل دولة لفرض سيطرتها. ولألمانيا مصالح لا يمكن إنكارها في فلسطين وقد تبرر هذه المصالح هيمنة النفوذ الألماني.

٤ ـ الاحتمال الرابع هو إنشاء دولة يهودية، لكن التفاوت في نسبة السكان العرب واليهود قد يشكل خطراً على الأمن والاستقرار والمستقبل كفيل بتحقيق هذا الحلم.

٥ ـ الحماية البريطانية، في حال تحقيقها ستمنح اليهود تسهيلات للاستيطان وشراء الأراضي، وعلى المدى الطويل سيكونون الأكثرية العددية.

والحل الأخير هذا سيضمن لبريطانيا الرأي العام اليهودي وبنوع خاص تأييد المليوني يهودي الموجودين في الولايات المتحدة. لكن المذكرة الثانية

هذه لم تغير رأي رئيس الوزراء سكوت الفاتر تجاه الموضوع وأبقته على تحفظه فيما ظل لويد جورج مؤيداً.

جمدت القضية طوال سنة ١٩١٥ بسبب ظروف الحرب. وفي بداية ١٩١٦ اطلع السير مارك سايكس على مذكرة هربرت صموئيل، وكان يهم بالسفر إلى سان بطرس بورغ للتباحث مع وزير الخارجية الروسي حول معاهدة سايكس ـ بيكو والدور المنتظر أن تلعبه روسيا حيال فكرة اقتسام الدولة العثمانية. ووجد سايكس في المذكرة خشبة خلاص يستعين بها لنقض معاهدته مع نظيره الفرنسي جورج بيكو، تلك الاتفاقية التي لم يكن هو نفسه مقتنعاً بمضمونها وبالأخص ما يتعلق منها بوضع فلسطين تحت حماية دولية مشتركة.

وأصبح مارك سايكس صديقاً للزعماء الصهاينة ومؤيداً لدعوتهم في بناء وطن لهم في فلسطين. لأن مشروع إقامة مثل هذا الوطن ينطوي على إبعاد فرنسا عن الساحة الفلسطينية، ويؤمن حماية بريطانيا لمنطقة قناة السويس تحت ستار إنساني وهو تأمين ملجأ يأوي اليهود.

تحادث سايكس مع زازانوف حول الموضوع، فكان جواب هذا الأخير ان قضية الوطن اليهودي في فلسطين لا تحظى باهتمام حكومته لأن فلسطين ضيقة، ولا يمكنها أن تستوعب جميع الروس اليهود.

ومع بداية العام ١٩١٧ أصبح مستقبل فلسطين موضوعاً ملحاً.

لكن قبل ذلك بقليل في ١٩١٦/١١/١٥ اتفق الزعماء اليهود على تقديم مذكرة إلى الخارجية البريطانية يشرحون فيها أهداف حركتهم.

وبالفعل أنجزت المذكرة تحت عنوان: «الخطوط العريضة لبرنامج عودة اليهود إلى فلسطين كما تبغيه الحركة الصهيونية»، واتفق بناء على اقتراح أحد المسؤولين الكبار في الحركة ناصوم ساكولوف أن تستعمل دائماً كلمة «وطن قومي» بدل «دولة يهودية». وحدثت تطورات سياسية غير متوقعة كانت بمثابة الريح العاصفة في أشرعة الحركة، ففي ١٩١٦/١٢/١٥ قدمت حكومة سكوت استقالتها لتخلفها فوراً حكومة جديدة برئاسة لويد جورج. وعلى

العكس من سلفه فإن لويد جورج كان أحد مشجعي الصهاينة، ولتحقيق غايته أمر بفتح جبهة حربية في فلسطين أوائل سنة ١٩١٧. وفسر خطوته هذه في رسالة منه إلى لورد برتي سفيره في باريس قائلاً: «يتوجب على الفرنسيين أن يقبلوا حمايتنا لفلسطين، سنكون هناك بحق الاحتلال وسنبقى».

جاء إلى الوزارة الجديدة رجل له تاريخ حافل في دوائر السياسة الإنكليزية، وهو الذي سيعطي للوعد اسمه، ألا وهو لورد ارثور جيمس بلفور. منذ كان رئيساً للوزراء سنة ١٩٠٣ إطلع على المخطط الصهيوني، كما ذكرنا سابقاً فامتزجت عنده العاطفة نحو اليهود الصهاينة بمصالح الأمبراطورية البريطانية.

وبعد مرور خمس سنوات على الوعد برر بلفور موقفه بقوله أمام مجلس اللوردات: «أؤكد أن الخطوة السياسية التي أقدمنا عليها في فلسطين كانت ناجحة من الناحية المادية، لكننا لم ندّع ولا أنا ادعيتُ شخصياً من أن وعد تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ (يقصد وعد بلفور) منبثق فقط من الاعتبارات المادية.

«أنا أنظر إلى الوعد لا كحل كامل، بل كحل جزئي للقضية اليهودية القديمة والصعبة. . .»

وفي خطوة كانت الأولى من نوعها. عقد اجتماع مشترك لممثل عن الحكومة البريطانية هو مارك سايكس وهيربرت صموئيل وأعضاء آخرين من المنظمة الصهيونية بينهم والتر روتشيلد وجيمس روتشيلد وسكولوف ووايزمن. وشملت المباحثات نقاطاً عديدة أهمها:

١ - تشديد ممثلي الصهيونية على أن توضع فلسطين تحت الحماية البريطانية دون سواها.

٢ - تأييد برانديس رئيس فرع المنظمة الصهيونية في الولايات المتحدة واحد مستشاري الرئيس ولسون لمبدأ الحماية البريطانية، ومعارضته لمبدأ الحماية الدولية لفلسطين.

تكلم مارك سايكس دون أن يشير إلى معاهدة سايكس - بيكو السرية

آنذاك ولفت نظر المجتمعين إلى المصاعب التي قد تعترض سبلهم. وأوضح أن هذه الصعوبات قد لا تأتي من روسيا، لكن ربما من إيطاليا أو فرنسا. لذا يجب العمل على إقناع فرنسا بموضوع الحل الصهيوني المطروح.

وفي اليوم التالي، ٨/٢/١٩١٧، عقد اجتماع آخر في لندن ضم جورج بيكو ومارك سايكس وسوكولوف، ودار الحوار خاصة بين بيكو وسوكولوف الذي شدد على أماني الصهانية بأن يكون لهم وطن في فلسطين. وأوضح رداً على سؤال ممثل الحكومة الفرنسية بشأن الدولة التي يمكن أن تبسط حمايتها على فلسطين قائلاً: «مع تقديرنا لما قدمته فرنسا للإنسانية، نحن نفكر بحماية بريطانيا».

لم يقفل جورج بيكو باب الحوار رغم قناعته بأنه لا يمكن لفلسطين أن تقع إلا تحت الحماية والنفوذ الفرنسيين، وسأل محدثه عن مصير سكان فلسطين غير اليهود فأجاب بأن جميع القضايا بما فيها قضية الأماكن المقدسة ستجد حلاً لها ترضى به جميع الفئات.

وكُلف سوكولوف فيما بعد القيام بجولة في فرنسا وإيطاليا لإقناع حكامها بوجهة النظر الصهيونية؛ فسافر إلى باريس حيث عقد أول اجتماع له مع أمين الخارجية الفرنسية جول كامبون فلقي لديه عطفاً على المخطط الصهيوني لم يكن يتوقعه. وأكمل رحلته الدبلوماسية إلى روما حيث قابل المسؤولين الإيطاليين، وقداسة الحبر الأعظم ولقي لدى الطرفين التفهم نفسه.

وبعيد عودته إلى باريس قابل رئيس الوزراء آنذاك ألكسندر ريبو وتسلم بعد المقابلة رسالة موقعة من كامبون جاء فيها: «إن الحكومة الفرنسية التي خاضت الحرب الحالية للدفاع عن شعب معتدى عليه... لا يمكنها إلاً أن تنظر بعين العطف إلى قضيتكم المرهون نجاحها بنجاح الحلفاء».

وجاءت هذه البرقية بوحي من بيكو لاعتقاده أن إصدارها سيحمل المنظمة الصهيونية على التخلي عن موضوع الحماية البريطانية والاتجاه ناحية فرنسا، لكن ظنه خاب. وفور عودته إلى لندن، أطلع سوكولوف مسؤولي

الخارجية البريطانية على فحوى المذكرة الفرنسية فكتمتها خوفاً من استغلالها دعائياً في الأوساط اليهودية، كما كتم سرها أيضاً مرسلها كامبون حتى إلى ما بعد مؤتمر السلام بسنوات. ولولا هذا الكتمان، لكانت رسالة كامبون أهم من رسالة بلفور الشهيرة وعندما قام بيكو باطلاع الحكومة البريطانية على رسالة كامبون رسمياً في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٧ أبدى الوزراء دهشتهم، كما لو أنهم لم يكونوا على علم بها، وقرروا في الوقت ذاته أن يصدر عن الحكومة إعلان رسمي ينشر على الملأ ويطوي المذكرة الفرنسية في عالم النسيان وهي في المهد. . . وهكذا كان.

المعارضة اليهودية للمخطط الصهيوني

أحدث الإعلان عن وعد بلفور ردود فعل مختلفة ومتباينة، حتى داخل الأوساط اليهودية نفسها. فقد عارضه اليهود في شرق أوروبا وبرز أحد اليهود المستنيرين وهو البروفسور موريس جاسترو الذي نشر بياناً ضمنه مساوىء الطرح الصهيوني لإقامة وطن في فلسطين، ونظراً لأهمية النص البيان وجدنا أن نقتطف منه بعض الفقرات. يقول البروفسور جاسترو: «بحسب رأيي، فإن تأسيس دولة يهودية، انطلاقاً من القناعة القائلة بأن ذلك يشكل ضمانة لحياة وممارسة أفضل لليهود ينطوي على مخاطر كبيرة جمة بالنسبة لليهود أنفسهم، وكذلك بالنسبة للسلام الديني للعالم كله.

«ففي الدرجة الأولى، يناقض إعطاء الأراضي الفلسطينية لليهود كما يطلب برنامج الصهاينة أحد أهداف ومبادىء الحرب الحالية في إعادة الحق إلى أصحابه. فكيف نقتلع شعباً موجوداً في فلسطين لنضع مكانه الشعب اليهودي؟ وتحت أية شعارات يتم ذلك؟ وبموجب أية شرائع؟

«فلسطين لا تنتمي إلى اليهود ولا هم ينتمون إليها. فلسطين تعود فقط لأولئك الذين يعيشون فيها. أي الشعب الفلسطيني.

«حتى ولو ارتكزنا إلى معطيات تاريخية قديمة فلا يمكننا القول بأن العبرانيين، عندما أتوا إلى قسم من فلسطين لم يجدوا شعباً من العرب فيها. إننا لا نستطيع أن نزيل فترة ألفي سنة من التاريخ وندعي ملكية فلسطين

لمجرد أن أجدادنا وآباءَنا العبرانيين توطنوا في بعض هذه المناطق. وإذا نظرنا وأخذنا بالاعتبار أسباب الغزو والسيادة اليهودية في سالف الزمن فإنه يتوجب علينا كذلك أن نعرف أسباب وهن وضمور هذه السيادة والتي اقتلعت اليهود من فلسطين. ولو سلمنا جدلاً بالمطالب التي طرحها الصهاينة فإن السيادة اليهودية في سالف الزمن لم تشمل إلا قسماً من فلسطين يكاد يكون محصوراً في رقعة ضيقة من الأرض. بالإضافة إلى أن فلسطين تعتبر مكاناً مقدساً ليس بالنسبة لليهود وحدهم، وإنما كذلك بالنسبة للمسيحيين والمسلمين على السواء. ويجب ألاّ يغرب عن البال أن نسب السكان حالياً في فلسطين هي على الوجه التالي:

١ - اليهود يشكلون نسبة ١٠٪ فقط من من مجموع السكان العام.

٢ - المسيحيون نسبة ٣٠٪.

٣ - المسلمون نسبة ٦٠٪.

«فكيف ستعطى البلاد لأقلية صغيرة خارج حدود المعقول والمنطق؟ إني أعتقد بأن إعطاء تأكيدات وضمانات لليهود في أماكن توزعهم وتواجدهم في العالم هو الحل الأفضل وهو بالتأكيد أكثر أمناً وضماناً لهم من حكاية زرعهم وإعطائهم دولة ليست لهم».

في الوقت ذاته، اندلعت حرب كلامية بين اليهود المؤيدين لمشروع المنطقة الصهيونية بإقامة وطن قومي في فلسطين وأولئك الذين اندمجوا في مجتمعاتهم واعتبروا أنه ليس من مصلحتهم أن يثار لغط حول وطنيتهم.

ومن أبرز الذين رفضوا المخطط وعملوا لافشاله يهودي إنكليزي ووزير في حكومة لويد جورج هو السير إدوين مونتاغو. وفي مذكرة وزَّعها على أعضاء الحكومة حمل مونتاغو على الذين يسعون لانشاء وطن يهودي في فلسطين وقال إن اليهود هم مجموعة دينية وليسوا مجموعة قومية. وهو بالذات يهودي انكليزي، كما أن غيره يهودي فرنسي، أو روسي أو أميركي. لكن تأثيره بقي محدوداً خاصة وأن الوعد نشر أثناء وجوده خارج بريطانيا.

في حزيران (يونيو) ١٩١٧، تم لقاء عمل بين وايزمن ووالتر روتشيلد

ووزير الخارجية بلفور. وكانت الحكومة البريطانية تسعى لإيجاد مخرج تضمن فيه لليهود ما وعدتهم به، دون إثارة بقية الأطراف من حلفاء أوروبيين وعرب وغيرهم. فاتفق في اللقاء الثلاثي المذكور على أن يقترح اللورد روتشيلد على الحكومة البريطانية نصاً يكون بصورة كتاب غير رسمي موجه إلى اللورد بلفور، وهو يجيب عنه بعد موافقة الحكومة على صيغة الجواب. وقد أدخلت تعديلات كثيرة على النص الأصلي الذي أرسله روتشيلد إلى بلفور في ١٨/٧/١٩١٧.

والتعديل الأساسي الذي أدخله المعتدلون بقيادة سوكولوف تعمد عدم ذكر «دولة يهودية». والحكومة البريطانية كانت تميل لمثل هذا الاعتدال بينما المتطرفون بقيادة هاري ساتشر كانوا يحبذون ذكر الدولة اليهودية بشكل واضح وصريح، وفي النهاية وبعد جدل طويل رجحت كفة المعتدلين، وجاء النص النهائي على يد الوزير ميلنر بتاريخ ١٨/١٠/١٩١٧. واجتمعت الوزارة في جلسة ٣١/١٠/١٩١٧ ووافقت على النص فنشر بتاريخ ٢/١١/١٩١٧ مقتضباً مبهماً يحمل في ثناياه مشكلات تعجز الأجيال عن حلها: «عزيزي اللورد روتشيلد: يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك، أن حكومة جلالته تنظر بعين الرضى إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وتبذل الجهود في سبيل ذلك على أن لا يجري شيء يضر بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود في فلسطين أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسي في غيرها من البلدان الأخرى».

التوقيع: آرثر جيمس بلفور

يذكر أن الألمان اتصلوا بحلفائهم الأتراك لإقناع اليهود بالتخلي عن بريطانيا مقابل تأمين مصالحهم القومية في فلسطين لكن دون جدوى.

وخلاصة القول أن مصلحة بريطانيا تلاقت مع المصالح الصهيونية وقضت بإصدار وعد بلفور. والمثاليات التي جاءت على ألسنة كبار المسؤولين البريطانيين بعد الحرب كانت بمثابة تبرير وتبرئة ضمير.

لم يغب عن بال القيمين على الصهيونية أن أول مهمة تنتظرهم بعد

حصولهم على وعد بلفور، هي الاتفاق مع السكان العرب في فلسطين وجوارها. وانطلق الزعماء الصهاينة يكثفون اتصالاتهم الدولية لتنفيذ المخططات التي جاء الوعد بمثابة الضوء الأخضر لها.

في نيسان (أبريل) ١٩١٨ وصل وايزمن إلى فلسطين على رأس بعثة صهيونية لدرس الأوضاع على طبيعتها، وقابل الشريف بقوله أن أرض فلسطين تتسع لليهود والعرب معاً.

فلسطين في قبضة الإنكليز

إن النصر الذي أحرزه الجنرال اللنبي على الجيش العثماني في فلسطين بتاريخ ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩١٨ سيفتح أمام القوات الإنكليزية أبواب المنطقة وصولاً إلى القدس

وكانت الوحدات التركية تتراجع منهزمة ودون أية درجة من التنظيم. ولم يأتِ يوم ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) المنطقة كلها في يد اللنبي. وفي ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٨ ووفق تعليمات حكومته، عمد الجنرال اللنبي إلى تقسيم الأراضي التي حررها من الأتراك إلى ٣ أقسام سُميت «أراضي العدو المحتلة عسكرياً»، كما يلي:

١ ـ المنطقة الأولى سميت المنطقة الجنوبية وشملت بشكل رئيسي فلسطين، ووضعت تحت الإدارة البريطانية.

٢ ـ المنطقة الثانية، الشمالية (سميت المنطقة الغربية لاحقاً) وشملت بالإضافة إلى متصرفية جبل لبنان، سناجق بيروت وطرابلس واللاذقية وأقضية حاصبيا وراشيا وبعلبك، جسر الشاغور، انطاكية، حريم ببلان والإسكندرونة. ووضعت تحت الإدارة الفرنسية.

٣ ـ أخيراً المنطقة الشرقية وضمت دمشق، وحلب، وأعطيت للأمير فيصل بن الحسين الذي أدخل إليها إدارة عربية.

ولتهدئة المخاوف العربية، وقلق الرئيس ويلسون، عمد الإنكليز والفرنسيون إلى إصدار بيان أوضحوا فيه حسن النية تجاه المنطقة ومستقبلها

وشعوبها. ووعدوا بأن مؤتمر الصلح هو المرجعية الدولية التي ستقرر مستقبل المناطق التي كانت تحتلها تركيا وحررتها القوات الحليفة أو تلك التي ساعدت الحلفاء على التحرير.

في ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) وقعت تركيا على وثيقة استسلامها، وبعدها بأيام انتهت الحرب على الجبهات الغربية في ١١/١١/١٩١٨.

مؤتمر السلام

باشر مؤتمر السلام أعماله بتاريخ ١٨/١/١٩١٩ في العاصمة الفرنسية باريس وذهب الأمير فيصل ممثلاً لوالده الشريف حسين، ولسوريا وحضر أعمال المؤتمر تحت هذا العنوان، وقد حمل المطالب التالية:

١ ـ إنشاء دولة سورية.

٢ ـ أن يطبق عليها نظام الانتداب ولكن لم يورد في توصيته اسم الدولة التي يريد انتدابها.

٣ ـ عدم وضع عراقيل لدمج هذه الدولة المقترحة في اتحاد كونفدرالي.

استمرت أعمال المؤتمر أكثر من سنة ونصف وتحول خلالها إلى سجال سياسي بين بريطانيا وفرنسا حول كيفية التصرف بممتلكات الدولة العثمانية، وإلى صراع على النفوذ داخل هذه المناطق.

أما الرئيس الأميركي ويلسون فقد نشر مبادئه الأربعة عشر التي ضمنها حق الشعوب في تقرير مصيرها. وقد تمت الموافقة على اقتراح تقدم به الوفد الأميركي ويقضي بإرسال لجنة استكشاف لتقصي الحقائق على أن ترفع تقريرها إلى مجلس الحلفاء حول نظام الانتداب واختيار الدولة المنتدبة. أما بالنسبة للموضوع المتعلق بطرح الصهاينة إيجاد الوطن لهم فقد أثار وعد بلفور أسئلة ثلاثة هي:

١ ـ المعنى الدقيق لعبارة «وطن قومي».

٢ ـ ما هي حدود فلسطين.

٣ ـ سبل التعايش بين اليهود وغير اليهود في فلسطين.

وفي ٢٧ شباط (فبراير) ١٩١٩ استقبل «مجلس العشرة» المنبثق من مؤتمر السلام وفداً صهيونياً قدم مذكرة حول مطالب اليهود في فلسطين، وكان يضم خمسة أشخاص بينهم وايزمن وسوكولوف. ونصت المذكرة على التالي: «وحدود فلسطين ستكون كالآتي: شمالاً خط وهمي ينطلق من نقطة قرب مدينة صيدا ويتجه شرقاً إلى جسر القرعون، ثم ينحدر جنوباً عبر قمم حرمون، فيمر غربي درعا وعمان ويسير بمحاذاة الخط الحديدي الحجازي حتى يبلغ خليج العقبة، وجنوباً من العقبة إلى العريش على البحر المتوسط».

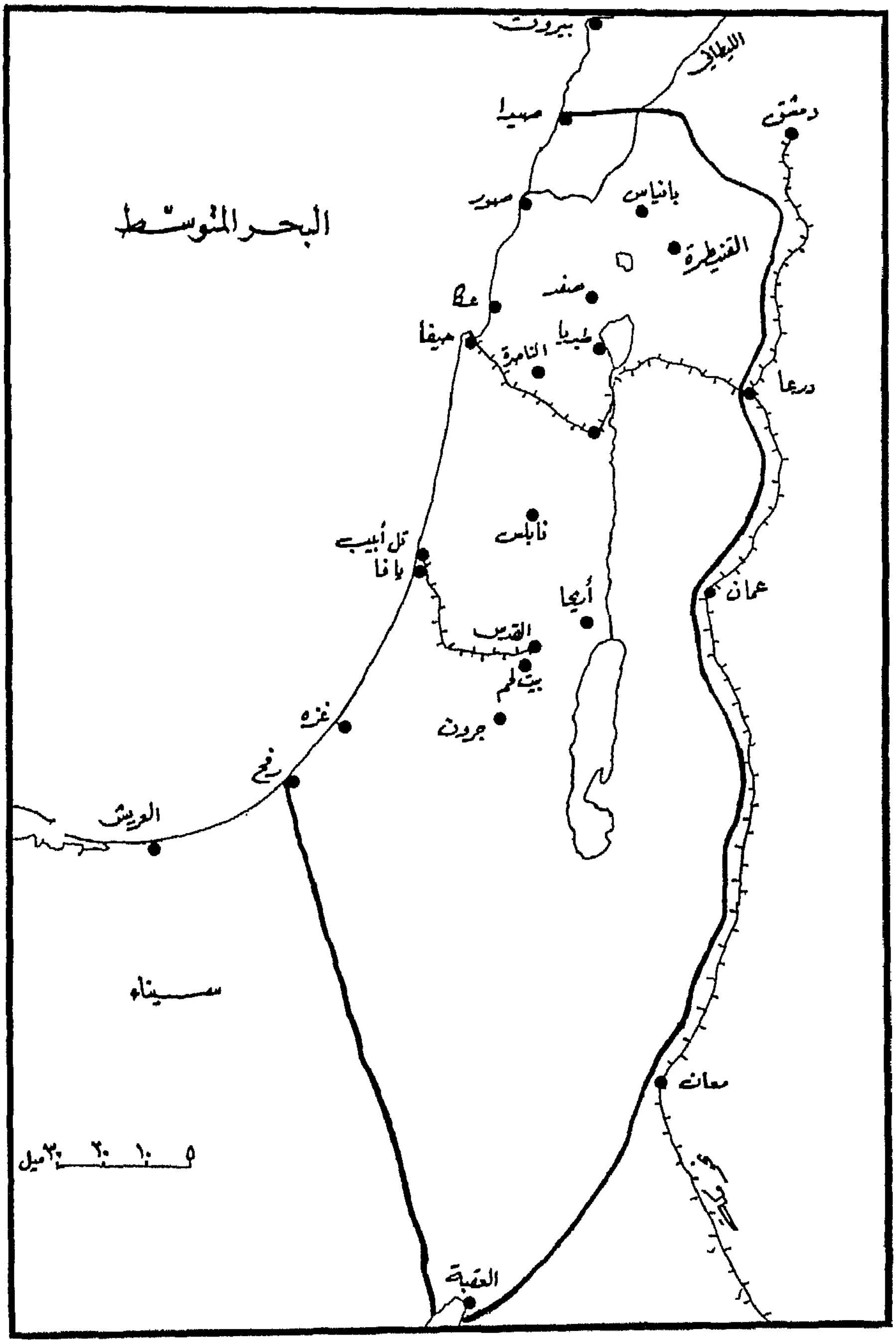
وتضيف المذكرة أن الحدود المشار إليها تعتبر حيوية بالنسبة لاقتصاد البلاد ويجب أن يكون لفلسطين منفذ على البحر، وأن تسيطر على الأنهر والينابيع العائدة لهذه الأنهر.

لكن فرنسا رفضت ما جاء في المذكرة عن الحدود وتمسكت باتفاقية سايكس ـ بيكو، التي كانت حددت فلسطين ببحيرة طبريا. وطالت المحادثات واتفق على خط جديد هو خط دوڤيل.

والجدير بالذكر هنا أن قضية الأنهر والينابيع محصورة كلها شمالي فلسطين وجنوب لبنان، وقد استأثرت بجهود اليهود في جميع أنحاء العالم وليس فقط بالذين كانوا في مؤتمر السلام. وقد وردت إلى إحدى جلساته بتاريخ ٢٧/ ٢/ ١٩٢٠ برقية من برانديس باسم المنظمة اليهودية في أميركا جاء فيها: «كي يؤمن الإنماء الاقتصادي في شمالي فلسطين يتوجب ضم نهر الليطاني والأنهر المتدفقة من جبل الشيخ وهضبة الجولان وحوران».

وكتب حاييم وايزمن رسالة إلى وزير الخارجية البريطانية، بتاريخ ٣٠/ ١٠/ ١٩٢٠ جاء فيها: «تدركون أهمية الليطاني الكبرى لفلسطين فلو تأمنت لها جميع مياه الأردن واليرموك، لن تفي بحاجاتها وإن صيف فلسطين حار جداً وتبخر المياه سريع وكثير.

«إنّ الليطاني هو المصدر الذي يمكنه أن يؤمن المياه لري الجليل الأعلى، فإذا حُرمت فلسطين من مياهه، ومياه الأردن واليرموك، لن يكون لها أي استقلال اقتصادي».



الخريطة التي اقترحتها المنظمة الصهيونية لدولة اسرائيل في شباط ١٩١٩.

وعملياً بقيت بريطانيا في فلسطين بعد احتلالها رغم النتائج التي عادت بها لجنة كنغ ـ كراين، والتي طالبت بأكثريتها بالاستقلال ضمن الدولة العربية وإذا كان لا بد من الانتداب فلتكن الولايات المتحدة هي الدولة المنتدبة. وهاجمت فرنسا العاصمة السورية بعد إقرار الانتداب عليها خلال مؤتمر سان ريمو، الذي أعلن انتداب بريطانيا على الأراضي المقدسة. وهكذا اسدل الستار على المطالب العربية.

وفي ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٢، أقرت جمعية الأمم النص المتعلق بالانتداب البريطاني على فلسطين، والقاضي بأن تبذل سلطة الانتداب قصارى جهدها لتحقيق وعد بلفور وذلك عن طريق تسهيل الهجرة أمام اليهود إلى الأراضي الفلسطينية. وأقر صك الإنتداب على فلسطين ضرورة اشتراك المنظمات الصهيونية في إيجاد الحلول الملائمة لاستعمار فلسطين وكان هذا الموضوع أسند أول الأمر للمنظمة اليهودية الصهيونية ثم بعد ١٩٢٩ تبنته الوكالة اليهودية. وأقر قانوناً للجنسية يتيح لليهود تسوية وضعهم القانوني لناحية الحصول على الجنسية الفلسطينية وجعلت الإنكليزية والعربية والعبرية لغات رسمية، وأعياد هذه الطوائف الثلاث اعتبرت أيام تعطيل. كما ضمن صك الانتداب الأماكن المقدسة وحرية زيارتها أمام جميع الطوائف.

أقامت تدابير الإنتداب على فلسطين نوعاً من التمييز العنصري بحق السكان غير اليهود، وأعلن قيام «وكالة يهودية» وهي المنظمة الصهيونية نفسها للتعاون مع إدارة الانتداب، ولتسهيل هجرة واستيعاب الوافدين إلى فلسطين. ولم يعلن عن شيء من هذا النوع لتمثيل السكان العرب، ولم تكن لهم حتى منظمة رسمية معترف بها في مجال الدفاع عن حقوقهم وتمثيلهم لدى سلطات الانتداب.

ورداً على هذا الإجحاف عقد العرب سلسلة مؤتمرات، ابتداء من العام ١٩١٩ أسفرت عن تأليف «لجنة تنفيذية عربية» تمثل الحركة القومية في فلسطين، وتنطق بلسانها. أدت هذه التطورات إلى انقسام كلي بين اليهود والعرب، إنْ في الحقوق أو في واقع الحياة.

وفي حقبة ما بين الحربين العالميتين، حدثت في فلسطين تغييرات

أساسية وعميقة، وغير قابلة للتراجع على الصعد السياسية، والاقتصادية والديموغرافية. فنسبة السكان التي كانت ٧ على ١ لمصلحة المواطنين العرب باتت لا تتعدى نسبة ٣ إلى واحد بعد عشرين عاماً. وكانت موجات هجرة اليهود المتأثرة بالسياسة البريطانية من جهة، وبسياسة الدول التي يغادرها المهاجرون من جهة أخرى، تسبب في فلسطين اصطدامات متصاعدة الخطورة، وهبّ العرب يطالبون بالتالي:

١ ـ استقلال فلسطين.

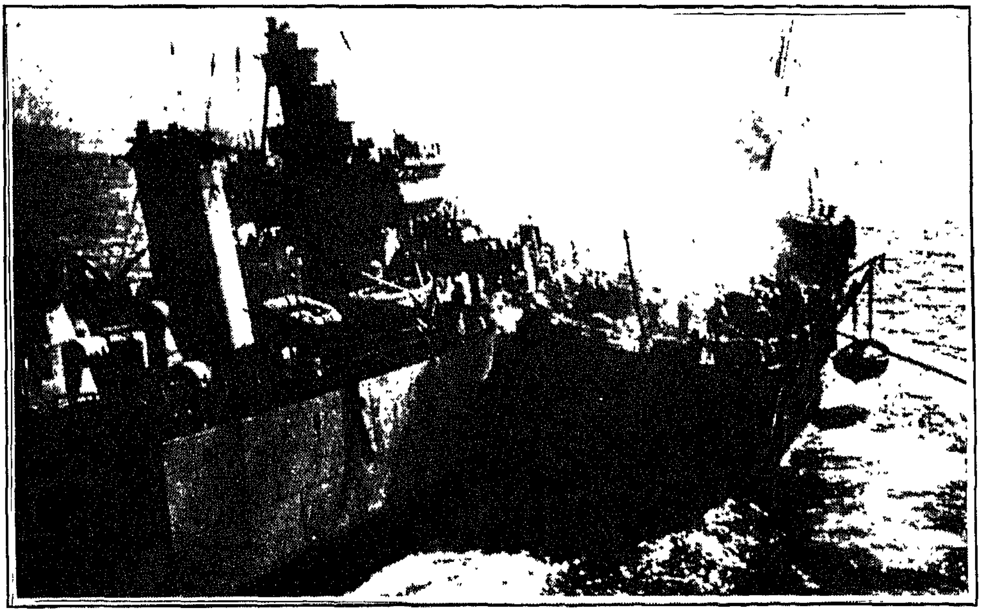
٢ ـ وقف هجرة اليهود فوراً.

٣ ـ منع بيع الأرض الفلسطينية من اليهود.

وراحت الأزمة تتفاقم وتتعقد بسبب عاملين، هما:

١ ـ ازدياد الوعي القومي عند المواطنين العرب.

٢ ـ استقواء الوكالة اليهودية واعتمادها على العنف.



سفينة بريطانية تنقل مهاجرين يهود إلى فلسطين

وعلى أثر الإضراب العام الذي أعلنه الفلسطينيون عام ١٩٣٦، وما أدى إليه من ثورة مسلحة ضد البريطانيين، جاءت بعثة بيل من لندن تقترح تقسيم البلاد للمرة الأولى.

وفي تلك الأثناء كانت هجرة اليهود من البلدان الأوروبية ناشطة إلى مدى بعيد، هرباً من الاضطهاد النازي. وفي ١٧ أيار (مايو) ١٩٣٩ أصدرت بريطانيا «الكتاب الأبيض» المتضمن ما خلاصته:

«ما دام تطبيق الإنتداب في فلسطين غير ممكن، فلا بد من انتهاج سياسة جديدة، لا يكون هدفها إقامة دولة يهودية في فلسطين، بل دولة فلسطينية مستقلة يتعاون فيها العرب واليهود على أساس المبادىء التالية:

١ - يسمح بدخول ٧٥ ألف مهاجر يهودي جديد إلى فلسطين خلال الأعوام الخمسة المقبلة.

٢ - بعد انقضاء الأعوام الخمسة أعلاه لن يسمح بهجرات جديدة إلاّ بموافقة السكان الفلسطينيين.

٣ - للمفوض السامي البريطاني صلاحية مطلقة في اتخاذ التدابير اللازمة لمنع انتقال الملكية العقارية.

هذا يعني أن الحكومة البريطانية أرادت الحؤول دون نمو الوطن القومي اليهودي في وقت قريب، على الأقل، أو أنها أرادت تطمين الفلسطيني ولو بشكل مؤقت، فتبقي المستقبل منوطاً بمشيئة الأكثرية العربية.

وبعبارة أخرى، جاء «الكتاب الأبيض» يلبّي أحد مطالب العرب، وهو أن يبقوا أكثرية داخل فلسطين، وفي الدولة الفلسطينية المنتظرة.

ولم يكن اليهود ليرضوا بهذا الحل، فأعلنوا أن بريطانيا خانتهم، وخرقت العهد الذي قطعه بلفور. وكان ردهم تضخيم حجم الهجرة السرية في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها، والتصلب في مواقف الرفض العنيف. وفي برنامج «بلتيمور» الذي أقروه في نيويورك في أيار (مايو) ١٩٤٢، أعلنوا استنكارهم للكتاب الأبيض، وعزمهم على إقامة دولة يهودية في فلسطين، على أن تكون هجرة اليهود إليها حرة ومطلقة.

جذور المشكلة

عام ١٩٤٥ اختل التوازن العالمي، بعد انهيار النظام النازي وهزيمة اليابان وتراجع الادوار الاستعمارية لفرنسا وبريطانيا، ممّا دفع دولتين عملاقتين إلى الواجهة العالمية، الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي. وأدى ذلك إلى فتح أبواب المعتقلات الهتلرية، وخرج منها عشرات الآلاف من اليهود الذي صمموا على مغادرة أوروبا، فما وجدوا غير فلسطين للتوجه نحوها. وتألفت لجنة أميركية بريطانية مشتركة لإحصاء الراغبين في الهجرة إلى فلسطين، وأصدرت إجازات لمئة ألف مهاجر، فألغت بذلك مقررات العام ١٩٣٩ التي جعلت الحد الأقصى للمهاجرين ٧٥ ألفاً خلال خمس سنوات.

وأعلنت اللجنة أن فلسطين لن تكون دولة يهودية أو عربية... وعلى أثر إعلانها هذا، تلقت مقترحات عديدة، منها اقتراح ممثل المكتب العربي في القدس، وقد جاء فيه:

«إذا أدركت الصهيونية هدفها، أصبح العرب أقلية في ديارهم... والحق يقال أن الصهيونية أصبحت، في نظر العرب، الاختبار الذي يكشف لهم نيات الدول الغربية نحوهم. إن العرب يعارضون الصهيونية السياسية معارضة لا رجوع عنها ولكنهم لا يضمرون أقل عداوة لليهود بصفتهم يهوداً، ولا لأبناء دينهم المقيمين في فلسطين».

والخلاصة أن الخصومة قد تكرست بين العرب واليهود، ثم بينهم وبين بريطانيا، مما جعل مؤتمر لندن عام ١٩٤٧ يسفر عن إخفاق ذريع.

١ ـ المصدر الأول لهذه المعضلة هو محاولة تنفيذ البرنامج الصهيوني الذي كرسه وعد بلفور متجاهلاً حقوق أكثرية سكان فلسطين، ومنذ العام ١٩٢٠، لوحظ في تقرير بعثة بيل أن النزاع قد بدأ بين القومية العربية والعنصرية الصهيونية.

٢ ـ بذلت محاولات تفاهم عديدة بين أصحاب الإرادات الطيبة من العرب واليهود. ولكن الصهاينة تصلبوا، ورفضوا كل تعاون.

وعام ١٩٣٧ رفض العرب تقسيم البلاد، فيما كانت بريطانيا توافق على إقامة دولة يهودية. ولعل أفدح أخطاء الصهيونية أنها تجاهلت، وما تزال تتجاهل أهمية المطالب العربية في فلسطين.

٣ ـ الحكومة البريطانية مسؤولة عن الطريقة التي مارست بها انتدابها على فلسطين، وهو الإنتداب الذي أرادته وسعت إليه... ومن المؤسف أنها انتهجت سياسة مترددة، متناقضة، لم تسهل التفاهم بين العرب واليهود، بل أدت إلى انفجار الأزمة وتفاقمها، فكانت في هذا المجال فاشلة إلى أبعد حدود الفشل.

التقسيم

في بداية العام ١٩٤٧، وجدت الحكومة البريطانية نفسها في فلسطين، على طريق مسدود، فقد طلب ممثلو العرب واليهود معاً إنهاء الإنتداب، فانفجر الإرهاب الصهيوني ضد البريطاني. وبعد مناورات عقيمة، ومحاولات عديمة الفائدة، أعلن رئيس الوزراء البريطاني، في ١٨ شباط (فبراير) ١٩٤٧، أنه قرر عرض قضية فلسطين على منظمة الأمم المتحدة لتتخذ القرار المناسب بشأنها.

أمام الأمم المتحدة

عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة دورة استثنائية بتاريخ ٢٨ نيسان (أبريل) واستمرت إلى ١٥ أيار (مايو)، تلبية لطلب السلطات البريطانية



بن غوريون يعلن قيام إسرائيل

المنتدبة على فلسطين، وقررت تأليف لجنة خاصة لبحث القواعد التي يمكن أن تقوم عليها الحكومة المقبلة في فلسطين.

أثناء الجلسة، تكلم ممثل الاتحاد السوڤياتي اندريه غروميكو، فأيد الموقف الصهيوني تأييداً غير متوقعاً ومما قاله: «لا بد من الإذعان للتقسيم، إذا تعذر قيام دولة مزدوجة القومية!».

واستمعت اللجنة إلى وجهات نظر الجانبين المتنازعين، أي العرب واليهود. فطالبت أكثرية المنظمات الصهيونية بدولة يهودية مفتوحة كلياً لهجرة اليهود لها من مختلف أنحاء العالم.

وطالب ممثلو اللجنة العربية العليا، بإقامة دولة عربية موحدة تحظر فيها هجرة اليهود، وتتخذ التدابير القاطعة لمنع انتقال الملكية العقارية من العرب إلى اليهود.

ولما وضعت اللجنة تقريرها، ضمنته اقتراحين:



إسرائيل يهلّلون لقرار الأمم المتحدة

١ ـ أكثرية أعضائها أوصت بوضع برنامج للتقسيم مع المحافظة على الوحدة الاقتصادية.

٢ ـ الأقلية آثرت قيام دولة فدرالية.

فتبنت الجمعية العمومية اقتراح التقسيم وكرسته بقرار رقمه ١٨١ : فاز بأكثرية ٣٣ صوتاً، ومعارضة ١٣، وامتناع ١٠ عن التصويت. وكان ذلك في ٣١ آب (أغسطس) ١٩٤٧. ولوحظ أن الاتحاد السوڤياتي كان أشد الدول دفاعاً عن الصهيونيين، أما الولايات المتحدة، وبولونيا، وتشيكوسلوفاكيا، وفرنسا، فوافقت على وجهة النظر السوڤياتية في اللحظة الأخيرة من المناقشة، وأيدت القرار ١٨١.

والذين عارضوه هم: المملكة العربية السعودية، مصر، إيران، العراق، لبنان، سوريا، تركيا، أفغانستان، الهند، باكستان، كوبا، اليونان. وكانت بريطانيا ويوغسلاڤيا بين الممتنعين عن التصويت.

وتضمن القرار ١٨١ تحفظات قضائية وحقوقية لسببين، هما:

١ ـ هل تملك الجمعية العمومية للأمم المتحدة صلاحية معالجة انتداب فرضته الأمم؟ وما هي ماهية هذا الانتداب؟ وما هي قيمة قرار الجمعية العامة ما دامت سلطتها لا تتجاوز حدود التوصية بموجب المادة ١٠ من شرعتها؟ وعلى أي أساس يوصي القرار الدولة البريطانية بتنفيذ برنامج التقسيم مع المحافظة على الوحدة الاقتصادية، واعتبار القدس قسمين تحت إشراف لجنة دولية خاصة تعنيها منظمة الأمم المتحدة، وتخولها حقوقاً إدارية مؤقتة؟

ثم أن التقسيم صعب ودقيق جداً لثلاث أسباب هي:

١ ـ تركيب السكان المختلط، ووجود الأماكن المقدسة، وقدرة الدولتين المقترحتين على الحياة اقتصادياً.

٢ ـ ما هو حظ النجاح لقرار يعارضه طرفان من الأطراف الثلاثة المعنية به؟ بمعنى أن الطرف اليهودي وحده وافق عليه، وعارضه العرب والبريطانيون.

إذن، فالقول الفصل منوط بمجلس الأمن الدولي. لكن المجلس تأخر ولم يبادر إلا بعد فوات الأوان.

حرب فلسطين الأولى

كانت هذه الحرب نتيجة حتيمة للإرث الفظيع والثقيل الذي خلفه الإنتداب البريطاني، وهو إرث تجلت فيه كل معالم المؤامرة الموقتة، والمرتبة على أحسن ما يكون التوقيت والترتيب.

وقد بوشر التنفيذ منذ بداية الإنتداب، إذ أُطلقت يد اليهود في مناطقهم لتأليف عصابات إرهابية، وفي مقدمتها «الهاغانا»، و«البلماح»، و«شتيرن»، و«ارغون»، ولإنشاء الإدارة العامة التي ستكون أساس دولتهم العتيدة.

وفي المناطق العربية، حرصت سلطة الانتداب على الاستئثار بكل الصلاحيات والإدارات لمنع العرب من تنظيم شؤونهم استعداداً لإقامة دولتهم المستقلة أو لمواجهة الاستعدادات التي قام بها الصهاينة على مرأى منه وأمام أنظارهم. وبعطف كامل من السلطة البريطانية والرعاية التامة.

مساء التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ انفجرت الاضطرابات، وقررت اللجنة العربية العليا تفشيل قرار الأمم المتحدة الذي رحّب به اليهود ترحيباً حماسياً. وبادر كل من الجانبين إلى العمل لترسيخ سيطرته، تباعاً، على المناطق التي تنسحب منها قوات الإنتداب.

وهذه اللعبة البريطانية فريدة من نوعها في الظاهر بإجلاء قوات الإنتداب، بعد إعداد الاحتلال الصهيوني من وراء الستار.

وكان من البديهي أن تقع المجابهة الدامية الرهيبة بين يهود متأهبين منذ زمن بعيد، وعرب فوجئوا، وكل ما بين أيديهم هو قوة العدالة والحق، وهما من الأسلحة العديمة الجدوى في مجابهة الصهيونية العالمية ومَن وراءها.

وتميز القتال، منذ بدايته بالضراوة المتمادية، فكانت اغتيالات على أوسع مدى. وكانت تصفيات جماعية بلغت ذروة الهمجية، لأن اليهود

تعمدوا الإرهاب لإكراه الفلسطينيين على مغادرة ديارهم. ففي مقدمة الأهداف الصهيونية المبيتة: الاستيلاء على أرض بلا سكان.

وكانت لليهود إدارة منظمة، وممثلون منتخبون، وكتل سياسية، ومنظمات عسكرية سرية. ولم يتسن للعرب، تحت كابوس الإنتداب أن ينشئوا أبسط المؤسسات الضرورية لرعاية حياتهم العامة، وهذا ما توخاه الإنتداب البريطاني، وعمل له طوال أيام عهده، على أيدي مفوضين صهيونيين كهربرت صموئيل الذي أعطى اليهود كل الأراضي الأميرية الموروثة عن السلطنة العثمانية، وهي تبلغ أضعاف ما اشتراه اليهود من الفلسطينيين وغير الفلسطينيين منذ العام ١٩١٧ حتى قيام إسرائيل عام ١٩٤٨.

وتبين بوضوح لا يرقى إليه الشك أن اليهود وضعوا خطة تهجير الفلسطينيين واغتصاب ديارهم، وركزوها على دعائم نفسانية مدروسة، شرحها بيريز في كتاب عنوانه «إسرائل وفلسطين»، فإذا هي سلسلة من العمليات الإرهابية ترمي الرعب في النفوس. وقد نجحت هذه الخطة نسبياً، فنزح من فلسطين حوالي ٢٠٠ ألف من المواطنين العرب، قبل نهاية الإنتداب في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨.

وفي هذا التاريخ كانت منظمة «الهاغانا» العسكرية الإرهابية تبسط سيطرتها على المناطق التابعة للدولة اليهودية بموجب خطة التقسيم، باستثناء صحراء النقب، فيما كان العرب يشرفون على مناطقهم، ما عدا الجانب الغربي من الجليل حيث كانت تدور معارك حامية، أما القدس فقسمت إلى شطرين.

وفي ١٤ ايار (مايو) ١٩٤٨، عين المجلس الوطني الذي يمثل يهود فلسطين والحركة الصهيونية، حكومة مؤقتة، ثم أعلن قيام دولة إسرائيل. فاعترفت بها الولايات المتحدة الأميركية على الفور، واقتدى بها الاتحاد السوڤياتي بعد قليل. وفي اليوم التالي، تدخلت جيوش ست دول عربية، لإعادة النظام والحق إلى نصابهما، عملاً بقرار اتخذته اللجنة السياسية في جامعة الدول العربية. فجاءت الحرب بين الدول العربية وإسرائيل تكملة للحرب الناشبة بين العرب واليهود من سكان فلسطين.

وفي تلك الحقبة الحاسمة والمصيرية من تاريخ المعضلة كان نشاط منظمة الأمم المتحدة محدوداً إلى درجة كبيرة تقارب الشلل، ولم يكن ذلك الموقف ضرباً من الإهمال أو النسيان، بل كان تنفيذاً لخطة أميركية بريطانية، غايتها الإفساح لليهود في مجال إحراز بعض المكاسب الأساسية في فلسطين.

أما مجلس الأمن الدولي فما تحرك إلاّ في نيسان (أبريل)، فدعا إلى الهدنة، وإلى تأليف لجنة للإشراف على هذه الهدنة... ولكن دعوته ذهبت مع الريح.

وفي ١٤ أيار (مايو)، عينت الجمعية العمومية «وسيطاً» دولياً يمثل الأمم المتحدة «ليعمل على ضبط الحالة وتنسيق الأوضاع وإشاعة السلام في المستقبل...».

وفي حزيران (يوليو)، بينما كانت المعارك الضارية تحرق الأخضر واليابس، تمكن مجلس الأمن من حمل الجانبين العربي واليهودي على قبول هدنة مدتها أربعة أسابيع، ثم أصدر أمره بوقف إطلاق النار في ١٥ تموز (يونيو). وقرر المجلس إعلان الهدنة في القطاعات الفلسطينية.

وأخيراً، ألفت الجمعية العمومية في ١١ كانون الأول (ديسمبر) «لجنة تسوية وتوفيق» خلفت الوسيط الدولي رالف بانش الذي جاء بالوكالة، لأن الوسيط الدولي السابق الكونت برنادوت اغتيل على يد عصابة إرهابية يهودية في ١٧ أيلول (سبتمبر)، وذلك لإفشال كل تسوية محتملة ولترهيب الأمم المتحدة وإبعادها عن محاولة الإمساك بأي ملف يتعلق بفلسطين.

ويحتوي التقرير المتخذ لتأليف هذه اللجنة مبدأ يخول اللاجئين الفلسطينيين حق العودة إلى ديارهم، إذا أرادوا ذلك. إلا أن ذلك المبدأ ولد ميتاً. ولم يرَ النور يوماً، ولم يطبق إطلاقاً. وكان تصرّف الأمم المتحدة آنذاك عجيباً غريباً! فهي لم تحاول فرض احترام قرارها المتخذ في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، بل اكتفت بدعوة المتقاتلين إلى وقف القتال ووضعت في تصرفهم لجنة تسوية وتوفيق!

نظام الهدنة

وافقت الدول المعنية كلها على إعلان الهدنة بين تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨ وآذار (مارس) ١٩٤٩. ووُقع اتفاق وقف النار بين مصر وإسرائيل في ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩، على أثر هجوم إسرائيلي على صحراء النقب، وتلاه اتفاق آخر بين الأردن وإسرائيل في ١١ آذار (مارس) من العام نفسه، بعد هجوم صاعق على ميناء إيلات. وأجريت مفاوضات الهدنة في رودوس على يد الوسيط الدولي رالف بانش، فعقدت الاتفاقات على التوالي بين إسرائيل ومصر في ٢٤ شباط (فبراير)، ثم مع لبنان في ٢٣ آذار (مارس)، ومع الأردن في ٣ نيسان (أبريل)، ومع سورية في ٢٠ تموز (يوليو). وأعلن كل من العراق والسعودية أنهما راضيان بما وقعته الدول العربية الأخرى.

هذه الاتفاقات هي الوثائق الثنائية الوحيدة المتعلقة بتحديد العلاقات بين



المستوطنون الأوائل

دول العربية وإسرائيل، وهي تقضي بعدم اللجوء إلى القوة، بين الأطراف المتعاقدة، في تسوية قضية فلسطين. وهي تحدد التخوم بخطوط تتفق، في بعض النقاط، مع حدود فلسطين القديمة والمعروفة دولياً وليس فيها شيء من الحدود المعينة في خطة التقسيم.

وعلى هذا الأساس انشئت لجان هدنة مختلطة بين إسرائيل وكل دولة من الدول المعنية، وقامت على رأس هذه اللجنة منظمة الأمم المتحدة لمراقبة الهدنة. وكانت مهمة تلك اللجان مراقبة تطبيق الهدنة، وتحديد حالات خرقها، والمساعدة على حل كل المشكلات المطروحة. (راجع الملاحق).

إلاّ أن هذه التدابير لم تحل النزاع العربي الإسرائيلي، ولم تضعه حتى على طريق الحل. وراحت الأحداث تدل، فيما بعد، على أن اتفاقات الهدنة واهية وسريعة العطب، لأنها لم تأخذ القضايا السياسية بعين الاعتبار، وفي طليعة هذه القضايا:

١ـ مغادرة مئات الألوف من الفلسطينيين ديارهم مكرهين، وتحت الضغط الإرهابي، ولجوؤهم إلى البلدان العربية المجاورة (راجع الملاحق). وهذا ما تجاهلته كلياً بنود اتفاقيات الهدنة.

٢ـ لم تنشأ الدولة العربية الملحوظة في قرار الأمم المتحدة المتخذ عام ١٩٤٧، على الرغم من إنشاء منطقة غزة في أيلول (سبتمبر) ١٩٤٨، وقيام حكومة فلسطينية فيها شرعت تطالب بالإشراف الكلي على المنطقة، مع العلم أن القوات الإسرائيلية المسلحة كانت قد استولت على مساحات كبيرة منها.

ومما يذكر أنه بنهاية حرب ١٩٤٨ استطاعت العصابات الإسرائيلية أن تمتد خارج حدود التقسيم التي أعلنتها الأمم المتحدة، واحتلت مناطق في الجليل والنقب، وأصبحت المساحة الجديدة بحسب خطوط الهدنة عام ١٩٤٩ (٢٠٧٠٠) كلم^{٢}، أي ما يعال ٧٧,٤٪ من مساحة فلسطين الكلية.

يستخلص من هذه الوقائع أن وجود اللاجئين الفلسطينيين خارج ديارهم، واستيلاء إسرائيل على هذه الديار بالقوة هما صلب المعضلة الفلسطينية والنزاع القائم بين العرب وإسرائيل.

وهكذا استفادت إسرائيل وحدها من قرار الأمم المتحدة المتخذ في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧. (راجع ملحق إعلان إقامة دولة إسرائيل).

الفصل الرابع عشر

من الهدنة
الى
العدوان الثلاثي
(١٩٤٩-١٩٥٦)

ماذا بعد الهدنة؟

كانت اتفاقيات الهدنة، عام ١٩٤٩ بمثابة تكريس لهزيمة العرب في حربهم الأولى ضد إسرائيل، مما أدى إلى تحوّل ولو مبدئي في مواقف هذه الدول، فإذا هي تطالب بالانسحاب إلى حدود «الدولة اليهودية» كما رسمها قرار الأمم المتحدة القاضي بالتقسيم، بعدما عارضت ذلك التقسيم ورفضته جملة وتفصيلاً.

وكان المطلب الأول الذي رفعت الدول العربية شعاره، في تلك الحقبة الحرجة والعصيبة من تاريخ الصراع: «عودة المهجرين الفلسطينيين إلى ديارهم». وفي ١١ أيار (مايو) ١٩٤٩ قُبلت إسرائيل عضواً في هيئة الأمم المتحدة، فازدادت تصلباً وعتواً. ورفضت التنازل عن المكاسب التي غنمتها في حرب ١٩٤٨، متذرعةً بأن حدودها الجديدة «أوفر أماناً» من الحدود الواردة في مشروع التقسيم، ثم إنها رفضت أيضاً السماح بعودة المهجرين الفلسطينيين إلى ديارهم لحرصها على أمرين:

١ - الاستيلاء على أرض بلا شعب، عملاً بتوصيات حكماء صهيون.

٢ - تعزيز الأكثرية اليهودية وتقليص الأقلية العربية في الدولة الجديدة.

هذان الغرضان هما العقبة الكؤود التي تحطمت عليها كل محاولات الأمم المتحدة لحل قضية فلسطين. وكان من الطبيعي أن يفجر هذا التصلب الصهيوني مختلف الأوضاع السياسية والعسكرية، وأن يؤدي إلى حوادث عجزت لجنة الهدنة عن تطويقها.

وبقدر ما تقلصت قدرات لجنة الهدنة، ارتفعت حرارة التوتر، فشملت

بلدات الشرق الأوسط برمتها، وأفسدت تلك العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين العرب والدول الغربية. وكان من حق العرب اعتبار كل تأييدٍ للعدوان الصهيوني عدواناً عليهم.

١ ـ تعهد الولايات المتحدة الأميركية بدعم إسرائيل بلا تحفظ عملاً بالخطة التي وضعها الرئيس هاري ترومن وأطلق عليها اسم «الاحتواء»، وهو يعني احتواء البلاد العربية لحماية إسرائيل من كل خطر يهدّد وجودها واستمرارها.

٢ ـ انتعاش القومية العربية وبروزها على الصعيد الدولي.

٣ ـ تقلص ظل فرنسا في شمال أفريقيا، وظل بريطانيا في الشرق الأدنى.

أما إخفاق السياسات الغربية في معالجة القضية الفلسطينية فأدى إلى تدخل الاتحاد السوڤياتي في الشرق الأوسط، عن طريق تزويد الدول العربية بالسلاح، وكانت أزمة السويس أولى نتائج هذا التدخل.

إجتماع لوزان (لا للتفاوض)

عام ١٩٤٩ عقد في لوزان اجتماع بين مفوضين رسميين يمثلون مصر، وسوريا، والأردن، وإسرائيل تلبية لدعوة لجنة التسوية والتوفيق الدولية، للبحث عن حلول للمشكلات الراهنة، وفي مقدمتها:

١ ـ مصير اللاجئين الفلسطينيين

٢ ـ تدويل مدينة القدس.

٣ ـ الاتفاق نهائياً على الحدود

استغرقت المفاوضات شهرين من غير أن تؤدي إلى نتيجة، فتوقفت، إذ كانت وجهات النظر بين الجانبين العربي والإسرائيلي متناقضة كلياً في مختلف القضايا المطروحة على بساط البحث. وهذا ما أكدته اللجنة الدولية في التقرير الذي رفعته إلى منظمة الأمم المتحدة عن تلك المفاوضات. ومما جاء في هذا التقرير:

«أصرت الدول العربية على أنها توجه اهتمامها أولاً، وقبل كل شيء إلى قضية اللاجئين الفلسطينيين، وتشترط حل هذه القضية بشكل مبدئي على الأقل لتقبل بالانتقال إلى بحث قضايا أخرى.

«وأكد المندوبون العرب، أن قضية اللاجئين لا يمكن أن تحل ما لم تعترف إسرائيل، بلا قيد أو شرط، بحقهم في العودة إلى ديارهم.

«وأجابت إسرائيل أنها غير مستعدة لبحث أي حل على أساس عودة اللاجئين إلى ديارهم في خارج الحل العام للقضية برمتها».

بذلت اللجنة الدولية محاولتين أخريين، الأولى في جنيف عام ١٩٥٠، والثانية في باريس عام ١٩٥١ بدون جدوى، فجمدت أعمالها وانقطعت عن كل نشاط. وبذلك أخفقت وساطة الأمم المتحدة.

وإذا استثنينا القرار ٣٠٣ الذي اتخذته الجمعية العامة بشأن اللاجئين، نرى أن منظمة الأمم المتحدة صرفت اهتمامها عن القضية الفلسطينية، واكتفت بتحريك مجلس الأمن الدولي لمعالجة حوادث خرق الهدنة.

أما على الصعيد العملي، فقد استولى الأردن على قسم من القدس، وأخذت إسرائيل قسماً آخر فجعلته عاصمة لها بقوة الأمر الواقع، ووضع مشروع التدويل على الرّف.

وكانت الجامعة العربية اتخذت، منذ العام ١٩٤٥، قراراً بمقاطعة إسرائيل، فبقي ساري المفعول.

ولما عقدت الجامعة دورتها الثانية عشرة في القاهرة عام ١٩٥٠، اتخذت قراراً باللجوء إلى تدابير أساسية في ما يتعلق بالنزاع القائم بين العرب وإسرائيل. ففي أول نيسان (أبريل) من ذلك العام اتخذت قراراً بحق الأردن، حتى إذا ثبت أن حكومته تفاوض إسرائيل، فصل عن جسم الجامعة. وجاء في ذلك القرار النص التالي: «تفصل عن جسم الجامعة كل دولة عربية تبادر منفردة إلى مفاوضة إسرائيل، إنْ سياسياً أو عسكرياً، أو اقتصادياً».

وفي ١٧ حزيران (يونيو)، عقدت معاهدة دفاع مشترك وتعاون اقتصادي بين مصر، ولبنان، وسوريا، والمملكة العربية السعودية، واليمن، ثم انضم

إليها كل من العراق عام ١٩٥١، والأردن عام ١٩٥٢.

وقبل ذلك بيوم، وضع مجلس الجامعة صيغة اتفاق بشأن الأراضي الفلسطينية التي استولى عليها الأردن على الرغم من احتجاجات الجامعة، وتقرر أن تكون هذه الأراضي في عهدة المملكة الأردنية، حتى تحل القضية الفلسطينية حلاً كاملاً ونهائياً.

وأخيراً توقفت «حكومة فلسطين» المقيمة في القاهرة عن العمل، فخرجت القضية الفلسطينية من التداول على الصعيدين العربي والدولي.

تداعي نظام الهدنة

عام ١٩٥٠ بدأ نظام الهدنة ينهار من جراء خرق الاتفاقات المعقودة بين الجانبين العربي والإسرائيلي. ورافقت عمليات الخرق خلافات أساسية في تفسير نصوص تلك الاتفاقات، مما يدعو إلى الظن أن تلك النصوص قد صيغت، على جانب من اللبس والغموض لتؤدي حتماً إلى انهيار الهدنة.

وفي مثل هذا الجو المحموم، كان من الطبيعي أن تكثر حوادث التسلل عبر خط الهدنة، وحوادث الاشتباك بين اليهود والفلسطينيين العائدين إلى أرضهم وديارهم. وبقدر ما كان الطغيان الصهيوني يشتد، ويعتمد أساليب البطش والإرهاب، كانت حركة الفلسطينيين العائدين تزداد تنظيماً وعنفاً، حتى باتت الهدنة خرافة لا يؤمن بها أحد.

وبين العامين ١٩٥١ و ١٩٥٣، كانت سورية تستنكر سيطرة إسرائيل على المنطقة المجردة من السلاح الواقعة بين خطي الهدنة السوري والإسرائيلي. وتكررت احتجاجات دمشق على الأعمال التحصينية وغيرها، التي دأبت القوات الإسرائيلية على القيام بها في هذه المنطقة. ووقعت أيضاً حوادث تسلل وردات فعل إرهابية على الخط الفاصل بين الأردن وإسرائيل، ثم في جوار منطقة غزة الحساسة لكثرة الذين ازدحموا فيها من المهجرين الفلسطينيين.

وراحت إسرائيل ترد على تلك التحركات بغارات ضارية على السكان

العزل، وبالإمعان في تقتيل النساء والشيوخ والأطفال، غير حافلة بقرارات الاستنكار والإدانة المنهمرة عليها من مجلس الأمن الدولي، لأن تلك القرارات اقتصرت على الكلام، وهو اللغة التي لا تفهمها إسرائيل ما دامت قادرة على تحقيق غاياتها بقوة السلاح.

وكان الهجوم الكبير الذي شنته القوات الإسرائيلية على منطقة غزة في ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٥٥ منعطفاً خطيراً في تاريخ تلك الحقبة الدامية من الصراع، حتى أن كثيرين من المراقبين اعتبروه استئنافاً للحرب بين مصر وإسرائيل. وقد حدث في حقبة دقيقة من تطور الأوضاع في الشرق الأوسط، إذ كانت القيادة المصرية قد انتقلت من الملك فاروق إلى نفر من الضباط أطاحوا النظام الملكي في ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢. ثم قفز جمال عبد الناصر إلى قمة الهرم، وعقد مع بريطانيا معاهدة لندن ١٩٥٤ القاضية بجلاء قواتها تدريجياً عن الأراضي المصرية، مما ضاعف قلق إسرائيل على مصيرها، وخوفها من تكتل العرب ضدها، خصوصاً لأن الاتصالات السرية التي أجريت بين القاهرة وتل أبيب طوال العامين ١٩٥٣ و ١٩٥٤ لم تسفر عن نتائج إيجابية.

ومن أقوال الجنرال برنر، رئيس لجنة الهدنة، أن الغارة الإسرائيلية على غزة كانت دليلاً قاطعاً على تصلب إسرائيل الذي جعل مصر تصمم على إقامة اتحاد عربي واسع النطاق لمواجهة الخطر الصهيوني المتفاقم. وبادرت القاهرة إلى اتخاذ تدابير خطيرة، فحظرت عبور قناة السويس، ثم خليج العقبة على السفن الإسرائيلية، حتى التجارية منها.

وفي أول أيلول (سبتمبر) ١٩٥١ كان مجلس الأمن الدولي قد اتخذ قراراً برفض اعتبار الحصار البحري حقاً من حقوق بلد يعتبر نفسه في حالة حرب. إلاّ أن هذا القرار بقي حبراً على ورق. ولما عمد مجلس الأمن، عام ١٩٥٤ إلى اتخاذ قرار في الموضوع نفسه، اصطدم بالڤيتو السوڤياتي، ومنعت السفن الإسرائيلية من عبور القناة والخليج برغم كل ما تذرعت به من الحقوق المكتسبة والقوانين الدولية، فتعرقلت علاقاتها التجارية الحيوية بالبلدان الأفريقية والآسيوية.

وراحت الأحوال تتأزم تدريجياً، وفي العام ١٩٥٦ أمست ثلاث لجان من أصل أربع تابعة لهيئة الهدنة مشلولة، فاللجنة السورية الإسرائيلية انقطعت كلياً عن الاجتماع منذ ١٩٥١، وانسحبت إسرائيل من اللجنة الأردنية الإسرائيلية احتجاجاً على تراكم الشكاوى وعجز اللجنة عن إيجاد حلول لها.

وفي ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥، احتلت القوات الإسرائيلية منطقة العوجا المجردة من السلاح حيث كان مقر اللجنة المصرية الإسرائيلية. فبقيت اللجنة اللبنانية الإسرائيلية وحدها قائمة، تؤدي مهماتها قدر المستطاع.

سياسة الأحلاف وانعكاساتها الإقليمية

بين العامين ١٩٥٠ و ١٩٥٥، أخذت العلاقات بين العرب والدول الغربية تتدهور من سيىء إلى أسوأ. ففي ٢٥ أيار (مايو) ١٩٥٠، أعلنت الولايات المتحدة، بريطانيا، وفرنسا بيانها المشترك (راجع ملحق شحن الأسلحة إلى الشرق) والرامي إلى المحافظة على التوازن العسكري بين الدول العربية وإسرائيل، وإلى ترسيخ الأمر الواقع الذي يعني الاعتراف بإسرائيل. فكان من الطبيعي أن تقابله الدول العربية بموجة عارمة من الاستنكار.

وعام ١٩٥١، دعت الدول الغربية الثلاث الآنفة الذكر كلاً من تركيا ومصر للانضمام إلى منظمة أمن إقليمية على غرار حلف الأطلسي، فرفضت مصر هذه الدعوة، وهي التي عملت جاهدة على إلغاء معاهدة ١٩٣٦ التي كانت تشدها إلى بريطانيا. ولكن هذا الرفض لم يحل دون قيام حلف بغداد باشتراك بريطانيا، والولايات المتحدة الأميركية والباكستان وإيران في شباط (فبراير) ١٩٥٥.

وفي نيسان (أبريل) من العام نفسه اشترك جمال عبد الناصر في مؤتمر باندونغ حيث تبين أنه زعيم العالم العربي حتى في نظر خصومه، وكانت باكورة نضاله في ذلك الحين، رفضه شراء الأسلحة الغربية بشروط، فإذا به يتجه إلى الصين، ثم الاتحاد السوڤياتي الذي وافق على أن يعقد مع مصر صفقات تجارية. وهكذا خسر الغرب امتيازه الاحتكاري في بيع الأسلحة من دول الشرق الأدنى. واستمر السباق إلى التسلح في هذه المنطقة طيلة العام

١٩٥٥، فتلقت مصر أسلحة تشيكوسلوڤاكية، وأعلن عبد الناصر، في خطاب ألقاه بتاريخ ٢٧ أيلول (سبتمبر)، شروط الصفقة المتعلقة بهذه الأسلحة.

واعتباراً من هذه الحقبة بدأت ارتباطات الاتحاد السوڤياتي ببلدان الشرق الأدنى، فاتجهت موسكو إلى تلبية طلبات مصر. وكانت نتيجة هذا التبدل في السياسة المصرية الخارجية، أنه كرس زعامة عبد الناصر وهيمنته على الشرق الأدنى، وزاد في نفوذ الناصريين في عدد من الدول العربية.

وتصاعد نفور سوريا من الغرب، فعقدت اتفاقاً مع مصر في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥، واتجهت هي أيضاً إلى الاتحاد السوڤياتي.

ولما رأت إسرائيل نفسها مهددة لاعتمادها على تفوقها العسكري وحده، أخذت تطالب الولايات المتحدة الأميركية بتسليحها وقوبلت بالرفض، فاتجهت إلى فرنسا لئلا تتفوق الدول العربية عليها.

أزمة السويس والعدوان الثلاثي

في أواخر ربيع ١٩٥٦، اجتمعت عناصر هذه الأزمة. ولم يبدُ في الجو الدولي ما يشير إلى حل معضلة الشرق الأدنى. فمشروع جونستن (١٩٥٣ ـ ١٩٥٥) المتعلق بحق الدول المشاطئة لنهر الأردن في الإفادة من مياهه، قوبل بالرفض من الجانب العربي. واتفاقات الهدنة خرقت في كل مكان. وتألفت وحدات عديدة من مغاوير الفدائيين الفلسطينيين تضم متطوعين من مختلف البلدان العربية، بمساعدة الحكومة المصرية.

وكانت فرنسا، آنذاك، متورطة في حربها الجزائرية، وبريطانيا متضايقة إلى أقصى حد من تصرفات جمال عبد الناصر، وإسرائيل تفكر بفرض سيطرتها على مضيق تيران المشرف على خليج العقبة، فإذا بمصالح هذه الدول الثلاث ومخاوفها متقاربة.

وازداد الجو توتراً في ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٦، لما أمم عبد الناصر قناة السويس، وردّت عليه الولايات المتحدة الأميركية برفض تمويل مشروع سد أسوان، فتدخل الاتحاد السوفياتي معلناً تأييده لمصر. وبرزت في لندن وباريس فكرة اللجوء إلى القوة لأجل «إعادة الرئيس المصري إلى الصواب والسبيل السوي». أما الولايات المتحدة فآثرت الابتعاد عن حليفتيها الغربيتين، واكتفى مجلس الأمن الدولي باتخاذ قرار مبدئي تحسباً منه لموقف موسكو.

وضعت القيادتان العسكريتان الفرنسية والبريطانية خطة إنزال قوات مسلحة إلى مصر. وتم الاتفاق مع إسرائيل في محادثات سرّية أجريت في سيڤر، فتقرر أن تزحف القوات الصهيونية فتجتاح سيناء، ثم توجه فرنسا وبريطانيا إنذاراً إلى القاهرة، وتهديداً باحتلال مصر.

كان لإسرائيل في هذه الحرب هدفان اثنان:

١ - تدمير قواعد الفدائيين العرب في غزة، وقسم من الطاقة العسكرية المصرية.

٢ - تأمين حرية الملاحة بسفنها في خليج العقبة.

شنت القوات الإسرائيلية هجومها في ٢٩ تشرين الأول (اكتوبر) مدعية بحق الدفاع عن النفس الوارد في المادة ٥١ من شرعة الأمم المتحدة.

وفي اليوم التالي تلقت القاهرة الإنذار الفرنسي البريطاني، فرفضته. وعمدت الدولتان إلى قصف الأراضي المصرية في ٣١ تشرين الأول (اكتوبر).

وبعد خمسة أيام أنزلت قوات مظلية على مدخل قناة السويس، ثم تبعها فوراً الأسطولان البريطاني والفرنسي.

وكان مجلس الأمن مشلولاً بفيتو مزدوج فرنسي بريطاني، فدعيت الجمعية العمومية إلى دورة استثنائية مستعجلة، باتفاق العملاقين الأميركي والسوفياتي على ضرورة وقف القتال، ووضع حد للعدوان الثلاثي على وادي النيل.

وفي ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) اتخذ قرار بوقف القتال، وأرسلت إلى مصر قوة طوارىء لفك الارتباط بين القوى المتحاربة، مع المحافظة على «كرامة المعتدين». كما جاء في قرار الجمعية العامة رقم ٩٩٧ تاريخ ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦، بشأن حل أزمة السويس. والحق بالقرار رقم ٩٩٨ تاريخ ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ والقرار ١١٢٥ تاريخ ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٥٧.

توقف القتال، ولكن سحب القوات الفرنسية، والبريطانية، والإسرائيلية، بدا بطيئاً. فما انسحب الفرنسيون والبريطانيون إلا في كانون الأول (ديسمبر)، وبقي الإسرائيليون في المراكز التي وصلوا إليها حتى آذار (مارس) ١٩٥٧. والحجة التي تذرعوا بها لرفض الانسحاب هي أنهم يحتاجون إلى ضمانات... فوضعت قوات الطوارىء على طول الخط

الفاصل بينهم وبين القوات المصرية، ولكن في داخل أراضي مصر، لأن إسرائيل رفضت دخول القوات الدولية إلى أراضيها. وكانت الولايات المتحدة الأميركية قد مارست ضغطاً شديداً على إسرائيل لحملها على الانسحاب بلا قيد أو شرط، فوجهت إلى السفير الإسرائيلي في واشنطن رسالة، في ١١ شباط (فبراير) ١٩٥٧، أكدت له فيها اعتبار خليج العقبة طريقاً بحرية دولية يمارس فيها حق المرور الحر «البريء»، أي غير الحربي.

أحرزت إسرائيل انتصاراً عسكرياً على مصر. وضمن لها وجود قوات الطوارىء في شرم الشيخ حرية الملاحة في خليج العقبة وأمان الحدود بينها وبين مصر.

ولكنّ ذلك النصر الإسرائيلي لم يتم إلاّ بمساعدة القوات الفرنسية والبريطانية، كما أن شروط انسحاب القوات الإسرائيلية ضمنتها الولايات المتحدة الأميركية مما جعل إسرائيل في موقع التبعية للدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة، وحمل الدول العربية والرأي العام العربي على الاقتناع بأن إسرائيل دولة استعمارية توسعية.

وخرجت كل من فرنسا وبريطانيا من تلك المعركة وقد فقدتا احترام الرأي العام العالمي، وانهال عليهما الاستنكار من كلّ صوب.

أما الولايات المتحدة فإنها فقدت صفة الحكم في حل القضية الفلسطينية، إذ كان لوزنها فعالية حاسمة في إنهاء أزمة السويس. وكان الاتحاد السوفياتي هو الرابح الأكبر، فراح يقطف ثمار سياسته المؤيدة للعرب ويدعم بها نفوذه في بعض بلدان المنطقة.

الفصل الخامس عشر

حرب الأيام الستة

(١٩٦٧)

من حرب السويس إلى حرب الأيام الستة

تميزت هذه الفترة بثلاث ظواهر هي:

١ ـ تحرير بعض الدول العربية، لا سيّما سوريا ومصر من ارتباطها بنفوذ الغرب.

٢ ـ رسوخ دعائم إسرائيل داخلياً وخارجياً.

٣ ـ انهيار اتفاقات الهدنة بعدما خرقتها إسرائيل خرقاً فاضحاً بزحفها على سيناء، وإخفاق كل المحاولات المبذولة لإنهاء النزاع بين العرب وإسرائيل.

وفي المجال الإقليمي، برزت خلافات عديدة بين الدول العربية، وظهرت القضية الفلسطينية بشكل أكره العالم على أخذها بعين الاعتبار، بعدما جعلتها أجهزة الإعلام الصهيونية شبه منسية. فإذا بالدول العربية تستيقظ، وتدرك أن قضية فلسطين ليست قضيتها الأولى فحسب، بل هي قضيتها الحيوية والأساسية، فإما أن تحل على مبادىء الكرامة والحق والعدالة، أو لا يكون للعرب مكانة ولا وزن ولا قيمة في العالم.

قضية «الكيان الفلسطيني»

وسط الظروف البالغة الصعوبة والتعقيد، والحافلة بالتحركات السياسية، والعسكرية، والشعبية، تجلت قضية فلسطين وازدادت وضوحاً. ومنذ العام ١٩٥٠، ما انفكت اللجنة العربية العليا في فلسطين تطالب الدول العربية وجامعتها بإنشاء جيش فلسطين وبعث كيان فلسطين. ولكن الجامعة لم تتحرك جدياً إلاّ عام ١٩٥٩، حين اتخذت لجنتها السياسية قراراً، في آذار (مارس)، بالموافقة على مطالب اللجنة العربية العليا. ولم يكن ثمة أقل

اتفاق، بين الدول العربية، على الجانب الذي يمثل شعب فلسطين.

عام ١٩٦٣ عين مجلس الجامعة السيد الشقيري، مندوب السعودية السابق إلى الأمم المتحدة، ممثلاً لفلسطين لدى الجامعة العربية.

ولهذا التكريس عوامل بالغة العمق والخطورة، تثبت نهائياً، وبما لا يرقى إليه شك، إفلاس الإعلام الصهيوني الذي بذل قصارى جهده لإيهام العالم بما يلي:

١ ـ أن فلسطين هي أرض بلا شعب، واليهود شعب بلا أرض، فمن العدل أن تكون تلك الأرض لهذا الشعب.

٢ ـ أن العرب ليسوا أمة يحسب لها حساب، بل هم جماعات متخلفة تسير على طريق الانقراض كالهنود الحمر.

وفي مقدمة تلك العوامل: قيام النظامين السوري والعراقي على أساس عقائدي واضح، وتشديدهما على ضرورة النضال ضد العدوان الصهيوني مهما يكن الثمن، واقتناعهما المطلق بأن أساليب المفاوضة والتفاهم غير ممكنة مع دولة عنصرية توسعية معتدية كإسرائيل.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن جيلاً جديداً، غير الجيل السابق المخضرم، قفز إلى مراكز الحكم والقيادة في بعض الدول العربية، وإلى أن المهجرين الفلسطينيين استعادوا ثقتهم بنفوسهم، وإيمانهم بحقهم، فشرعوا يجمعون صفوفهم ويوحدون كلمتهم، تأهباً للعودة إلى ميدان الكفاح المسلح.

طوال العامين ١٩٤٨ و ١٩٤٩، أكرههم الإرهاب الصهيوني على مغادرة ديارهم، ويكفي أن نذكر فظائع دير ياسين، والطيرة، وغزة، لتتكون لدينا صورة واضحة عن قسوة ذلك الإرهاب، حيث بلغ عدد اللاجئين إلى البلدان العربية المجاورة لفلسطين حوالي مليون نسمة، فكانت حركة التهجير القسري تزداد اتساعاً تحت ضغط الاضطهاد الصهيوني المنطلق من خطة مدروسة غايتها تفريغ الأرض الفلسطينية من العرب.

على المفترق الخطر

كانت إسرائيل قد باشرت منذ العام ١٩٥٩ تحويل مياه الأردن إلى أراضيها، وكادت أن تنجز مشروعها هذا عام ١٩٦٤، مما حمل الرئيس عبد الناصر على انتهاج سياسة جديدة ترمي إلى تحقيق الوحدة العربية.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤ عقد في القاهرة مؤتمر قمة عربي تمثلت فيه الدول الأعضاء في الجامعة، وكانت غايته القيام بعمل مشترك ضد إسرائيل، فأنشئت قيادة عربية موحدة، وقدم الشقيري مشروعاً يقضي بتأليف مجلس وطني فلسطيني.

وفي أيار (مايو) في العام نفسه، عقد مؤتمر قومي فلسطيني في القسم العربي من مدينة القدس وقرر إنشاء «حركة تحرير فلسطين» أو «فتح». وأقام لهذه الغاية معسكرات تدريب للفلسطينيين، وانتخب الشقيري رئيساً للجنة التنفيذية لحركة التحرير.

وأعلنت شرعة هذه الحركة في ٢ حزيران (يونيو) ١٩٦٤، فجاء فيها رفض تقسيم فلسطين، واعتبار قيام دولة إسرائيل غير شرعي، واعتبار فلسطين وحدة لا تتجزأ ضمن الحدود التي كانت لها في عهد الانتداب البريطاني.

وتم عقد مؤتمر قمة عربي خلال العام نفسه، فأقر مشروع تحويل روافد الأردن؛ إلا أن هذا المشروع بقي حبراً على ورق، كما بقي كذلك اقتراح حركة التحرير بإنشاء جيش تحرير فلسطين في سيناء.

وبين عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٦ نشبت معارك شديدة بين الفدائيين العرب والقوات الإسرائيلية، انطلاقاً من الحدود السورية بشكل أخص. وكان مجمل الفدائيين ينتمي إلى حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» و«العاصفة»، و«جبهة تحرير فلسطين».

لم يقم بين الدول العربية أقل اتفاق عملي على «سياسة فلسطينية حصينة»، إلا أن قضية فلسطين طرحت نفسها بقوة ووضوح لم يكونا لها منذ العام ١٩٤٩ فاسترعت انتباه الرأي العام الدولي.

نحو الحرب

في شباط (فبراير) ١٩٦٦ حدث انقلاب في سوريا رفع إلى مراكز الحكم والقيادة الفئة المتشددة من حزب البعث. ووقع الرئيس عبد الناصر مع دمشق معاهدة دفاع مشترك في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه.

أما الاشتباكات فكانت تتوالى على الحدود وفي داخل فلسطين بين الفدائيين والقوات الإسرائيلية التي راحت تشن غارات انتقامية على المدنيين اضطرت مجلس الأمن الدولي إلى اتخاذ قرار بإدانتها في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦.

وانتهج القادة الإسرائيليون سياسة العنف حيال النظام السوري على أمل أن يزعزعوه، كما حاولوا ذلك عام ١٩٥٦ مع عبد الناصر.

واجتمعت اللجنة المشتركة للهدنة للمرة الأولى منذ سنوات، تلبية لدعوة وجهها إليها أمين عام الأمم المتحدة، فتبين عجزها عن القيام بأقل عمل إيجابي. أما أحداث شهر أيار (مايو) ١٩٦٧ فمعروفة على الصعيدين العربي والعالمي، وخلاصتها أن أنباء وردت من مصادر سوفياتية، وكذّبتها مراجع الأمم المتحدة، مفادها أن إسرائيل تحشد قوات ضخمة على حدودها الشمالية، فطالب السوريون حلفاءهم المصريين بتطبيق معاهدة الدفاع المشترك، فاستنفر جيشا البلدين، وسحبت قوات الطوارىء الدولية تلبية لطلب مصر، في ١٨ أيار (مايو) وفي ٢٠ منه أعلنت الدول العربية تضامنها مع مصر وسوريا إذا شنت إسرائيل هجوماً على هذه أو تلك.

وأخيراً، في ٢٢ أيار (مايو)، أعلن عبد الناصر إقفال مضائق تيران. وتميزت هذه الأحداث المتسارعة وما أدت إليه من نشوب حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بثلاث ظواهر جديدة بالحفظ والتدوين، وهي:

١ ـ تصرف الفئات المحاربة.

٢ ـ قرار أمين عام الأمم المتحدة.

٣ ـ موقف الدول الكبرى.

في ما يتعلق بالظاهرة الأولى، أجمع المراقبون على أن الدول المعنية الثلاث، مصر، وسوريا، وإسرائيل، لم تكن راغبة في خوض تلك الحرب. وذهب بعضهم إلى القول بأن الرئيس عبد الناصر أراد تلبية المطلب السوري، على أمل أن يحقق انتصاراً سياسياً دون خسائر عسكرية، مع أنه يعلم حق العلم أن إقفال مضيق تيران هو سبب كافٍ لحمل إسرائيل على القتال، وهذا ما أكدته الحكومة الإسرائيلية في ٣٠ أيار (مايو) إذ أعلنت أنها مستعدة لأن تلجأ إلى القوة، وأن تخوض الحرب وحدها إذا دعت الحاجة لفتح مضيق تيران.

وفي ما يتعلق بقرار الأمين العام للأمم المتحدة، يو ثانت، فقد قوبل بانتقاد شديد من الوجهة القانونية، لوجود مذكرة سرية تعهد بها عبد الناصر للأمين العام السابق بأن لا يطلب انسحاب قوات الطوارىء إلا بعد الاتفاق عليه بين الحكومة المصرية والمنظمة الدولية. وكان الطلب الذي أعلنه الرئيس المصري بمثابة إنذار وجهه إلى الأمم المتحدة من غير أن ينتظر موافقتها.

أما موقف الدولتين العملاقتين فقد توخى، قبل كل شيء، الحؤول دون المواجهة بينهما. وفي هذا السبيل، وجهت كل منهما إلى الجانب المحسوب عليها كل ما في وسعها من النصائح والتحذيرات. وطالبت كل منهما بالمحافظة على الأوضاع الراهنة. ولكن أمر الحرب كان قد تقرر في مكان آخر.

الاحتلال

في اليوم الأول لنشوب حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، بادر مجلس الأمن الدولي إلى تحمل مسؤولياته وخلافاً لموقفه عام ١٩٥٦، فاتخذ قرار بوقف إطلاق النار رقمه ٢٣٤ تاريخ ١٩٦٧/٦/٧.

وكان الأردن قد انضم إلى الجبهة العربية في أواخر القتال فقبلت كل من مصر وإسرائيل قرار وقف إطلاق النار، واشترطت سورية والأردن قبول إسرائيل ليقبلا.

في ٩ حزيران (يونيو) وافقت سوريا وإسرائيل على وقف القتال، ولكن القوات الإسرائيلية تابعت تقدمها في مرتفعات الجولان السورية طوال يومين رغم صدور قرار وقف النار والقبول به.

وأذعن مجلس الأمن لهذا الأمر الواقع في القرار رقم ٢٣٧ الذي اتخذه في ١٤ حزيران (يوُليو) إلا أنه توسل إلى إسرائيل أن تسهر على سلامة سكان المناطق المحتلة.

ولما تناولت الجمعية العامة للأمم المتحدة هذه القضية في دورة استثنائية بتاريخ ١٧ حزيران (يوليو)، دلت مناقشاتها على أن أكثرية الأعضاء تستنكر الاحتلال الإسرائيلي لبعض الأراضي العربية، وتربط انتهاء النزاع المسلح بانسحاب إسرائيل من هذه الأراضي. وهناك من قام يعلن أن إسرائيل لا تستطيع تبرير هجومها العدواني، بمواقف عبد الناصر، مهما تكن هذه المواقف متطرفة، لأن مصر تدافع عن حق واضح، بينما وجود إسرائيل هو، بحد ذاته، عدوان على العرب في أرضهم وشعبهم. وفي هذا الجو المحموم، انتهت الجمعية العمومية إلى اتخاذ قرار ببذل كل المساعدات الإنسانية وبإدانة إسرائيل على ضم الجزء الشرقي من القدس إلى ممتلكاتها في ٢٧ و ٢٨ حزيران (يوليو). وتجدر الإشارة إلى أن نص القرار أورد عبارة الجزء الشرقي عوضاً عن الجزء العربي من القدس. وهذا منتهى المهارة في تحوير الحقائق وتزوير التاريخ، بهدف نزع الصفة العربية والهوية الحقيقية عن المدينة المقدسة (قرار الجمعية العامة رقم ٢٢٥٣ تاريخ ٤ تموز (يوليو) ١٩٦٧، والقانون الصادر عن الكنيست الإسرائيلي بتاريخ ٢٧/٦/١٩٦٧ في موضوع حماية الأماكن المقدسة).

وفي الخريف، اجتمع مجلس الأمن مراراً ليدرس الحالة في الشرق الأوسط، وتحديد أسباب خرق اتفاقيات الهدنة، فأسفرت اجتماعاته عن تبني قراراً بالإجماع في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ قدمه الوفد البريطاني وهو القرار رقم ٢٤٢ (راجع نص القرار في الملحق).

واحتوى القرار على مبدأين أساسيين هما:

١ ـ انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة.

٢ ـ احترام سيادة كل دول المنطقة وسلامة أراضيها.

والمشكلة الكبيرة في هذا القرار هي اللبس الوارد في النص الإنكليزي القائل: «انسحاب القوات الإسرائيلية من أراضٍ محتلة»، بينما النص الفرنسي يجزم بأن الانسحاب يجب أن يشمل «الأراضي العربية المحتلة».

ومن الواضح أن الفرق شاسع بين تجهيل النص الإنكليزي، وتعريف النص الفرنسي.

بهذا اللبس المقصود، اصطدمت وساطة الدكتور يارنغ، وعليه تحطم اللاسلم واللاحرب (١٩٦٧ ـ ١٩٧٣).

أسفرت حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ عن تبدل معطيات الصراع العربي الإسرائيلي كلها تبدلاً عميقاً وبعيد المدى، مما جعل إمكانات الحل تتقلص وتتوارى عن البصائر، في مختلف التطورات العسكرية والديبلوماسية والسياسية. وأهم هذه المعطيات الجديدة كانت:

١ ـ أثبتت حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ أن نسبة القوة العسكرية في الشرق الأوسط ليست لمصلحة العرب، فالأيام الستة التي استغرقها القتال أنزلت بهم خسائر موجعة: ألوف القتلى والجرحى، موجة لاجئين جدد، تدمير العتاد الحربي المصري، احتلال قسم كبير من الأراضي المصرية والأردنية والسورية، اضطراب وارتباك مخيف في الرأي العام العربي.

والأفدح من تلك الهزيمة الكارثة أن انقلاب ميزان القوى لم يكن قريباً ولا حتى ممكناً في زمن ملحوظ، مهما تكثفت المساعدات السوڤياتية، خصوصاً لأن مصر تخلت عن عدد كبير من المستشارين السوڤيات الذين كانت تستعين بهم، لأن الاتحاد السوڤياتي رفض تزويدها بما طلبت من الأسلحة المتطورة، وكان ذلك في تموز (يوليو) ١٩٧٢.

٢ ـ اكتسبت إسرائيل، باحتلالها مساحات كبيرة من الأراضي العربية أوراقاً رابحة في كل ما يمكن أن يحدث بعد الحرب من المفاوضات والتسويات خصوصاً على الصعيد الستراتيجي، ناهيك بأنها أبعدت عن

حدودها الأساسية خطر كل هجوم قد يشنه العرب عليها مستقبلاً.

وأثبتت الأحداث فيما بعد أن إسرائيل لم تكن تعتبر هذه الأراضي المحتلة بمثابة عملة تبادل لكسب السلام، بل اعتبرتها غنائم حرب أو قطعاً مستعادة من «أرض الميعاد» التي هي من وطن اليهود الممتد من النيل إلى الفرات. وعلى أساس هذا المفهوم أعلنت أن الأراضي المحتلة أصبحت جزءاً لا يتجزأ منها، وراحت تبني المستعمرات وتوطن المهاجرين الجدد، وتقيم التحصينات الضخمة.

٣ ـ أدى الاحتلال إلى تهديد وحدة الأردن الذي انتزعت منه أكثف مناطقه عمراناً وسكاناً وإنتاجاً زراعياً وصناعياً، وإلى اختلال توازن السياسة المصرية.

ولما كانت هاتان الدولتان العربيتان لا تستطيعان التخلي عن أراضيهما المحتلة، فقد اضطرتا إلى القبول بفتح باب المفاوضات. وفي مؤتمر القمة العربي الذي عقد في الخرطوم بين آب (أغسطس) وأيلول (سبتمبر) ١٩٦٧، اتخذ قرار بناء على رغبة الرئيس عبد الناصر والملك حسين، باللجوء إلى مختلف التدابير السياسية والدبلوماسية لإزالة آثار العدوان الصهيوني.

إلاّ أن نص مقررات الخرطوم يدل دلالة واضحة على أن الاتفاق لم يكن تاماً بين الدول العربية، فهناك من استنكر اللاءات الثلاث الواردة فيه، وهي: لا اعتراف بإسرائيل، لا تفاوض معها، ولا سلام.

وبعد ثلاثة أشهر قبلت مصر والأردن القرار ٢٤٢ الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي، ورفضته سوريا، فكان هذا القبول نقضاً لقرار مؤتمر الخرطوم من قبل القاهرة وعمان.

وعلى الرغم من حرب الاستنزاف التي أعلنها عبد الناصر، وكثرت فيها عمليات القصف وحوادث الحدود طوال عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠، ظلت سياسة مصر والأردن متجهة إلى اعتماد المفاوضة لاستعادة الأراضي المحتلة.

٤ ـ تغيرت مقاييس القضية الفلسطينية كلها، طولاً وعرضاً وعمقاً، ولا سيّما غزة التي يقطنها عدد كبير من المهجرين الفلسطينيين، ونبّه ذلك الواعين

من العرب وغير العرب إلى ضرورة إيجاد حل عادل لهذه القضية برمتها.

إنَّ اتخاذ القرار ٢٤٢ بالإجماع في مجلس الأمن الدولي، في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ يعتبر خطوة واسعة إلى الأمام على طريق حل القضية الفلسطينية، لأن الأمم المتحدة لم تكن اتخذت قبله، منذ العام ١٩٤٧، موقفاً معيناً من مأساة الشعب الفلسطيني والنزاع الناشب بين العرب والصهاينة.

وأهم ما في هذا القرار، «إقامة السلام على أساس الاعتراف بسيادة دول المنطقة، وحقها في الحياة والحرية والسلم في داخل حدود آمنة ومعترف بها»، وضرورة انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة، حيث أن عدد المطالبين بهذا الأمر يزداد بين الدول الأعضاء.

في المقابل أصرت إسرائيل على أن يتم السلام عن طريق التفاوض المباشر بينها وبين العرب، وأعلنت تكراراً أنها لن تنسحب من الأراضي المحتلة قبل الوصول إلى حل شامل ونهائي، وأن هذا الحل لن يكون إلا بتصحيح الحدود، لأنها تعتبر حدود الرابع من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ غير آمنة وغير دقيقة.

لكنّ الدول العربية اعتبرت هذه الشروط تعسفية وتعجيزية، فرفضتها، ورفضت حتى فتح باب التفاوض، ما دامت إسرائيل مستولية على شبر واحد من الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧.

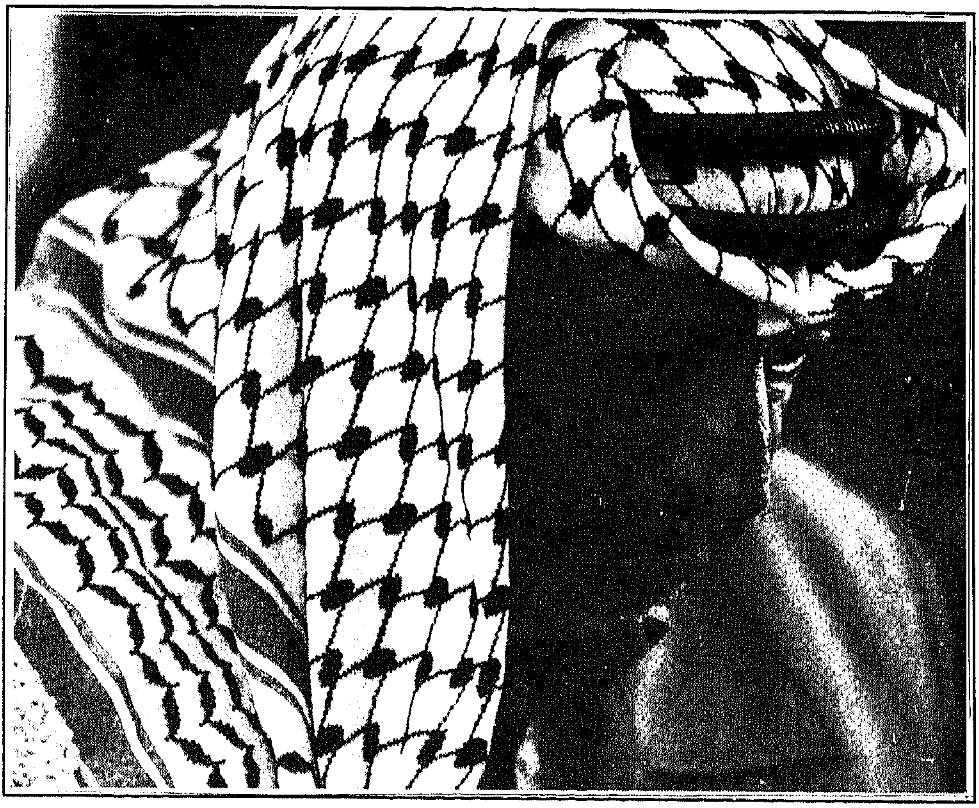
وتمسك كل فريق بموقفه، لا يحيد عنه قيد أنملة، فاستمرت الحال هكذا حتى تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٧٣، في غمرة من المقترحات المتناقضة والمحاولات العقيمة التي لا تكاد تظهرُ حتى تضمحل.

التطور العسكري والديبلوماسي

يبدو التناقض جلياً، على الصعيد العسكري بين جبهة قناة السويس وجبهة شمال إسرائيل، طوال هذه الحقبة من القضية الفلسطينية.

فعلى جبهة قناة السويس قرر الرئيس عبد الناصر، في تموز (يوليو)

١٩٦٩ أن يشن حرب الاستنزاف. فاستغل الإسرائيليون تفوقهم الجوي ليشنوا غارات ضارية سببت فرار مئات الألوف من المدنيين، وأدت إلى تدمير المدن المجاورة للقناة. وقد عانت مصر الأمرّين في تلك المعارك، فقبلت، عام ١٩٧٠، مشروع الوزير الأميركي روجرز للسلام، وبوشر تنفيذه في ٧ آب (أغسطس) من العام نفسه، وقد وافق على هذا المشروع كل من الاتحاد السوڤياتي والأردن وإسرائيل، وهو يقضي بعودة وقف النار مدة ثلاثة أشهر بين مصر وإسرائيل، وباستئناف وساطة الدكتور يارنغ الذي أخفق في محاولاته السابقة الرامية إلى الاعتراف المتبادل، وانسحاب القوات الإسرائيلية. وقد نجح جزئياً، إذ استمر إطلاق النار منقطعاً حتى آذار (مارس) ١٩٧١، وتوقف بعدئذٍ نهائياً.



ياسر عرفات

أما على الجبهات الأخرى فراحت القوات الإسرائيلية تواجه المنظمات الفلسطينية. واستأنفت منظمة «فتح» عملياتها منذ آب (أغسطس) ١٩٦٧، وتلتها المنظمات الأخرى، ولا سيما الجبهة الشعبية، والجبهة الديموقراطية.

واشتد تأثير هذه المنظمات بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٧٠. وأدخل تعديل على شرعة العام ١٩٦٤ في المؤتمر الفلسطيني القومي الرابع، في تموز (يوليو) ١٩٦٨، دل على نمط جديد من أسلوب العمل الفدائي والكفاح في سبيل القضية الفلسطينية.

وكان ياسر عرفات، رئيس حركة فتح أبرز رؤساء المنظمات، وأكثرهم اعتدالاً، فتولى في شباط (فبراير) ١٩٦٩ رئاسة اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وقيادة كفاح الجيش الفلسطيني، واتخذ كل التدابير اللازمة لتنسيق أعمال مختلف المنظمات والفصائل التابعة للثورة.

وبرزت طروحات عديدة عن مستقبل الحل المنشود، فكانت أشهرها تلك الداعية إلى إقامة دولة ديمقراطية يتعايش فيها العرب واليهود على قدم المساواة في الحقوق والواجبات.

وابتداءً من العام ١٩٧٠ أخذت مسيرة المقاومة تصطدم بسيادة الدولة في كل من الأردن ولبنان، بعد انفلاش الأعمال العسكرية مما أدى إلى مأساة أيلول (سبتمبر) الأسود في الأردن وإلى مناوشات مع الجيش اللبناني عام ١٩٧٣، وحمل الوضع القائم آنذاك الفدائيين على القيام بعمليات خطف طائرات مدنية ومهاجمة مؤسسات صهيونية في مختلف أنحاء العالم.

وعلى الصعيدين السياسي والديبلوماسي، بدت قضية فلسطين وكأنها مجمدة، لإمعان إسرائيل في مواقفها المتصلبة، ولتعمدها التعجيز في تصعيد مطالبها التي تلخص بما يلي:

١ ـ رفض العودة إلى حدود ٤ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ رفضاً باتاً، حتى لو قبل العرب بعقد معاهدة صلح معها.

٢ ـ الإصرار على تجريد سيناء من السلاح.

٣ ـ المفاوضة على الجبهة الشرقية بشرط أن يصرف النظر نهائياً عن إقامة دولة فلسطينية على الضفة الغربية.

ولم تخفق محاولات الدكتور يارنغ إلا لاصطدامها بهذه المطالب التعجيزية عام ١٩٧١.

ولما عرض نتائج أعماله منذ عام ١٩٦٨ في مذكرة وضعها في ٨ شباط (فبراير) ١٩٧١، قال فيها إنّه وصل إلى طريق مسدود لا مخرج له إلاّ إذا تعهدت إسرائيل بالانسحاب إلى حدود ٤ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ على طول الجبهة المصرية، وتعهدت مصر بعقد معاهدة صلح مع إسرائيل.

وفي أوائل تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ كان الهدوء يسود خطوط وقف النار على جبهة القناة والجبهة الأردنية، ولم تكن الحوادث التي توالت على الحدود السورية اللبنانية لتؤثر في تفوق إسرائيل عسكرياً.

ولما وضع أمين عام الأمم المتحدة تقريره السنوي، ذكر فيه أنه لا يبدو له أن هناك أساساً مشتركاً للمفاوضة بإشراف الدكتور يارنغ، وقيل أن هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأميركية ينوي القيام بمبادرة لإحلال السلام في الشرق الأوسط.

الفصل السادس عشر

حرب ١٩٧٣
(العبور)

قبيل تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣، كانت صورة الشرق الأوسط السياسية قد تغيرت، خصوصاً من جراء تصلب المواقف الإسرائيلية، والتي كانت تدل على نية نهائية بالاستيلاء على الأراضي المحتلة، وترددت عدة تصريحات إسرائيلية بهذا المعنى.

في الجانب العربي، تضامنت مصر وسوريا تضامناً تاماً، وبذلتا جهود حثيثة للتفاهم مع ليبيا التي تولى قيادتها معمر القذافي على أثر انقلاب ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٦٩. وحدث تقارب مرموق بين مصر وسوريا من جهة، والمملكة العربية السعودية من جهة أخرى، وشمل هذا التقارب الكويت وقطر. وكان اتفق في الخرطوم عام ١٩٦٧ على أن تقوم دول المساندة بدعم دول المواجهة في القتال ضد العدو الإسرائيلي.

في تلك الأثناء، حرصت القاهرة على إقناع الولايات المتحدة بأنها تريد السلام، وانتهجت سياسة منفتحة من شأنها أن تعطي واشنطن كل الضمانات الدالة على رغبة الجانب العربي في إنهاء النزاع، لاعتقاد القيادة المصرية بأن واشنطن وحدها قادرة على إكراه إسرائيل وحملها على القبول بحل عادل للقضية الفلسطينية.

وبادرت السعودية إلى إبلاغ الولايات المتحدة بأنها مستعدة لاستعمال سلاح النفط حتى يتم تنفيذ القرار ٢٤٢ المتخذ عام ١٩٦٧.

توالت هذه الأحداث فيما كان عبد الناصر وخلفه أنور السادات يرددان أنهما مكرهان على اللجوء إلى الحرب إذا أخفقت المحاولات المبذولة للوصول إلى السلام.

ولا ريب في أن الحرب التي شنتها سوريا ومصر على إسرائيل في ٦

تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ قلبت الأوضاع رأساً على عقب، ولم تكن منتظرة قطعاً على الصعيد الدولي، وأهم ما أسفرت عنه أنها أزالت الوهم السائد عالمياً، وخصوصاً لدى الخبراء العسكريين، عن تفوق إسرائيل ومناعتها المطلقة. ثم إنها فتحت الطريق إلى المفاوضات المباشرة القائمة على علاقات ومعطيات جديدة بين المتحاربين.

عِبر الحرب ودروسها

أعطت حرب العام ١٩٧٣ ثلاثة أنواع من الدروس والعِبر المستفادة، عسكرية، سياسية، وديبلوماسية.

١ ـ فعلى الصعيد العسكري، كانت حرب تشرين (اكتوبر) مفاجأة تامة، لم يسبقها إعداد نفساني، ولا تظاهرات تسترعي الاهتمام أو حتى الانتباه في أحد البلدان العربية. لقد تقرّرت سراً بين الرئيسين المصري والسوري، ولم يعرف الأردن عنها سوى جزئيات ضئيلة.

ولم تكن إسرائيل تتوقع الحرب، ففوجئت بها مفاجأة قاسية. فلا الحكومة ولا هيئة الأركان، ولا دوائر الاستخبارات استطاعت أن تفسر تفسيراً صحيحاً ما تلقت من المعلومات منذ نهاية أيلول (سبتمبر) ١٩٧٣. فتقدير إمكانات الجيوش العربية في الهجوم دون قدرها الحقيقي ألقى عبئاً ثقيلاً من المسؤولية على غولدا مائير، رئيسة الحكومة الإسرائيلية، ووزير دفاعها موشي دايان. والدليل على تفاقم الأزمة وحدتها نجده في الصعوبات التي واجهها كبار السياسيين في تأليف حكومة بعد انتخابات ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣.

ولا ريب أن حرب تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ سجلت نصراً كبيراً لكل من سوريا ومصر.

٢ ـ على الصعيد السياسي، أثبتت حرب تشرين (اكتوبر) إفلاس السياسية التي أصرّت إسرائيل على اتباعها، وبينت أن هدف العرب هو واحد على الرغم من تباين وجهات النظر بين أنظمتهم المختلفة.

فالسياسة الإسرائيلية، بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، بدت وكأنها قائمة على دعامتين اثنتين تتلازمان ولا تمسان:

الأولى: الاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة بمثابة ورقة رابحة في كل مفاوضات مقبلة، وضمانة تحول دون قيام العرب بأقل اعتداء على إسرائيل.

الثانية: المحافظة على تفوق إسرائيل عسكرياً وتقنياً، تفوقاً مرموقاً على جيرانها العرب، مهما يكن العبء ثقيلاً على الدخل القومي والحياة الاقتصادية.

٣ ـ على الصعيد الديبلوماسي: أكدت الحرب أن العملاقين السوفياتي والأميركي هما وحدهما اللذان يقبضان على مفتاح الحل للقضية الفلسطينية وأن حرب تشرين (اكتوبر) وضعت على محك التجربة سياسة الوفاق الدولي التي أقراها عام ١٩٧٢.

أما مجلس الأمن الدولي الذي سارع سنة ١٩٦٧ إلى اتخاذ قرار وقف النار، فقد حاول الوصول إلى حل في الاجتماعين اللذين عقدهما في ٨ و١٢ تشرين الأول (اكتوبر)، فسكوته التام ترك الميدان مباحاً للولايات والاتحاد السوفياتي، فكان على كل منهما أن يمنع حلفاءه من متابعة القتال.

وليل ٢١ تشرين الأول (اكتوبر)، اتخذ مجلس الأمن القرار ٣٣٨ الذي اشترك في وضعه كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

ويدل نص هذا القرار على التنازلات المهمة المطلوبة من مصر وإسرائيل. ثم إنه يقر فتح المفاوضات فوراً «تحت إشراف الجهات الملائمة، أو صاحبة الشأن وتنفيذ القرار ٢٤٢ المتخذ عام ١٩٦٧».

قبلت مصر هذا القرار، وقبلته أيضاً إسرائيل والأردن، إلاّ أن الإسرائيليين تابعوا حتى ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر) مناوراتهم في تطويق الجيش المصري الثالث، مما حمل مجلس الأمن على اتخاذ قرارين آخرين، في ٢٣ و ٢٥ تشرين الأول (اكتوبر)، مطالباً الجانبين المتنازعين بالانكفاء إلى المراكز التي كانا فيها لدى صدور القرار ٣٣٨.

بعد هذه التدابير وصل المراقبون الدوليون تلبية لطلب ممثلي الدول غير المنحازة في مجلس الأمن، وأنشئت قوة الطوارىء.

وقبلت سوريا القرار ٣٣٨ في ٢٤ تشرين الأول (اكتوبر).

وفي أواخر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣، احتلت قوات الطوارىء الدولية مراكزها في سيناء والجولان، ومنها مراقبون مهمتهم السهر على تنفيذ وقف النار.

رؤيا الحل

يبقى القرار ٢٤٢، على صعيد الحقوق والقانون، القاعدة الأساسية لحل القضية الفلسطينية ويضاف إليه القرار ٣٣٨ الذي حظي بقبول الدول المعنية بما فيها سوريا.

إلاّ أن الأوضاع السياسية التي كانت فعّالة بعد حرب ١٩٦٧ قد تغيرت الآن، وبين المشكلات المستجدة التي ظهرت بعد حرب تشرين:

استئناف مؤتمر جنيف، وحضور المقاومة الفلسطينية إليه أو عدم حضورها. وفي مؤتمر رؤساء الدول العربية الذي عقد في مدينة الجزائر خلال تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣، وتخلف عنه كل من العراق وليبيا. أجمع المؤتمر على أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

ولما عقد المؤتمر الإسلامي في لاهور، خلال شباط (فبراير) ١٩٧٤، ثبت مقررات الجزائر وأعلن منظمة تحرير فلسطين ممثلة شرعية وحيدة للشعب الفلسطيني.

لقد رأت منظمة فتح، والصاعقة، والجبهة الديموقراطية، والجبهة الشعبية أن دورها الثانوي في الحرب، واتفاقات فك الارتباط، ومؤتمر جنيف هي من العوامل البالغة الخطورة الرامية إلى اقصائها عن حل قضيتها الأساسية. فتنادت إلى التضامن، وعمدت إلى تحديد مطالبها وأهدافها، فتمكنت من إثبات وجودها، على الصعيدين العربي والدولي.

وعلى هذا الخط السياسي الواضح، وضع المجلس الفلسطيني القومي على أثر اجتماع عقده في القاهرة بتاريخ ٩ حزيران (يونيو) ١٩٧٤، تقريراً إضافياً، رفض فيه القرار ٢٤٢ لاعتباره الفلسطينيين المقيمين خارج فلسطين «لاجئين»، كما رفض الاعتراف بإسرائيل والتفاوض معها، وطالب بإقامة كيان فلسطيني مستقل ومناضل على قسم من الأرض الفلسطينية المحررة.

وهكذا اتخذت المقاومة الفلسطينية موقفاً رفضت فيه التخلي عن أهدافها على المدى الطويل.

في هذه الأحوال، اضطر الأردن إلى بعض التراجع، وكان الملك حسين قد اقترح في آذار (مارس) ١٩٧٢، تقسيم مملكته إلى ولايات يجمعها نظام فدرالي، ويكون فيها الأردن إلى جانب فلسطين، لتعذر عقد الصلح مع إسرائيل. فرفضت المنظمات الفلسطينية هذا الاقتراح، كما رفضته الدول العربية.



سياسة الاستيطان

وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٣ اقترح الملك حسين إجراء استفتاء دولي، لدى انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية، فيتاح للفلسطينيين، على ضفتي الأردن، أن يختاروا بين الاندماج بالمملكة الأردنية، أو النظام الفدرالي المقترح سابقاً، أو إقامة دولة فلسطينية مستقلة. وكان الحل الوسط بين مواقف الحسين والموقف الفلسطيني، تأليف وفدين، كل منهما مستقل عن الآخر إلى مؤتمر جنيف.

وأمام كتلة الدول العربية والمنظمات الفلسطينية التي صعد بعضها الأعمال الفدائية في داخل فلسطين، رأت إسرائيل نفسها في وضع حرج. وبين ٣١ كانون الأول (ديسمبر) و ٣ حزيران (يونيو) ١٩٧٤ كانت بلا حكومة، إذ استقالت حكومة غولدا مئير، وطال التنابذ قبل مجيء حكومة رابين. غير أن المراجع الإسرائيلية تصلبت في مواقفها التقليدية بحيث أنها رفضت التفاوض مع المنظمات الفلسطينية في جنيف، أو إقامة دولة عربية مستقلة في الضفة الغربية، ولكنها بالمقابل قبلت توقيع معاهدة سلام مع الأردن على أساس استقلال الدولتين المتعاقدتين.

ولا ريب في أن العقدة التي تعمدت إسرائيل إيجادها لعرقلة مسيرة الحل هي رفض الاعتراف بحق المقاومة في تمثيل الشعب الفلسطيني أو التكلم باسمه. وبقيت هناك مشكلات الأراضي المحتلة، فإسرائيل ما برحت تصر على البقاء في بقعة كبيرة من سيناء، وشرم الشيخ، وفي القسم الأكبر من الجولان ناهيك بأن متعصبيها يطالبون بضم الضفة الغربية نهائياً، وبأن مصير القدس ما يزال غامضاً، وكذلك مصير غزة.

الفصل السابع عشر

الانتفاضة
و
الحكم الذاتي

سجلت نهاية حقبة السبعينات آثار سيئة وبالغة الخطورة على موضوع التضامن العربي والقضية الفلسطينية.

فزيارة السادات لإسرائيل في أوائل السنة ١٩٧٨ أخرجت مصر من دول المواجهة، ومن ثم، جعلتها تسير في ركب كامب دايڤيد وأطر الحل المنفرد مع الدولة العبرية.

وكان لدخول إسرائيل إلى الأراضي اللبنانية في ١٤ آذار (مارس) ١٩٧٨ أو احتلالها لقسم من هذه الأراضي أبلغ الوقع والأثر السيىء.

وتميزت مرحلة مطلع الثمانينات كذلك بعملية عسكرية إسرائيلية واسعة استهدفت لبنان وأخرجت منه منظمة التحرير الفلسطينية.

لكن برغم حدة الأجواء وعدم وضوح الصورة أخذ قبس نير يظهر في سماء فلسطين تماماً كما ظهور النجم الذي تلألأ في سماء الشرق عشية ميلاد المخلص، السيد المسيح عليه السلام. وأجواء فلسطين تعرف قيمة مثل هذه الأنوار.

الانتفاضة

تصور التوراة في سفر صموئيل الأول كيفية قضاء داود على جوليات فتقول: «. . . ثم أخذ عصاه بيده وانتقى خمسة حجارة ملسٍ من الوادي ووضعها في جيب كيس الراعي الذي له، ومقلاعه بيده، وتقدم من الفلسطيني. . . وكان، لما نهض الفلسطيني وذهب وتقدم لملاقاة داود، أن داود أسرع وركض نحو صف القتال لملاقاة الفلسطيني. ومدّ داود يده إلى الكيس وأخذ منه حجراً وقذف بالمقلاع، فضرب الفلسطيني في جبهته، وانغرز الحجر في جبهته، فسقط على الأرض».

لم نضع هذه الأسطر لاستعادة ذكريات ماضية، إنما لنقول أن الصورة اليوم تبدو مقلوبة والسحر منقلباً على الساحر. وما عجزت عنه ربما أساطيل ودول وتحالفات وسنوات كثيرة من الكفاح والعمليات، استطاعت حفنة صغيرة من شعب يرفض الاستسلام بأطفاله ونسائه وشيوخه وشبانه، أن تحققه في بضع سنوات، وقدرت على إنزال الهزائم المتتالية بالآلة العسكرية الجبارة التي كانت لسنين ماضية لا تقهر.

نعم استطاع أطفال بيت لحم، والناصرة، ورام الله، والخليل، وغزة، وكل القرى والدساكر الفلسطينية أن يحولوا أرضهم، وشوارعهم وأزقتهم إلى مكامن، إلى ساحات مواجهة يسودها الرعب رعب العدو لحمله على إنهاء عدوانه.



اندلاعها مفصل حاسم في تاريخ القضية الفلسطينية

فتراجعت إسرائيل أمام ضربات الحجارة، وتراجعت أمام الفدائيين الذين يذهبون إلى الاستشهاد مختارين.

ولم تعد آلة الحرب بقادرة على وقف المواجهات وإن عبأت بنادقها برصاص الغدر والقذائف المطاطة أو إن هي راحت في لعبة الحديد والنار حتى النهاية.

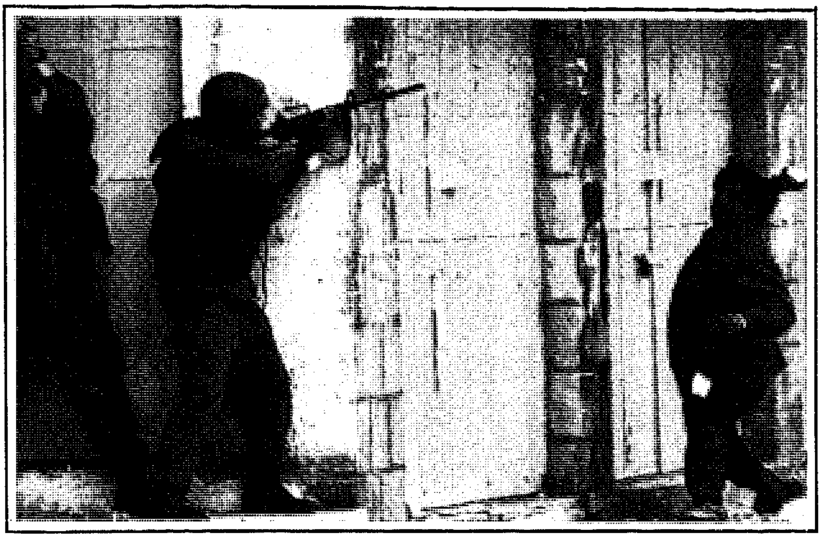
والمفارقة الصعبة هي في أن ذاك الفلسطيني قتل يوماً بمقلاع داود، أما اليوم فإن ذاك الفتى الفلسطيني المستعد للمواجهة لا يعبأ إلا بالنصر وإسرائيل تبدو هي المنهزمة في ثورة الحجارة. وهذا ما دفع بقادتها إلى القبول بمبدأ التفاوض، ومع العدو الألد الذي كانوا يطالبون برأسه، منظمة التحرير الفلسطينية.

ولأن المفاوضات بجانبها الأكبر حصلت بشكل سري، وقد يمضي وقت طويل قبل اكتشاف وكشف أسرارها وأرشيفها ووثائقها، سنكتفي بالاشارة إلى اتفاقية أوسلو التي يعول اليوم على بنودها للوصول إلى طريق للحل. هذه الاتفاقية التي سميت اتفاقية غزة ـ أريحا أولاً. أعطت للسيد ياسر عرفات مناطق للحكم الذاتي الفلسطيني حدودها حدود غزة ـ وأريحا، فلنرَ أهم الأشياء التي اتفق عليها في أوسلو.

اتفاق غزة ـ أريحا

دامت المفاوضات بين الوفد الفلسطيني والإسرائيلي حوالي ثمانية أشهر، منذ مؤتمر مدريد للسلام الذي تبنى قرارات الشرعية الدولية، ومبدأ الأرض مقابل السلام. وإذا سأل سائل عن الذي جرى في كواليس وأروقة الخارجية النروجية في أوسلو، يمكن أن يكون الجواب بأن الذي تم هو ولادة وثيقة، هي الأولى من نوعها في تاريخ الصراع العربي ـ الإسرائيلي وذلك منذ قيام إسرائيل عام ١٩٤٨، واندلاع المرحلة المعاصرة لثورة الشعب الفلسطيني عام ١٩٦٥ من ناحية ثانية.

وهي وثيقة تحمل العنوات التالي: «إعلان مبادىء حول ترتيبات الحكومة الذاتية الانتقالية» للشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة.



الحجارة تقاوم البندقية

ويتكون هذا الإعلان من عمود فقري يشمل مقدمة وسبع عشرة مادة تعالج كل مادة قضية محددة.

تبدأ المادة الأولى بإيضاح أن هدف المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية هو: «إقامة سلطة حكومية ذاتية انتقالية فلسطينية، والمجلس المنتخب للشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، لفترة انتقالية لا تتجاوز السنوات الخمس. وتؤدي إلى تسوية دائمة تقوم على أساس قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨».

أما بقية المواضيع فتتناول التالي: إطار الفترة الانتقالية، الانتخابات، الولاية الجغرافية، الفترة الانتقالية ومفاوضات الوضع الدائم، النقل التمهيدي للصلاحيات والمسؤوليات، الاتفاق الانتقالي، النظام العام والأمن، القوانين والأوامر العسكرية، لجنة الارتباط المشتركة الإسرائيلية ـ الفلسطينية، التعاون بين البلدين في المجالات الاقتصادية، الارتباط والتعاون مع مصر والأردن، إعادة انتشار القوات الإسرائيلية، الانسحاب الإسرائيلي الكامل من قطاع غزة ومنطقة أريحا، أساليب تسوية المنازعات الناشئة عن تطبيق أو تفسير إعلان المبادىء أو أية اتفاقيات لاحقة، التعاون الإسرائيلي ـ الفلسطيني في ما يتعلق

بالبرامج الاقليمية، دخول الاتفاق حيز التنفيذ بعد شهر واحد من توقيعه واعتبار البروتوكولات الملحقة جزءاً لا يتجزأ من الاتفاق. وقد ألحق به خمسة بروتوكولات هي:

١ ـ الأول خاص بمشاركة فلسطينيي القدس في انتخابات المجلس الفلسطيني للسلطة الوطنية.

٢ ـ البروتوكول الثاني ينظم انسحاب القوات الإسرائيلية الكامل من قطاع غزة، ومنطقة أريحا.

٣ ـ يدور حول التعاون الإسرائيلي ـ الفلسطيني في البرامج الاقتصادية والتنموية.

٤ ـ التعاون الإسرائيلي ـ الفلسطيني في البرامج الاقليمية.

٥ ـ مسؤولية إسرائيل عن الأمن الخارجي والأمن الداخلي والنظام العام للمستوطنات والإسرائيليين.

وسوف نحاول أن نلقي نظرة سريعة على الجانب الأمني من الاتفاق كون الجوانب السياسية لا تزال مبهمة رغم التوقيع عليه ولا يُعرف بالضبط لغاية الآن المدى الذي ستبلغه إسرائيل في التنفيذ، فهل تلتزم بكل ما تعهدت به؟ رغم أنها تقول أن العملية لا تتعدى إطاراً للحكم الذاتي والإدارة الخاصة؟

رغم إصرار الرئيس عرفات على أن ما جرى هو خطوة أولى باتجاه الدولة الفلسطينية المستقلة ويؤكد أن عاصمتها ستكون القدس. علماً بأن نصوص الحكم الذاتي لا تشير إلى القدس إلا عند الحديث عن حق سكانها الفلسطينيين المشاركة في انتخابات عامة فلسطينية ورغم استمرار هستيريا الاستيطان فيها ومحاولات التهويد. ماذا تقول التحليلات التي حاولت نقد الاتفاق أو الدخول في كنه أسراره وخفاياه؟

«من الناحية الستراتيجية، يعتبر كيان «غزة أريحا» من أعقد الكيانات في العالم، إذ أن الشطرين مفصولان عن بعضهما البعض، كما أنهما محاصران من القوات الإسرائيلية، بالإضافة إلى وجود المستوطنات اليهودية داخل مناطق الحكم الذاتي.

وأفادت الدراسات التي صدرت عن معاهد دراسات داخل إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية، أن الجيش وجهاز المخابرات الإسرائيليين يتحملان مسؤولية الأمن الداخلي كاملة في غزة ـ أريحا، خلال الفترة الانتقالية، وذلك لتحقيق سلامة المستوطنين اليهود. أما الشرطة الفلسطينية فستقتصر مهماتها على ملاحقة النشاطات الجنائية وحفظ النظام مثل:

أ ـ المحاكم.

ب ـ نظام السير.

ج ـ التراخيص.

د ـ السجون.

هـ ـ الانتربول.

ولم تتضح صلاحيات الجهة التي ستتعامل مع المخالفين من المستوطنين اليهود الذين يعيشون في مستوطنات قائمة داخل الكيان الفلسطيني، وإن تكن بعض الدراسات الإستراتيجية تفيد بأن هذا الأمر سيبت بالتعاون والعمل المشترك بين الجانب الفلسطيني والإسرائيلي.

أما بالنسبة للأمن الخارجي، فستقوم القوات الإسرائيلية بالتواجد وتأمين السيطرة على الحدود والجسور والموانىء والأجواء، كما ستتمركز في موقعين رئيسيين: الأول يقع شرق منحدرات تلال الضفة الغربية، شرق مستوطنة «معاليه أدوميم» والثاني في المنحدرات الشمالية الشرقية لجبال الضفة الغربية قرب مستوطنة «ميهولة» الواقعة في وادي الأردن.

أما في غزة، فسيكون هناك وجود للقوات الإسرائيلية في منطقة قطيف، وذلك للعمل كعازل بين الحدود الجنوبية لإسرائيل والمنطقة المعزولة من السلاح داخل سيناء. ومن شأن هذا الأمر تمكين تلك القوات من السيطرة على ساحل المتوسط ومنع أي تسلل عبره وتجنب الاحتكاك مع الفلسطينيين.

الأجهزة التي ستستخدمها إسرائيل حول غزة ـ أريحا:

١ ـ الاستطلاع بالتلفزيون.

٢ - رادارات للكشف الأرضي.

٣ - الاستطلاع الراداري البحري.

٤ - الطائرات بلا طيار.

٥ - الاستطلاع الالكتروني.

٦ - الاستطلاع اللاسلكي.

خاتمة

تناولنا تاريخ فلسطين منذ أقدم العصور، واستعرضنا المراحل التي حصل فيها تفاعل الإنسان مع العناصر الطبيعية والبيئية والمناخية ومع الإنسان الآخر بكل أوجهها وانعكاساتها.

فالحضارة، يقول المؤرخ أرنولد توينبي، هي التحدي والرد على التحدي. ولعل الإنسان في هذه البقعة من العالم كان لديه تحديات إضافية.



على طريق دولة فلسطينية: مطار غزة الفلسطينين

أي بمعنى أوضح، ذلك الصراع الذي أهرق الكثير من الدماء، من البغضاء، من التنابذ والتشاحن ولما يزل، رغم حصول استراحة المحاربين لبعض الفترات.

لقد حاولنا خلال رحلة زمنية العودة إلى عمق الحدث التاريخي، ونفض التراكمات الكثيفة التي تكون علقت في الأذهان.

وأنه لمن المفيد جداً توضيح صورة القضية الفلسطينية التي تبقى بلا شك من القضايا الأكثر عدلاً، والتي تبقى بحاجة للوصول بها وبالشعب الفلسطيني إلى إطار للحل يكون عادلاً ودائماً، يأخذ الوقائع والتضحيات.

وإن شعباً يفدي بلاده بهذا المقدار من العطاء والبذل، هو بالتأكيد شعب لن يموت، هو بالتأكيد شعب يستحق أن يحيا في بلاده وأرضه مهما تعالت وتيرة الأحقاد وعملت عوامل البعاد.

قالت الأغنية يوماً بأن نهر الأردن سيمحي آثار القدم الهمجية... ستمحى تلك الآثار. وسترجع فلسطين حرة إلى أبنائها.

ملاحق

ملحق رقم ١

إعلان إقامة دولة إسرائيل

في أرض إسرائيل قام الشعب اليهودي، وفيها اكتملت صورته الروحانية والدينية والسياسية، وفيها عاش حياة ثابتة دولية، وفيها انتج المكتسبات الأدبية القومية والإنسانية العامة، وأورث العالم أجمع كتاب الكتب الخالد.

ولما أجلي الشعب عن موطنه بالقوة، فقد حافظ على عهده في كافة بلاد مهاجره، وما افتر عن الصلاة والتعلق بالأمر بعودته إلى بلاده وتجديد حريته السياسية في أرجائها.

وبدافع صلته التاريخية التقليدية هذه، فقد أقدم اليهود في كل عصر على العودة إلى وطنهم القديم والتملك فيه، وأما في العصور الأخيرة فقد أخذوا يعودون بمجموعهم وطلائعهم ولاجئيهم وحماتهم فأزهروا الأراضي البوار، وأحيوا لغتهم العبرية، وأنشأوا القرى والمدن، وأقاموا عمراناً آخذاً في النمو، ويرنو إلى الاستقلال الدولي.

وفي عام ٥٦٥٧ عبرية للخليقة الموافق عام ١٨٩٧ ميلادية، عقد المؤتمر الصهيوني تلبية لنداء صاحب فكرة الدولة اليهودية المرحوم تيودور هرتسل وأعلن حق اليهود في النهضة الوطنية في بلادهم.

وقد اعترف بهذا الحق في تصريح بلفور في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧ وصودق في صك الانتداب من قبل عصبة الأمم، مما اكسبه مفعولية دولية بنوع خاص، نظراً لتلك الصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين ومنح هذا الشعب الحق في إقامة وطنه القومي من جديد.

إن الكارثة التي حلت باليهود في الآونة الأخيرة التي نحر فيها الملايين

من اليهود في أوروبا ـ إن هذه الكارثة قد عادت وأثبتت بالفعل ضرورة حل مشكلة الشعب اليهودي العديم الوطن والاستقلال، بتجديد الدولة اليهودية في فلسطين التي تفتح أبواب الوطن على مصراعيها لكل يهودي وتمنح الشعب اليهودي موقف أمة متساوية الحقوق ضمن أسرة الأمم.

إن البقية الباقية التي انقذت من المذبحة النازية الفظيعة في أوروبا ويهود سائر البلدان ما فتئوا يلجأون إلى فلسطين رغم كافة المصاعب والمنع والأخطار، ولم ينقطعوا عن المطالبة بحقهم في حياة الكرامة والحرية والعمل الشريف في موطن أمتهم.

وفي الحرب العالمية الثانية ساهم يهود فلسطين بنصيبهم الكامل في صراع الأمم طلباً للحرية والسلام تجاه قوى الظلم النازية، وبهمة جنودهم وجهودهم الحربية اكتسبوا حق تعدادهم بين الشعوب واضعة أساس ميثاق الأمم المتحدة.

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٧ اتخذت هيئة الأمم قراراً يقضي بإقامة دولة يهودية في فلسطين، وطلبت هذه الهيئة من أهالي فلسطين اتخاذ كافة التدابير بأنفسهم لتنفيذ هذا القرار. أما اعتراف الأمم المتحدة هذا بحق الشعب اليهودي في إقامة دولته ليس قابلاً للحرمان.

هذا حق الأمة اليهودية الطبيعي أن تصبح أمة شأن سائر الأمم المستقلة في بلادها ذات السيادة.

وعليه فقد اجتمعنا نحن أعضاء مجلس الشعب ممثلو الجمهور اليهودي في البلاد، والحركة الصهيونية يوم ختام الانتداب البريطاني لفلسطين، وبما لنا من الحق الطبيعي والتاريخي، وبمقتضى قرار هيئة الأمم المتحدة ـ فإننا نعلن هنا الآن إقامة دولة يهودية في أرض إسرائيل، هي دولة إسرائيل.

هذا وإننا نقرر أنه ابتداء من الدقيقة التي ينتهي فيها الانتداب هذه الليلة، ليلة ٦ أيار (مايو) ٥٧٠٨ عبرية الموافق ١٥ أيار (مايو) عام ١٩٤٨ ميلادية وإلى أن تقام السلطات المنتخبة النظامية للدولة طبقاً للدستور الذي

يضعه المجلس التحضيري المنتخب خلال مدة لا تتجاوز أول شهر تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٤٨ يقوم مجلس الشعب مقام الدولة المؤقت وإن هيئته التنفيذية أي الإدارة الشعبية تكون الحكومة المؤقتة للدولة اليهودية التي تدعى باسم - إسرائيل.

إن بلاد إسرائيل تكون مفتوحة للهجرة اليهودية ولجمع الشتات، تدأب على ترقية البلاد لصالح سكانها جميعاً، تكون قائمة على دعائم الحرية والعدل والسلام، على ضوء نبوءات أنبياء إسرائيل تقيم المساواة في الحقوق اجتماعياً وسياسياً ومساواة تامة بين جميع رعاياها دون تفريق في الدين والعنصر والجنس، وتؤمن حرية الأديان والضمير والتعليم والثقافة، وتحافظ على الأماكن المقدسة لدى جميع الأديان، وتكون أمينة بمبادىء ميثاق الأمم المتحدة.

إن دولة إسرائيل تكون مستعدة للتعاون مع مؤسسات وممثلي الأمم المتحدة في تنفيذ قرار هيئتها الصادر بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٧ وتعمل على إنشاء الاتحاد الاقتصادي لفلسطين برمتها.

إننا نناشد الأمم المتحدة بمد يدها للشعب اليهودي في تشييد دولته وقبول دولة إسرائيل ضمن أسرة الأمم.

إننا ندعو أفراد الشعب العربي سكان بلاد إسرائيل - رغم الحملات الدموية علينا خلال شهور - ندعوهم إلى المحافظة على السلم وأخذ نصيبهم في إقامة الدولة على أساس التمثيل الملائم في كافة مؤسساتها المؤقتة والدائمة.

إننا نمد يد السلام وأمل حسن الجوار لكافة البلاد المجاورة وشعوبها وندعوها إلى التعاون مع الشعب اليهودي المستقل في بلاده، فإن دولة إسرائيل مستعدة لأن تساهم بنصيبها في مجهود مشترك في رقي الشرق الأوسط بأسره.

إننا ندعو الشعب اليهودي في كافة مهاجره إلى التكاتف والالتفاف حول يهود فلسطين في الهجرة والبناء وتعضيدهم في كفاحهم العظيم لتحقيق متمنيات الأجيال بتحرير إسرائيل.

إننا بعد الاعتماد عليه - سبحانه تعالى - نوقع بأيدينا هذا التصريح في اجتماع مجلس الدولة المؤقت على أرض الوطن في مدينة تل أبيب اليوم، يوم الجمعة الخامس من شهر أيار (مايو) لسنة ٥٧٠٨ عبرية، الموافق اليوم الرابع عشر من أيار (مايو) سنة ١٩٤٨ ميلادية.

التواقيع: دافيد بن غوريون و ٣٦ توقيعاً آخراً.

ملحق رقم ٢

ازدياد عدد سكان فلسطين في عهد الانتداب البريطاني (١٩٢٢ - ١٩٤٦)

السنة	مسلمون	يهود	مسيحيون	طوائف أخرى	الجملة
١٩٢٢	٤٨٦,١٧٧	٨٣,٧٠٠	٧١,٤٦٤	٧,٦١٧	٦٤٩,٠٤٨
١٩٣١	٦٩٣,١٤٧	١٧٤,٦٠٦	٨٨,٩٠٧	١٠,١٠١	٩٦٦,٧٦١
١٩٤١	٩٠٦,٥٥١	٤٧٤,١٠٢	١٢٥,٤١٣	١٢,٨٨١	١,٥١٨,٩٤٧
١٩٤٦	١,٠٧٦,٧٨٣	٦٠٨,٢٢٥	١٤٥,٠٦٣	١٥,٤٨٨	١,٨٤٥,٥٥٩

هذه المعلومات مستمدة من تقرير وضعته لجنة خاصة لشؤون فلسطين تابعة للأمم المتحدة، وقد رفع إلى الجمعية العمومية عام ١٩٤٧ في اجتماعها الاستثنائي الثاني لبحث القضية الفلسطينية ص ١١.

في العام ١٩٧٢ أصبح عدد سكان فلسطين كما يلي:

يهود: ٢,٧٢٣,٦٠٠ - غير يهود: ٧٤٧٦,٩٠٠ مهاجرون جدد ٥٥,٨٨٨، الجملة: ٣,٢٠٠,٥٠٠.

ملحق رقم ٣

نبذات من خطبة السيد غروميكو أمام الجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٧ :

«في تحليل مختلف المشاريع المتعلقة بمستقبل فلسطين، ينبغي، قبل كل شيء أن نأخذ بعين الاعتبار ما لهذه القضية من المميزات الخاصة. ويجب أن نحسب حساباً لواقع راهن لا يمكن التغاضي عنه، وهو أن سكان فلسطين يتألفون من شعبين: العرب، واليهود. ولكل منهما جذوره التاريخية في أرض فلسطين. وقد أصبحت فلسطين وطناً لكل منهما. وكل منهما يحتل مكاناً في المرتبة الأولى على صعيدي الاقتصاد والحياة الثقافية في البلاد.

«لا يستطيع التاريخ، ولا الأوضاع السائدة حالياً في فلسطين، تبرير حل من جانب واحد للقضية الفلسطينية، إن لجهة إقامة دولة عربية مستقلة، من غير أن تؤخذ بعين الاعتبار حقوق اليهود الشرعية، أو لجهة إقامة دولة يهودية مستقلة من غير أن تؤخذ بعين الاعتبار حقوق العرب الشرعية. لا يمكن لأحد هذين الحلين المتطرفين أن يؤدي إلى نتيجة عادلة تنتهي بها هذه المشكلة المعقدة، لأنهما لا ينظمان العلاقات بين العرب واليهود، وهذا أمر أساسي في الموضوع.

«إذن، فمن الأفضل مواجهة إنشاء دولة يهودية عربية موحدة، يتساوى فيها العرب واليهود في الحقوق والواجبات..

«... هذا الحل يصلح أساساً وطيداً لوجود عربي يهودي متعاون ومسالم، لما فيه خير الجانبين، وجملة سكان فلسطين، وحالة الأمن والسلام في الشرق الأدنى.

«وإذا تبين أن هذا الحل غير قابل التحقيق لما بين العرب واليهود من التوتر، فلا بد من درس حل آخر له مؤيدون بين سكان فلسطين، وهو يقضي بتقسيم البلاد دولتين مستقلتين: دولة عربية، ودولة يهودية.

«أردد قولي أن هذا الحل لا مبرر له إلا إذا ثبت أن توتر العلاقات بين

العرب واليهود هو أمر يتعذر تفاديه، ويجعل التعايش السلمي بين العرب واليهود غير ممكن».

ملحق رقم ٤

القرار رقم ١٨١ الذي أقرته الجمعية العمومية لمنظمة الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، بشأن تقسيم فلسطين:

حكومة فلسطين المقبلة

أ ـ الجمعية العمومية:

بعد أن اجتمعت في دورة خاصة تلبية للسلطة المنتدبة، ألفت لجنة خاصة مهمتها إعداد دراسة عن حكومة فلسطين المقبلة تناقشها الجمعية في اجتماع لاحق.

وبعد أن تلقت الجمعية قرار اللجنة الخاصة المحتوية بعض توصيات اللجنة، وخطة تقسيم مع الاتحاد الاقتصادي أقرت بإجماع أعضاء اللجنة.

فإن الجمعية العمومية توصي المملكة المتحدة، بصفة كونها سلطة منتدبة على فلسطين، كما توصي جميع الدول الأخرى في منظمة الأمم المتحدة، بتبني تنفيذ كل ما يتعلق بحكومة فلسطين المقبلة في خطة التقسيم مع الإبقاء على الوحدة الاقتصادية التالي نصها.

والجمعية العمومية تطلب:

أ ـ أن يتخذ مجلس الأمن الدولي التدابير اللازمة والمنصوص عنها في الخطة، لوضعها موضع التنفيذ.

ب ـ وليعتبر مجلس الأمن أن كل محاولة ترمي بالقوة إلى تعديل الحل الوارد في هذا القرار، هي بمثابة خرق للسلام، وعمل عدواني تطبق عليه المادة ٣٩١ من شرعة منظمة الأمم المتحدة.

والجمعية تدعو سكان فلسطين إلى اتخاذ كل التدابير اللازمة، والتي يمكن أن تكون ضرورية، لتنفيذ هذه الخطة.

وهي تدعو أيضاً كل الحكومات وكل الشعوب إلى الامتناع عن كل عمل من شأنه أن يعرقل تنفيذ هذه التوصيات.

خطة التقسيم:

أ. إنهاء الانتداب، تقسيم واستقلال.

١ ـ ينتهي الانتداب على فلسطين في أقرب ما يمكن، وفي مهلة أقصاها أول آب (أغسطس) ١٩٤٨.

٢ ـ قوات السلطة المنتدبة المسلحة تغادر فلسطين تدريجياً، على أن يتم الجلاء الكامل في أقرب ما يمكن، وفي مهلة أقصاها أول آب (أغسطس) ١٩٤٨. وعلى السلطة المنتدبة أن تعلم اللجنة مسبقاً بموعد انتهاء انتدابها ومغادرة القطاع.

وتعمل السلطة المنتدبة كل ما في وسعها، لتؤمن في أقرب ما يمكن، وفي مهلة أقصاها أول شباط (فبراير) ١٩٤٨ الجلاء عن البقعة الواقعة عليها الدولة اليهودية، وفيها ميناء بحري ومناطق داخلية كافية لاستيعاب هجرات كبيرة.

٣ ـ تبدأ الدولتان العربية والفلسطينية، والنظام الدولي الخاص بمدينة القدس بالوجود الواقعي في فلسطين بعد مرور شهرين على جلاء قوات الانتداب، وعلى كل في أول تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٨ حداً أقصى. وتكون حدود الدولتين العربية واليهودية في مدينة القدس الحدود المعينة في ملحقات هذه الخطة.

٤ ـ الحقبة التي تنقضي بين تبني الجمعية العمومية لهذه التوصيات، وإقامة الدولتين المستقلتين العربية واليهودية هي حقبة انتقالية.

وتجدر الإشارة إلى أن المادة ٣٩١ الوارد ذكرها في هذه الوثيقة تقضي باستعمال القوة المسلحة لقمع كل ما تعتبره منظمة الأمم المتحدة عملاً عدوانياً يهدد السلام العالمي.

ملحق رقم ٥

برقية ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، وقد وجهتها الحكومة الإسرائيلية المؤقتة إلى أمين عام الأمم المتحدة:

«أتشرف بإعلامكم أن المجلس الوطني في دولة إسرائيل المؤلف من ممثلين انتخبتهم المنظمات اليهودية في فلسطين، قد طلب إلى لجنة الأمم المتحدة الاعتراف به على أنه حكومة مؤقتة، بموجب القسم الأول ـ ب ٤ من قرار الجمعية العمومية المتخذ في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧.

«وقد اجتمع هذا المجلس أمس، في ١٤ أيار (مايو)، وأعلن بيانا جاء فيه: «في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، اتخذت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قراراً يقضي بإقامة دولة يهودية مستقلة في فلسطين. ودعت سكان هذا البلد إلى اتخاذ كل التدابير اللازمة من جهتهم لوضع هذه الخطة موضع التنفيذ.

«إن اعتراف الأمم المتحدة هذا بحق اليهود في إقامة دولتهم المستقلة لا يمكن إلغاؤه. وفضلاً عن ذلك فإن للشعب اليهودي حقاً راهناً في أن يكون أمة، كجميع الأمم الأخرى، في دولته الخاصة السيدة المستقلة.

«بناء على ذلك، فنحن، أعضاء المجلس الوطني، وممثل الشعب اليهودي في فلسطين والحركة الصهيونية، وفي اجتماعنا الرسمي المعقود اليوم، يوم انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وبموجب الحق الطبيعي والتاريخي الذي يتمتع به الشعب اليهودي، وبموجب قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة، نعلن، بهذا البيان، قيام الدولة اليهودية في فلسطين واسمها إسرائيل.

«ونعلن بهذا البيان أنه، ابتداء من انتهاء الانتداب، هذا الليل الواقع بين ١٤ و١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، وحتى تأسيس أجهزة الدولة بالانتخاب، عملاً بالدستور الذي سيضعه المجلس التأسيسي في مهلة أقصاها أول تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٤٨، يمارس المجلس الوطني الحالي بصفة كونه مجلساً مؤقتاً للدولة، وجهازها التنفيذي، مما يجعله الحكومة المؤقتة لدولة إسرائيل.

«وستكون دولة إسرائيل مفتوحة لهجرة اليهود إليها من مختلف البلدان التي يتناثرون فيها، وستشجع إنماء البلاد لخير جميع السكان، وستقوم على مبادىء الحرية، والعدالة والسلام، وتحافظ على المساواة الاجتماعية والسياسية محافظة تامة حيال مختلف المواطنين، بلا تمييز عرقي، أو مذهبي، أو جنسي، وستضمن حرية المعتقد وإقامة الشعائر الدينية، والتثقيف، والتربية، واللغة ضمانة مطلقة، وتحمي الطابع المقدس والحصانة المعروفين للأماكن المقدسة لكل الأديان، وتكرس نفسها لمبادىء شرعة الأمم المتحدة.

«وستكون دولة إسرائيل مستعدة للتعاون مع أجهزة الأمم المتحدة وممثليها، ولتطبيق قرار الجمعية العمومية المتخذة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧، وتتخذ التدابير اللازمة لتحقيق الاتحاد الاقتصادي الشامل كل أراضي فلسطين.

«وإننا ندعو الأمم المتحدة إلى مساعدة الشعب اليهودي على إقامة دولته، ومن ثم على قبولها في أسرة الأمم.

«بناء على ما تقدم، أعلن، باسم الحكومة المؤقتة لدولة إسرائيل، أنها مستعدة لتوقيع البيان والتعهد الملحوظين تباعاً في الجزء «أي» و«ث»، والجزء «أي» و«د» من قرار الجمعية العمومية. وأطلب، بهذا البيان قبول إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة.

«باسم حكومة إسرائيل المؤقتة. التوقيع: موشي شرتوك.

ملحق رقم ٦

البرقية التي وجهتها الحكومات العربية إلى أمين عام الأمم المتحدة في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ :

«في الوقت الذي تتدخل فيه الدول العربية في فلسطين لإعادة النظام والحق فيها إلى نصابيهما، ولمنع الاضطرابات الناشبة هناك من الامتداد إلى أراضيها، ولتفادي المزيد من سفك الدماء، لي الشرف بأن أرجو من سيادتكم أن ترفعوا البيان التالي إلى الجمعية العمومية لمجلس الأمن.

«إن حكومات الدول العربية تؤكد اليوم، بهذا البيان، الرأي الذي أعلنته مراراً فيما مضى، مثلاً، في مؤتمر لندن، وخصوصاً أمام منظمة الأمم المتحدة، وهو القائل بأن الحل الوحيد المنصف والعادل لقضية فلسطين هو إقامة دولة فلسطين الموحدة، والمؤسسة على المبادىء الديمقراطية التي تتيح لسكانها جميعاً التمتع بالمساواة أمام القانون، وتضمن لكل الأقليات الحقوق الملحوظة في مختلف الدول الدستورية الديمقراطية، وتوفر لها، في الوقت نفسه، حماية فعالة، وحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة.

«وتعلن الدول العربية، وتردد أن تدخلها في فلسطين ناتج عن اعتبارات وأهداف أعلنت في ما تقدم، وليس لتدخلها سبب آخر.

«لذلك هي تأمل أن يلقى عملها هذا تأييد الأمم المتحدة التي ترمي إلى تحقيق مثال المنظمة وغاياتها كما هي واردة في شرعتها».

ملحق رقم ٧

قرار بشأن القضية الفلسطينية، اتخذه مجلس الأمن في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨:

«إن مجلس الأمن،

«مجدداً توكيد قراراته السابقة المتعلقة بقرار الهدنة في فلسطين، وبوضعه موضع التنفيذ، ومذكراً، على الأخص، بقراره المتخذ في ١٥ تموز (يوليو) ١٩٤٨ المثبت أن الوضع في فلسطين يشكل تهديداً للسلام، بالمعنى الوارد في المادة ٣٩ من شرعة المنظمة.

«يقرر، أنه لتفادي الخطر الذي يهدد السلام في فلسطين، ولتسهيل الانتقال من الهدنة الحالية إلى سلام دائم في فلسطين، ستعقد هدنة في كل قطاعات فلسطين.

«ويدعو الجهات المعنية مباشرة بنزاع فلسطين إلى البحث فوراً عن اتفاق بطريق المفاوضات، إن مباشرة أو مداورة عن طريق الوسيط بالوكالة في فلسطين، على أن يكون ذلك بمثابة تدابير مؤقتة بموجب نص المادة ٤٠ من شرعة المنظمة الدولية، لعقد هدنة فوراً يعين فيها، على الأخص، الشرطان التاليان:

أ ـ لا يجوز للجانبين المتقاتلين اجتياز خط الهدنة الدائمة.

ب ـ اتخاذ مختلف التدابير لسحب القوات المسلحة، ولتخفيضها، من أجل تأمين استمرار الهدنة طوال مدة الانتقال في العمل على طريق إقرار السلام الدائم في فلسطين.

ملحق رقم ٨

نص قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢

المتخذ في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧

«إن مجلس الأمن يعرب عن استمرار قلقه للوضع الخطير في الشرق الأدنى. ويؤكد أنه لا يجوز كسب الأراضي بالحرب والحاجة إلى العمل من أجل سلام عادل ودائم تستطيع معه كل دولة في المنطقة أن تعيش بأمن.

ويؤكد كذلك أن كل الدول الأعضاء قد التزمت بموافقتها على ميثاق الأمم المتحدة بالعمل وفق المادة الثانية من الميثاق.

١ ـ يؤكد أن تنفيذ مبادىء الميثاق يتطلب إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأدنى، وأنه يجب أن نعمل على تنفيذ المبدأين التاليين:

أ ـ انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلت في القتال الأخير.

ب ـ إنهاء كل حالات الحرب واحترام السيادة ووحدة الأراضي والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة والاعتراف بها بالإضافة إلى حقها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها دون تهديد باستخدام القوة.

٢ ـ ويؤكد أيضاً على ضرورة:

أ ـ ضمان حرية الملاحة عبر الممرات المائية الدولية في المنطقة.

ب ـ إحلال تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين.

ج ـ ضمان عدم انتهاك الأراضي والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة عن طريق إجراءات بما فيها إقامة مناطق منزوعة السلاح.

٣ ـ يطلب إلى السكرتير العام تعيين ممثل خاص للذهاب إلى الشرق الأدنى من أجل إقامة اتصالات بالدول المعنية والإبقاء على هذه الاتصالات من أجل السعي إلى اتفاق ومساعدة الجهود الرامية إلى تحقيق تسوية سلمية ومقبولة وفق نصوص ومبادىء هذا القرار.

ملحق رقم ٩

قرارات وتوصيات مؤتمر القمة العربي الذي لم تحضره سورية

الخرطوم ١٩٦٧/٩/١

أولاً ـ أكد المؤتمر وحدة الصف العربي ووحدة العمل الجماعي وتصفيته من جميع الشوائب. كما أكد الملوك والرؤساء الممثلون التزام بلادهم بميثاق التضامن العربي الذي أصدره مؤتمر القمة العربي الثالث الذي عقد في الدار البيضاء وتطبيقه.

ثانياً ـ قرر المؤتمر ضرورة تضافر جميع الجهود لإزالة آثار العدوان على أساس أن الأراضي المحتلة أراض عربية يقع عبء استردادها على الدول العربية جمعاء.

ثالثاً ـ اتفق الملوك والرؤساء على توحيد جهودهم في العمل السياسي على الصعيد الدولي والدبلوماسي لإزالة آثار العدوان وتأمين انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية التي احتلتها بعد ٥ (يونيو) حزيران، وذلك في نطاق المبادىء الأساسية التي تلتزم بها الدول العربية وهي عدم الصلح مع إسرائيل أو الاعتراف بها وعدم التفاوض معها والتمسك بحق الشعب الفلسطيني في وطنه.

رابعاً ـ كان مؤتمر وزراء المال والاقتصاد والبترول العرب قد أوصى بإمكانية استخدام وقف ضخ البترول كسلاح في المعركة، ولكن مؤتمر القمة رأى بعد دراسة الأمر ملياً أن الضخ نفسه يمكن أن يستخدم كسلاح إيجابي باعتبار البترول طاقة عربية يمكن أن توجه لدعم اقتصاد الدول العربية التي تأثرت مباشرة بالعدوان ولتمكينها من الصمود في المعركة.

فقرر المؤتمر استئناف ضخ البترول باعتباره طاقة عربية إيجابية يمكن تسخيرها في خدمة الأهداف العربية، وفي الإسهام في تمكين الدول العربية التي تعرضت للعدوان وفقدت نتيجة لذلك موارد اقتصادية، من الصمود لإزالة آثار العدوان.

وقد أسهمت بالفعل الدول المنتجة للبترول في تمكين الدول التي تأثرت بالعدوان من الصمود أمام أي ضغط اقتصادي.

خامساً ـ أقر المجتمعون المشروع الذي تقدمت به الكويت لإنشاء صندوق الإنماء الاقتصادي والاجتماعي العربي، طبقاً لتوصية مؤتمر وزراء المال والاقتصاد والنفط الذي انعقد في بغداد.

سادساً ـ قرر المجتمعون ضرورة اتخاذ الخطوات اللازمة لدعم الإمداد العسكري لمواجهة كافة احتمالات الموقف.

سابعاً ـ قرر المؤتمر سرعة تصفية القواعد الأجنبية في الدول العربية.

وأصدر المؤتمر قراراً منفصلاً هذا نصه:

«قررت كل من المملكة العربية السعودية ودولة الكويت والمملكة الليبية، أن تلتزم كل منها بدفع المبالغ الآتي بيانها سنوياً، ومقدماً عن كل ثلاثة أشهر ابتداءً من منتصف اكتوبر، إلى حين إزالة آثار العدوان:

المملكة العربية السعودية ـ ٥٠ مليون جنيه استرليني.

دولة الكويت ـ ٥٥ مليون جنيه استرليني.

المملكة الليبية ـ ٣٠ مليون جنيه استرليني.

وبهذا تضمن الأمة العربية أنها تستطيع أن تسير في هذه المعركة لحين الانتهاء من إزالة آثار العدوان».

ملحق رقم ١٠

سكان المخيمات الدائمة للمهجرين الفلسطينيين

حتى ٣٠ حزيران ١٩٦٠

البلد	عدد المخيمات	المقيمون فيها رسمياً وبحسب التسجيل	عدد المقيمين الحقيقي
شرقي الأردن	٤	٧٢,٥٩٥	١٠٦,٤١٧
غربي الأردن	٢٠	٦٦,٢٧٤	٧٣,٠٥٨
غزة	٨	٢٩٢,٥٩٠	١٩٨,٩١٩
لبنان	١٥	٨٣,٤٨٧	٩٠,٩٤٩
سوريا	٦	٢٥,٣١٣	٢٧,٦٣٠

أما عدد سكان مخيمات الطوارىء فنجده في الجدول التالي:

البلد	عدد المخيمات	عدد السكان
شرقي الأردن	٦	١٠٣,٦٧٨
سوريا	٤	١٥,٤٩١

حقائق عن «حالة اللاجئين الفلسطينيين عام ١٩٧٠» من تقرير مفوض مكتب الإغاثة التابع للأمم المتحدة (الصفحتان ٣ و ١١):

«إن المعضلة الإنسانية الناجمة عن تهجير الفلسطينيين تستمر وتتعقد. فالمهجرون يعانون خيبة مرة تشتد في نفوسهم عاماً بعد عام، إذ يتضاءل أملهم بالعودة إلى ديارهم، بقدر ما تضيع المساعي المبذولة لتطبيق النبذة ١١ من القرار ١٩٤ المتخذ في الجمعية العمومية.

«وبانتظار ما سيكون، هم لا يعتبرون نفوسهم لاجئين، بل مقيمين موقتاً تحت وصاية المجتمع الدولي ويحملونه مسؤولية التقلبات التي أفقدتهم

ديارهم. والمساعدات التي ينالونها هي في نظرهم حق مفروض لهم واعتراف بسوء حالهم.

«إن نتائج حرب العام ١٩٦٧، وما أدت إليه من احتلال عسكري، تحدث بين المهجرين هزات عنيفة، وتوتراً بالغ الخطورة في المنطقة كلها. فهناك مئات الألوف هربوا من بلادهم، وما يزالون غير مستقرين منذ ثلاثة أعوام، على الرغم من نداءات الجمعية العمومية ومجلس الأمن المطالبة بإعادتهم إلى ديارهم.

«والخط الذي تسير عليه حركات النشاط الفدائي أصبح شديد التأثير إلى درجة الحسم في المواقف، في مختلف البلدان التي استقبلت المهجرين، وعلى الأخص في صفوف الفلسطينيين».

ملحق رقم ١١

بيان المجلس الوطني الفلسطيني

القاهرة ١٧/٧/١٩٦٨

عقد المجلس الوطني الفلسطيني دورته في القاهرة من العاشر إلى السابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٦٨ وقد تمثلت فيه القوى والمنظمات الفلسطينية العاملة. وقامت لجانه بدراسة المواضيع والتوجيهات والاقتراحات المحالة إليها وهي تشمل النواحي السياسية والعسكرية والإعلامية المتعلقة بالقضية الفلسطينية كما تشمل موضوع توحيد الجهود الوطنية وشؤون النضال المسلح ووسائل تصعيده وأساليب توحيده وتشمل كذلك الميثاق الوطني والشؤون المالية والقانونية والأنظمة الأساسية المتعلقة بمنظمة التحرير الفلسطينية والصندوق القومي الفلسطيني والمجلس الوطني واللجنة التنفيذية. وقد وضعت لجان المجلس توصياتها حول هذه المواضيع والشؤون وعرضت هذه التوصيات على المجلس الوطني الذي ناقشها واتخذ بشأنها القرارات اللازمة وتستهدف هذه القرارات توحيد العمل الفلسطيني في مختلف المجالات وفق الأسس اللازمة لتحقيق ذلك.

ولقد عرض المجلس الوطني خلال اجتماعاته المتوالية المرحلة الخطيرة الحاسمة التي تجتازها القضية الفلسطينية والمحاولات المختلفة التي تستهدف تصفيتها. وقرر المجلس وجوب التصدي لجميع هذه المحاولات واستنكار جميع المشاريع المشبوهة ومنها فكرة الكيان الفلسطيني المزيف في الوطن المحتل، كما قرر المجلس رفض قرار مجلس الأمن الصادر في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ لما ينطوي عليه من أخطار تؤدي إلى تصفية القضية الفلسطينية.

وأكد المجلس الفلسطيني على مواصلة هذا النضال ليصبح حرباً شعبية تحريرية شاملة تخوضها الأمة العربية بجميع قواها وتحشد لها كل طاقاتها وإمكاناتها.

وقرر المجلس توجيه التحية الخالصة إلى أبناء فلسطين الصامدين في الوطن المحتل وإلى المناضلين الذين تظللهم راية الكفاح المسلح وإلى أبناء الشعب العربي في جميع أقطاره وإلى الشعوب الإسلامية والصديقة التي تؤيد الشعب العربي الفلسطيني وتدعمه في نضاله.

كما قرر المجلس إعادة انتخاب اللجنة التنفيذية المستقبلة وعهد إليها في تنفيذ المقررات التي اتخذها في هذه الدورة وتهيئة الظروف والأسباب التي تكفل تحقيق الوحدة الوطنية. وقرر المجلس أن يكون من مهام اللجنة التنفيذية إعادة تأليف المجلس الوطني الفلسطيني للمنظمة في مدة أقصاها ٦ أشهر يظل خلالها المجلس الوطني الحالي قائماً.

لقد كان تلاقي القوى والمنظمات الفلسطينية من خلال هذا المجلس خطوة على طريق توحيد الجهود في جميع المجالات وستتبعها خطوات. ولسنا نشك في أن جميع أبناء فلسطين يقدرون هذه المرحلة حق قدرها وسيواجهون مسؤولياتهم الوطنية بصدق وعزم وإيمان وسيعملون على تعبئة القوى وحشد الطاقات وتوحيد الجهود لتحقيق النصر في معركة التحرير والمصير.

ملحق رقم ١٢

المنظمات الفلسطينية

برزت المقاومة الفلسطينية، بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بشكل علني وان كانت جذورها تعود لأوائل الستينات. وكان تصاعد هذه المقاومة نتيجة للفشل العسكري للبلاد العربية، وتجسيداً للواقع السياسي لما بعد الحرب. كانت الأنظمة العربية تربط بين حل القضية الفلسطينية وتحقيق الوحدة العربية في المستقبل. ولم يكن للشعب الفلسطيني من أصوات منذ عام ١٩٦٤ (تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية برئاسة الشقيري) إلا على لسان المسؤولين الذين تعينهم الأنظمة العربية.

واتبعت الحكومات العربية طوال هذه الفترة أسلوب يقضي بتغليب المصلحة الاقليمية المؤقتة على التحدي المباشر لقوى ومكامن الدولة اليهودية، أي أن الحكومات العربية بقيت تعالج قضية فلسطين من زاوية مفهوم الربح والخسارة. كما اتبعت سياسة التخدير بالوعود الطائلة التي كانت تغدقها على الفلسطينيين، لتبقى سيطرتها على موقف المواجهة ولو كلامياف مع إسرائيل.

وتبين أن كل الأساليب التي اعتمدتها الدول العربية لاحتواء القضية الفلسطينية فشلت مع نشوء فكرة الكفاح المسلح الفلسطيني، مستقلا عن الحكومات العربية. عندها طرحت القضية الفلسطينية بشكل مستقل ـ وهو موقف جديد ـ بالنسبة للفلسطينيين، لم يعد هناك من «مشكلة لاجئين» إنما هنالك واقع وطني فلسطيني. وادى الأمر بالأنظمة العربية ـ خاصة مصر والأردن ـ طوعاً أو كرهاً حسب طبيعة الأنظمة ـ للاعتراف بهذا الواقع. ورفض الدولة لاسرائيلية ـ رسميا على الأقل ـ التسليم بهذه الحقيقة. غير أن حركة المقاومة الفلسطينية أصبحت تمثل، في الإطار العربي، العنصر المركزي لكل حل لاحق.

فبرزت في هذه الفترة محاولات فلسطينية مستقلة عن الإطار العربي لاحتواء العمل الفلسطيني سياسياً فكانت منظمة التحرير الفلسطينية، وعسكريا

فكانت قيادة الكفاح المسلح. غير أن هذه القيادات الموحدة فشلت في أداء دورها الاتحادي فبقيت المنظمات مبعثرة ومتعددة كما أن بعضها بقي يدور في فلك الحكومات العربية.

أبرز حركات المقاومة الفلسطينية

١ - «فتح»:

تعتبر فتح أول حركة فلسطينية بحصر المعنى، منذ التشرد الذي عرفه الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨. وقد نشأ التفكير بمثل هذه المنظمة بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٥، عندما بدأ بعض الشباب يجمعون ما لديهم من مال ويحضرون الالغام والمتفجرات. وقد تأسست أول خلية «لفتح» عام ١٩٥٨. وأصدرت في مطلع العام اللاحق مجلة باسم «فلسطيننا»، وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥، أصدرت بلاغها العسكري الأول معلنة فيه بدء الكفاح المسلح.

تبحث فتح عند اختيار عناصرها عن النوعية، وتحرص أن يكون العضو متمتعاً بصفة الجندي والقائد معاً، ثائراً مؤمناً بمبادئها وبخط سير عملها، ومن العناصر القادرة على تحمل أعباء الكفاح المسلح والنضال الطويل المدى. كما تخضع الأفراد المنتسبين إليها لدورات تدريبية، عسكرية وتثقيفية.

وتعتقد فتح أن واقع الاحتلال الصهيوني، يؤكد أن استعادة فلسطين لا يمكن أن تتم إلا عن طريق العنف المسلح، وعملية التحرير ليست إزالة قاعدة استعمارية فقط، بل القضاء كذلك على القوى العسكرية لدولة الاحتلال الفلسطيني ومقوماتها المعيشية بكل صورها الصناعية والزراعية والمالية... والهدف من وراء حرب التحرير الفلسطينية ليس الحاق الهزيمة العسكرية باسرائيل وحسب، بل القضاء على صبغة الصهيونية للأرض المحتلة.

وقد أكد قادة الحركة مراراً استقلال منظمتهم عن أي توجيه أو ارتباط سواء بالحكومات أو الهيئات العربية وغير العربية. فهي كما قالت في مذكرتها للأمين العام للأمم المتحدة «يوثانت» «لا تسمح لأي كان أن يحد من نشاطها أو يوقف هذا النشاط، وتحتفظ لنفسها بحقها الطبيعي الكامل في اتخاذ

الخطوات التي تراها لمواجهة أي عمل يوجه ضدها أو ضد الشعب الفلسطيني، أياً كان مصدره».

وبينما كانت «فتح» تسعى في سنوات ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ لخلق نواة سياسية أكثر تنظيماً وسط المثقفين الفلسطينيين، أخذت الحركة بدءا من سنة ١٩٦٢ بتركيز جهودها حول تأسيس منظمة عسكرية، ونتج عن نواة «فتح» (حركة التحرير الوطني الفلسطيني) نواة المنظمة العسكرية: «العاصفة».

وتجمع العاصفة بمفردها من المقاتلين على قدر جميع المنظمات الأخرى مجتمعة (بين ١٠,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ حسب المصادر) وقد انضووا تحت لوائها مرحليا.

وفي مؤتمر المنظمات المنعقد في القاهرة بتاريخ: ١٩٦٨/١/٢٠ تقرر ضم الفرق العسكرية التالية إلى منظمة فتح:

١ ـ الجناح العسكري في جبهة التحرير الفلسطينية (ج. ت. ف).

٢ ـ الجناح العسكري في حركة الشباب الثوري الفلسطيني.

٣ ـ الجناج العسكري للهيئة العاملة لدعم الثورة.

٤ ـ الجناح العسكري لحركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح».

وأصبحت تصدر البلاغات العسكرية بموجب هذا القرار باسم قوات «العاصفة». ومع أن حركة التحرير الفلسطينية لم تتوان عن المبادرة والقيام بمحاولات لجمع فئات الشعب الفلسطيني تحت قيادتها، إيماناً منها بأن التعاون فيما بينها يؤدي إلى ترسيخ دعائم الوحدة الوطنية، وإلى دعم الكفاح المسلح وتصعيده، وشمول الثورة وضمان استمرارها، فإن ذلك لم يمنع من الانقسام وتزايد المنظمات.

٢ ـ «الصاعقة»:

تعد «الصاعقة» المنظمة الفلسطينية الأقوى بعد «فتح». أهميتها العسكرية تفوق رسوخها السياسي، وقد نشأت فعلياً بعد حرب حزيران ١٩٦٧، وان كانت تعود بذورها إلى عام ١٩٦٦. وتمثل الجناح

العسكري لطلائع حرب التحرير الشعبية، ولها ارتباطات وثيقة وجذرية بحزب البعث في سوريا.

بدأت الصاعقة عملياتها العسكرية من الأردن وليس من الجولان، وكان أحد قادتها الرئيسيين «محمود المعايطة». وبفضل المساعدات السورية، نمت المنظمة باطراد دون أن تجابه عقبات مادية، وتعاظم شأن الصاعقة ـ رغم أنها لا تتمتع بتسليح ثقيل مثل «فتح» ـ عندما قرر مؤتمر المنظمات الفلسطينية أثناء انعقاده في القاهرة في ١٩٦٨/١/٢٠ أن تضم «الصاعقة» مرحلياً الفرق العسكرية التالية:

١ ـ الجناح العسكري لجبهة ثوار فلسطين.

٢ ـ الجناح العسكري لطلائع حرب التحرير الشعبية.

٣ ـ الجناح العسكري لجبهة التحرير الشعبية الفلسطينية.

وأصبحت جميع البلاغات العسكرية تذاع باسم «الصاعقة».

٣ ـ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين:

تعد من أقدم المنظمات الفلسطينية بعد «فتح». ففي آب (أغسطس) ١٩٦٥ بدأ ما كان يسمى في ذلك الحين «جبهة تحرير فلسطين» بالقيام بعمليات فدائية مع ثلاث مجموعات عسكرية:

ـ مجموعة عبد القادر حسيني.

ـ مجموعة عز الدين قاسم.

ـ مجموعة عبد اللطيف شرور.

وانطلقت هذه العمليات من الحدود الأردنية والسورية، وصادفت الجبهة، مثل، «فتح»، أقسى الصعوبات لتترسخ بين جماهير اللاجئين الفلسطينيين.

انشئت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين رسمياً بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ موحدة بمبادرة من حركة القوميين العرب، ثلاث منظمات وهي:

١ ـ «أبطال العودة» التي تأسست في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦، وكانت

هذه وثيقة الصلة بحركة القوميين العرب، كما كانت تلقى تأييد منظمة التحرير الفلسطينية «فتح».

٢ ـ حركة القوميين العرب ـ الفرع الفلسطيني الذي أوجده وترأسه جورج حبش نفسه الذي تزعم المنظمة الموحدة.

٣ ـ التعليم العسكري للحركة القومية لتحرير فلسطين «شباب الثأر».

٤ ـ مجموعة رابعة انضمت فيما بعد عام ١٩٦٨ «حركة الضباط الأحرار».

وقد اشتهرت هذه الحركة بعملياتها المثيرة والدعائية التي استنكرتها المنظمات الفلسطينية الأخرى (اختطاف الطائرات ـ عمليات أثينا ـ زوريخ ودمشق)، وذلك سعياً منها لتكسب شهرة عالمية توفرها لها قواها الخاصة.

وقد أبدت الحركة كثيراً من التعاطف مع الناصرية لاعتقادها أن الوحدة العربية هي الحل الوحيد للقضية الفلسطينية. لكن مع مر السنين أدركت الحركة أهمية عزل القضية الفلسطينية عن المنازعات السياسية على الساحة العربية، فعملت على تدعيم استقلاليتها.

ولم يتأخر ظهور الخلافات، عندما بدأت حركة القوميين العرب ـ التي انضم إليها بين عامي ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ «تقدميون» كثر ـ تهاجم أنظمة الدول العربية وأرادت، من خلال الكفاح المسلح الفلسطيني، خلق مناخ ثورى في البلاد العربية.

وحصل انشقاق أول عند خروج مجموعة «أحمد جبريل» «أبطال العودة» في تشرين الثاني (نوفمبر). واشتدت حدة الخلافات في كانون الأول (ديسمبر) والثاني (يناير) ١٩٦٩ بين الجناح اليميني وأشهر شخصياته جورج حبش، وديع حداد، أحمد عبد ربه، وبين الجناح اليساري. وقد تجابه الجناحان خلال شهر شباط (فبراير) بعنف، وتكرس الانشقاق كأمر واقع. في غضون ذلك رفضت الجبهة الشعبية التوجه إلى المؤتمر الذي انعقد في القاهرة من أجل تعيين المجلس التنفيذي لمنظمة التحرير على أساس أن تكسب ١٢ مقعداً من أصل ١٠٥ في الملجس الوطني الفلسطيني.

بقي جناح جورج حبش الأكثر أهمية. وأصبحت الحركة تنطق باسم

«الماركسية ـ اللينينية ـ الآسيوية». كما أصدرت مجلتها «الهدف».

٤ ـ الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين:

تشكلت في عام ١٩٦٩، على أثر انشقاق في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي كان يرئسها جورج حبش. أمينها العام نايف حواتمة، وتعتبر هذه الحركة الماركسية مجموعة ثورية فلسطينية، بمعنى أنها لا تقتصر على كونها وطنية. والمجلس الوطني الفلسطيني السادس، أعطى الجبهة الديمقراطية هذه قوة دفع عظيمة، وسمح لها في عدة مناسبات للتعريف والدفاع عن مبادئها ونظرياتها أمام الجماهير الفلسطينية.

وتهتم هذه المنظمة بتنشئة عناصرها والمنضوين الجديد. فلا بد من أن يمر العنصر قبل أن يصبح عضواً بمرحلتين أساسيتين:

١ ـ مرحلة تلقين النظريات الماركسية، وقضايا الكفاح الثوري المسلح بواسطة النصوص التي تعالج هذه الظاهرة: غيفارا، كاسترو، ماوتسي تونغ، كما يدرسون تاريخ القضية الفلسطينية ومراحلها عبر التاريخ وتاريخ التجارب الصينية والفيتنامية والكوبية.

٢ ـ المرحلة الثانية تتطرق للقضايا المتعلقة بالثورة آنياً: صراع طبقي، مرحلة الانتقال من الثورة؟.. وتدرس نظريات لينين في العمل والدولة والثورة...

ويعتمد المدربون والعسكريون الأغراب أسماء مستعارة ما عدا القادة الفلسطينيين: نايف حواتمة ومحسن إبراهيم....

في أوائل سنة ١٩٧٠ تقاربت المنظمة من الأنظمة المصرية والعراقية كما شرعت باتهام الدول العربية ـ وخاصة الأردن ـ بالعمل على عرقلة مسيرة «الكفاح المسلح الفلسطيني وعدم المساهمة في تسليحه وتدريبه. وتعتقد الجبهة أيضاً أنه لا يمكن فصل القضية الفلسطينية عن أنظمة الدول العربية لذلك يتوجب التدخل في شؤونها الداخلية، لما يخدم هذه القضية كما تتهم فتح «بالتساهل مع بعض الأنظمة العربية والتبعية لبعضها».

وعلى الصعيد العسكري تعتبر هذه المنظمة متوسطة القوة لكن عملياتها في الخارج أعطتها حجماً عسكرياً أكثر مما هي في الحقيقة. قواتها لا تتعدى الـ ٣ آلاف إلى ٤ آلاف (حسب المصادر الفلسطينية).

٥ ـ أيلول الأسود:

ولدت منظمة أيلول الأسود في نهاية عام ١٩٧٠، إثر المعارك الأردنية ـ الفلسطينية في غابات جرش وعجلون. وكانت أولى عملياتها في ٢٨ أيلول باغتيال وصفي التل رئيس الوزراء الأردني في القاهرة.

وفي ١٥ كانون الأول ١٩٧١ أصيب زيد الرفاعي رئيس الوزراء الأردني سابقاً، أثناء محاولة لاغتياله بالمدافع الرشاشة وكان في حينه سفيراً لبلاده في لندن، وأعلنت أيلول الأسود مسؤوليتها عن الحادث.

اشتهرت هذه المنظمة بعملياتها العسكرية التي أظهرتها مغايرة لما هي عليه كحجم عسكري. فقد قامت بعدة عمليات في إسرائيل وفي ألمانيا الاتحادية ضد شركات ومؤسسات اتهمتها بالتعامل مع النظام الصهيوني. ومن أخطر العمليات التي نفذتها في ميونيخ في ٥ أيلول ١٩٧٢ عندما اختطف خمسة من أعضائها تسعة من الرياضيين الإسرائيليين أثناء دورة الألعاب الأولمبية. وقد أسفرت العملية عن مقتل ١٤ شخصاً بينهم ٣ من الفلسطينيين.

وقامت بعملية أخرى في السفارة السعودية في الخرطوم (السودان) حيث اغتالت السفير الأميركي «كليو نويل» ونائبه جورج مور والقائم بالأعمال البلجيكي في ٢ آذار ١٩٧٢. لكنها فشلت في عملية مهاجمة سفارتي الأردن وإسرائيل في جنوب فرنسا وقد اعتقل الفاعلون.

ويتبين من العمليات التي نفذتها أيلول الأسود في أنحاء من العالم، أنها شغلت عواصم الشرق والغرب حيالها. وقد انضم إليها العديد من الشبان الأجانب خاصة في فرنسا وبريطانيا، وقد نفذوا العديد من العمليات الناجحة. معظم أفراد هذه المنظمة يتواجدون في لبنان وفي سوريا كما أن لها مكاتب عديدة في كل العواصم العربية.

المصادر باللغة العربية

١ ـ «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين»، الأمير حيدر الشهابي، منشورات الجامعة اللبنانية (الأجزاء ١ـ ٢ـ ٣).

٢ ـ «أخبار الأعيان في جبل لبنان»، طنوس الشدياق، منشورات الجامعة اللبنانية (الجزآن ١ و٢).

٣ ـ «الكتاب المقدس ـ العهد القديم»، دار المشرق ١٩٨٩.

٤ ـ «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ سيرة صلاح الدين ـ»، بهاء الدين بن شداد، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، ١٩٦٤، منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة.

٥ ـ «قرارت الأمم المتحدة حول فلسطين ١٩٤٧ ـ ١٩٧٢»، سلسلة الوثائق الأساسية رقم ١٠، جمع وتصنيف سامي مسلّم، بيروت ١٩٧٣.

المصادر باللغة الفرنسية

1-"*L'Empire Ottoman, Les arabes et les grandes puissances 1914 - 1920*" , Antoine Hokayem, Marie - Claude Bittar, Les éditions unversitaires du Liban 1981.

المراجع

1- «La décennie qui ébranla le moyen - orient 1914 - 1923», Nadine Picaudou, Edition Complexe, Bruxelles 1994.

٢ ـ «سرقة وطن»، ويليام بيكر، ترجمة د. خيرية قاسمية، مروان زرزر.

٣ ـ التوسّع في الاستراتيجية الإسرائيلية، الدكتور عدنان السيّد حسين، دار النفائس ـ بيروت ١٩٨٩.

٤ ـ «الغزو اليهودي للمياه العربية»، الأرقم الزعبي، دار النفائس ـ بيروت ١٩٩٢.

٥ ـ «الإنحياز»، ستيفن غرين، نقله إلى العربية الدكتور سهيل زكار، منشورات دار حسان.

٦ ـ «التاريخ الدبلوماسي، تاريخ العالم من الحرب العالمية الثانية إلى اليوم»، ج. دروزيل، تعريب نور الدين حاطوم، دار الفكر (جزآن).

٧ ـ «السلام الحقيقي»،ريتشارد نيكسون، ترجمة رياض الطباع

٨ ـ «المنظمات اليهودية ـ الأميركية ونشاطاتها في دعم إسرائيل»، لي أوبراين، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

٩ ـ «السياسة الأميركية في الشرق الأوسط، نيكسون، فورد، كارتر، ريغن»، ليلى بارودي ومروان رحمة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

١٠ ـ «يوميات الحرب ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩»، دافيد بن غوريون، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

١١ ـ «القيادات والمؤسسات الفلسطينية ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨»، بيان نويهض الحوت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

١٢ ـ «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين»و الدكتور فيليب حتي.

١٣ ـ «مقرّر تاريخ الشرق الأدنى القديم»، إعداد الدكتور ابراهيم كوكباني، السنة الثانية ـ تاريخ ـ ١٩٧٩.

١٤ ـ «تاريخ العرب الحديث»، مقرّر من إعداد الدكتور الياس القطار، السنة الرابعة ـ تاريخ ـ ١٩٨١.

١٥ ـ «تاريخ الحضارة العربية»، إعداد الدكتور ابراهيم ريشا، لطلاب السنة الثالثة ـ تاريخ ـ ١٩٨٠.

١٦ ـ «تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية»، إعداد الدكتور فؤاد خوري، لطلاب السنة الأولى ـ تاريخ ـ ١٩٧٨.

١٧ ـ «تاريخ الدولة العباسية»، إعداد الدكتور جان صدقة، لطلاب السنة الثانية ـ تاريخ ـ ١٩٧٩.

١٨ ـ «تاريخ اليونان»، الدكتور اسد رستم منشورات الجامعة اللبنانية.

١٩ ـ «عصر اغسطس قيصر وخلفاؤه الجزآن ١ و٢»، الدكتور اسد رستم، منشورات الجامعة اللبنانية.

٢٠ ـ «أرشيف صحافي خاص» يحتوي صحيفة النهار خلال السبعينات والثمانينات والتسعينات.

٢١ ـ «مجلة العمل الشهري»، الأعداد ١ ـ ١٢، السنوات ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨، منشورات دار العمل.

٢٢ ـ «تاريخ الحملات الصليبية على الشرق»، إعداد الدكتورة الأخت أليس حنينة لطلاب السنة الثانية ـ تاريخ ـ ١٩٧٩.

٢٣ ـ «تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة ومؤتمراتها»، موضوع بحث إعداد عاطف عيد، الدراسات العليا في التاريخ ١٩٩٧.

المحتويات